ما لَم تُخبرنا به آمنة

رِهام راضي

الطبعة الأولى: يناير 2024

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2
مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: 20220812006+
rewaq2011@gmail.com
www.alrewaqpublishing.com

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
الإخراج الفني: محمد عبد القوي مصيلحي
المراجعة اللغوية: آلاء خليفة

الترقيم الدولي: 9 - 224 - 824 - 977 - 978
رقم الإيداع: 29042 / 2023

حصريا على كتب عربية وعالمية
https://t.me/riwaya2025
Visual Watermark

رِهام راضي

مالم تخبرنا به آمنة

بورسعيد - القاهرة
1944

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

حصريا على كتب وروايات عربية و عالمية https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

إهـــداء

إلى أعظم مُفاجآت القدَر، ذلك الضوءُ من الله، الذي أتى
ليُضيء كُل الأيام.. فريد.

https://t.me/riwayat2025
حصريا على روايات و كتب عربية و عالمية
Visual Watermark

تنويه

على الرغم من أن الرواية تتضمن بعض أسماء الشخصيات العامة والأحداث السياسية، إلى جانب بعض أسماء الشوارع والأماكن المعروفة قديمًا، إلا إن الأحداث التي تدور في حياة أبطال الرواية كلَّها من نسج الخيال.. وأية محاولة للربط بين الواقع والخيال لن تُجدي نفْعًا في نهاية المَطاف!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

ربما سنغض البصرَ عمَّا حدث لنا بالأمس.. وربما سنتغاضَى عن رسائل القدَر في أحلامنا.. أو سندَّعي النسيان.. سنُشوِّه التاريخ، وعبثًا سننتقم من الأيام بمَحوِها.. ولكن في النهاية، ستنتصر الرؤى.. ستظلُّ في تكرار حتى نُفيق ونعترف. حينها سوف نُدرك أننا لم نُشوِّه شيئًا سوى أنفسِنا!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية و عالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الأول

«أنا! أنا عامية.. أنا عامية!»

لم تكتمل فرحةُ «ليلى»، التي كانت تتحرك في أرجاء غُرفتها بمرحٍ وحيوية، وقد اختبأت عيناها تحت عمامة سوداء. ترتدي فستان الزفاف الأبيض وقد وصل لتوِّه من عند الخيَّاطة؛ استعدادًا لحفل زفافها الذي سيتم بعد أيام قليلة. ركضت بسعادةٍ يُغلِّفها الحذَرُ خوفًا من الاصطدام بأي شيء، لتبحث عن أمها. ولكن حُلم العروس تبخَّر فورَ أن سمعَت الكلمات الباكية من خلف باب الغُرفة. فالتصت أحيانًا مشروعٌ عندما تلمح في ذرَّات الهواء بقايا من أسمائنا ومصائرنا الهاربة من خلف الأبواب الموارية.

سمعت «ليلى» كلمات الأُم المكلومة، والتي تمنَّت الموتَ قبل أن تبوح لابنتها بحقيقة الأمر، وهي أن «ليلى» لن ترى النورَ مرةً أُخرى!

مات حُلم «ليلى».. فأعلنت «عليَّة» الحِداد!

بسينما الكورسال بمدينة بورسعيد، وفي ليلة باردة في أواخر شهر فبراير لعام ١٩٤٤، جلست «عليَّة» تُحمل ابنتها «فردوس» التي كانت على وشك أن تتم ثلاثة أعوام بعد أسابيع قليلة، وفي أحشائها حملت جنينها في أواخر شهره الرابع. وجلس بجانبها زوجُها «سيد» يزمُّ شفتيه ويتأفَّف لحال زوجته التَّعِس! تأثَّرت «عليَّة» تأثُّرًا شديدًا بأحداث فيلم «ليلى في الظلام»؛ اغرورقت عيناها بالدموع وبدأ صوتُ نحيبها يعلو تأسُّفًا على «ليلى مراد». أدارت «فردوس» رأسَها تنظر إلى وجه أُمها الحزين بعينٍ برينة، لتبكي هي الأُخرى بصوتٍ طفلةٍ يُغالبها النوم، فانزعج الجميع! التفت «سيد» لينظر حوله بحَرَجٍ إلى المتفرجين القابعين في كراسيهم بالسينما، ولم يكن تأثير الفيلم عليهم ووطأة حزنه كما حدث مع زوجته. ترك قرطاس اللب من يده، وانتشل ابنته من أحضان والدتها ليُهدئ من روعها، وقد بدأ يتسرب إلى أُذنيه تأفُّف الحضور من صراخها الذي لا يتوقف. ثم ربت على كتف «عليَّة» ومال برأسه يهمس بالقرب من أُذنها قائلًا:

– خلاص يا «عليَّة»! ما يصحش! «فيفي» تبكي ليكائك! كل هذا تمثيل أفلام! ليلى مراد لم تفقد نظرها، بل أنتِ مَن ستفقدينه ببكائك الدائم في كل الأفلام!

أجابته «عليَّة» بكلماتٍ امتلأت بالنُّواح:

– تُذكرني بماما «آمنة»، صعبت عليَّ، يا عيني عليها!

فعلَّق «سيد» قائلًا بصوت رصين:

– أمي لم ترَ النورَ منذ طفولتها يا «عليَّة»! وهي الآن نائمةٌ في سَريرها بهَناء، ونحن هنا نَندب الحظ! خُذي في عِلمك إن هذا الفيلم سينتهي وقد عاد نَظر البَطلة.. تعرفين الأفلام.. اطمئني.

قال كلماته تلك بثقةٍ لا متناهية كأنه مَن أخرج الفيلم، ومَن كَتب قِصته! ثم أخرج من جيب البدلة منديله القماشي وأعطاها إياه كي تمسح دموعها المنهمرة. أومأت «عليَّة» برأسها وسكنت سريرتُها بعد كلمات زوجها، لتُتابع الفيلم الذي بدأ بأحداثٍ سعيدة ثم تطورت إلى تراجيديا عكَّرت صفوها. ولكنه انتهى دون أن يَصدُق قول «سيد».

تمامًا كالواقع. لا تنتهي كلُّ الأفلام كما نأمل؛ ستخلع البطلةُ الغمامة، ولكنها ستظلُّ في الظلام الدامس، حتى لو تزوجت البطلَ وقبَّلته قُبلةَ النهاية.. انتهى الفيلم دون عودة نظر «ليلى».

***

«وقِّف هُنا يا أُسطى لو تكرمت».

أشار «سيد» إلى سائق عربة الحنطور وهو يُحدِّثه، فسحب العربجي لجام الخيل وتوقف. هبط الزوج من العربة وهو يحمل ابنته التي غطت في نومها، ومن خلفه زوجته كئيبة الملامح. التزمت الصمتَ في طريق عودتهم من السينما وحتى وصلا إلى شارع فؤاد حيث يقطنان. وارتسمت على وجهها عبارات اللوم لأن النهاية لم تكن مثلما قال. دس «سيد» يده في جيبه ثم ناول العربجي بضعة مليمات. كان الحيُّ ساكنًا لحظةَ

Visual Watermark

وصولهم عدا من صوت حدوات الحِصان في خطواته بإيقاعٍ منتظم، ومن خلفها عجلات عربة الحنطور التي بدَت مرتبكةً من اصطدامها بالعديد من حصا الأرض وهي تبتعد. وعلى الرغم من برودة الطقس في تلك الليلة، إلَّا أن «عليَّة» أحسَّت بدفءٍ يَغمرها فورَ أن دلفت مدخلَ العمارة. دفء احتوى جدران البناية بطوابقها الثلاثة، بأنفاس النائمين في بيوتهم، وسَكينة الطيور الهادئة داخل العشش فوق السطح. كما أحسَّت أنها مرهَقة، واختفى حزنها لتُفكر في السرير الذي ستستلقي عليه، تحمل همَّ خلع حذائها وتبديل فستانها الأخضر الصوفي لارتداء جلباب النوم. تأمل ألَّا تجِد ابنها «فريد»، الذي سيُتم عامه الرابع بعد عدة أشهر، مستيقظًا. فضَّلوا في تلك الليلة أن يتركوه في البيت، حتى لا يُفسد عليهما الفيلم بصوته المرتفع وحركته المُفرطة كما فعل في المرة الأخيرة، واصطحبوا بدلًا منه «فيفي» الصغيرة. دعت «عليَّة» ألَّا يكون ابنها قد أتعب خادمتهم «أم عثمان» بمشاغباته، أو أيقظ جدته المُسنة التي تنام قبل أن يَحل المساء. أسندت «عليَّة» يدها اليُمنى على درابزين السُّلَّم الحديديِّ وبيدها الأُخرى تحسَّست بطنها وقد بدأت تبرز قليلًا، فأحسَّت بحركةٍ خفيفةٍ لجنينها، ثم تنهَّدت في ضجَرٍ ونفادِ صبرٍ وهي تنظر إلى زوجها. نجح -وهو لا يزال يحمل ابنته- في إخراج الكبريت من جيبه، ليُشعل عودًا حتى يريا السُّلم إلى الطابق الثاني. تأخر الوقت، وهو أمرٌ لم يألفه «سيد»، فقد اعتاد النوم مُبكرًا والاستيقاظَ في ساعات الصباح الأولى، لعمله موظفًا في السكة الحديد. لكنه قرر في هذا اليوم أن يَصحبَ زوجته إلى السينما مساءً، حفل ماتينيه، احتفالًا بعيد ميلادها الثاني والعشرين.

ولم يكن يعلم أن الليلة ستنتهي بوصلةِ بكاءٍ وتعاسةٍ مُبالَغٍ فيها! يُفكر في زجاجة الكولونيا الفاخرة «بومبيا» التي أعطاها لها هديةً قُبيل خروجهم من البيت. ادَّخر لشهور حتى يشتريها لها، وبدت زوجته كأنها ستطير فرحةً بها. ولكنه دعا اللهَ وهما يصعدان السُّلم ألَّا تُهشِّمها فوق رأسه، فهو الذي اختار الفيلم!

ولا يبالغ «سيد» في تصوره هذا، فـ «عليَّة» امرأةٌ حساسةٌ للغاية، مُدلَّلةٌ بإفراط، لنشأتها في أُسرة ذات مستوى مرتفع مقارنةً بنشأة زوجها. لها أخٌ واحدٌ يُدعى «عادل»، يَكبرها بستِّ سنوات، لم يُكمل تعليمه لرسوبه الدائم، يَكره الالتزام ويُحب الخروج والسهر، وهو أمر كان دائمًا ما يُثير استنكار والده الأستاذ «حافظ» ووالدته السيدة «كوثر». كان «حافظ» من رجال العِلم الشرفاء، تولَّى النِّظارة بمدرسة العدوي الابتدائية ببورسعيد. لذا كان كل أمله أن يَصير أبناؤه من المتفوقين لكي ينضموا لبعثات الملك فاروق التعليمية إلى خارج مصر.

لكن «عادل» قرر أن يتزوج من أخت صديقه الثرية؛ تعرَّف عليها في إحدى الرحلات مع أُسرته إلى مَصيف «رأس البر»، وقرر بعدها أن يرحل من بورسعيد للعيش مع زوجته، فقد اشترط أهلُها آنذاك أن ينتقلا للإقامة في دمياط بالقرب منهم.

فظلَّت «عليَّة» بمثابة الابنة الوحيدة، محبوبة والديها وقُرة أعينهما، وكانا قلَّما يرفضان لها طلبًا. ولم يمرَّ عامٌ على زيجة أخيها، حتى تقدَّم إليها «سيد» طالبًا يدَها.

***

لا ينسى «سيد» اللحظات الأولى من رؤيته لـ «عليَّة»، أحبها فورَ أن رآها على بُعد خطوات من مدرستها. كانت تسير آنذاك مُحتضنةً حقيبتها الجلدية، ترتدي مريلتها كريمية اللون، وتشبك بجانب شَعرها القصير ربطةً بيضاء. وقد بَدت شديدةَ الحُسن ممشوقةَ القوام، ببشرة لونها خمري ساحر، ووجه بيضاوي صغير، يتوسطه أنفٌ رفيعٌ ومن تحته شِفاهٌ بلون التوت البرِّي يَضعف أمامَ حُسنها الرُّهبان! وقَع في غرامها فورَ أن التقت أعينهُما. كأنها عندما نظرت إليه بعينيها السوداوين، أطلقت سهامًا تفوق في قوتها تلك القنابل التي تُلقَى في الحرب العالمية الثانية! ولكنها سهامٌ تُصيب ولا تُحدِث دمارًا، سهامٌ لا تُزهق الأرواح، ولا تُسبب المعاناة، وإنما تَجلب الحياة، وهنيئًا لمَن يُصاب بها في قلبه!

ابتسمت له في خجلٍ وهي تَدخل مع زميلاتها من باب المدرسة، شَعَّت أسنانُها البيضاء بضوءٍ كالشمس، فتصبَّب وجهُه عرَقًا يَجِفُّ ما إن يَظهر عليه، يتبخر في ثوانٍ من سخونة جسده!

كان سكان بورسعيد آنذاك يتحدثون في بيوتهم وفي الطرقات وعلى المقاهي وفي أسوأ أحلامهم عن الحرب العالمية التي اندلعت لتوها، ينتظرون بترقُّبٍ أيَّ قَصف آتٍ من دوَل «المحور» على مَواقع مَصالح الإنجليز وقادتها الذين يَرتَعون في مصر، ويُمضون أيامهم يتسكَّعون في الشوارع والأحياء بلا رقيب! كلُّ الأيام السابقة كانت تحمل الكثيرَ من صوت الغارات وبناء المَخابئ، طلاء مصابيح السيارات باللون

Visual Watermark

الأزرق، ومخاوف الانفجارات من القصف ودمار المدن بلا ذنب. كما حملت ما لم تحتمله من ظلام الليل الدامس الذي حينما يحلُّ يبدو كأنه لا ينتهي، فساعات الترقب قاتلة، تمر ببطء مُتعمَّد، وتحتلُّ نسائمَ المدن الساكنة لتأتي الرياحُ عاصفةً بأي سكينة، ولا شيء يناسب بقاءها سوى الليل الحالِك، فتتراقص المخاوفُ بلا رَهبة من ضوء النهار الذي يَكشف الأوهام.

وهكذا.. كل الأيام -آنذاك- كانت تحمل خططًا لمقاوَمة المجهول، وأُخرى للهروب منه، فشعر «سيد» أيضًا كأن هناك انفجاراتٍ بأوردته بلا أي مقاوَمةٍ منه، ودون أي رغبة في الهروب، بانتفاضةٍ للدماء في شرايينه، كأنها تود لو يُصاب بجرح عميق لتسيل نحوها حتى تقودها إلى قلبه لتنتزعه من بين ضلوعه، فيُصبح قُربانًا لها! وقال محدِّثًا نفسَه يوم رآها: «حتمًا إنها أجمل نساء العالَم، وإنها تستحق مكانةَ إفروديت في التاريخ، وسُحقًا لنفرتيتي وكليوباترا والملكة فريدة!»

انتظرها في اليوم التالي بالقُرب من المدرسة، وكتب لها جوابًا يُعبِّر عن محبته وعشقه وأشواقه التي تختلج بداخله منذ أن سكنت قلبه. نسج أحلامه في كلماتٍ صادقة، وأُمنيته بأن تُصبح حبيبته وزوجته، وكان توقيعُه: «حبيبك المخلص، سيد». وفور أن رآها قادمةً من بعيد، جمعَ شتات نفسه، وجاءته كل الجرأة في عالَم كان مندثرًا تحت أنقاض الجُبن والاستسلام، ليُلقي رسالتَه أمامَها بلا تفكير، فمالت لتأخذها بتردُّدٍ وسط ضحكاتٍ من زميلتيْها اللتيْن وضعتا كفَّيهما على فمِهما، ليُخبئا ضحكاتِهما، وقد شَعرتا بالخجل من جرأته فسبقتاها إلى الداخل. انتظر لساعاتٍ طويلة، تجاهَل موعدَ وظيفته، تجاهَل ما سيُلاقيه من لَوم مديره، بل نسيَ أن له مديرًا وأنه يعمل، وأنه «سيد»! ظلَّ واقفًا مكانه بلا حركة تُذكَر، سوى صدره الذي يرتفع وينخفض بأنفاسه المتلاحقة، لا يشعر بأي شيء آخَر، لا حروب في العالَم من حوله، لا حرارة شمس ولا هواء، لا أرض ولا سماء، لا صوت لأقدام المارَّة تصِل لأُذنيه ولا عينٌ ترى وجوهَهم.

كان ينتظر حدوث أمر واحد فقط، سيُخرجه من لعنة الانتظار، فتحوَّل إلى تمثال لا يتحرك، تكاد الطيور أن تبني عُشًّا فوق طربوشه. أمرٌ واحدٌ يَعنيه، هو رؤيته لها، مترقِّبًا الردَّ المنتظَر.

خرجت بالفعل، ظهرت كبريقٍ يَشع وسط زحام التلميذات، وهي تبتسم من بعيد وتومئ رأسَها بالإيجاب. كأنها يدٌ ترتفع بعلامة النصر بعد هزيمة الأعداء، هُزمت مخاوفه، ونال جزاء انتظاره، فقفز في مكانه بسعادةٍ جمَّةٍ وعفوية، ليَسقط الطربوش عن رأسه، ويَسمع بعد ذلك ضحكات البنات المرتفعة على ما حلَّ به!

***

كثيرًا ما يعود «سيد» بالأيام إلى لحظات ولعِهِ الأولى بمحبوبته، وكيف أصبح جسده لا يتسع لقلبه من فرط العشق. قرر أن يتقدم بعد رؤيته لها بأيام قليلة كي يَخطبها، خاصةً بعد متابعته لها وقد عرف عنوانها وإلى أي أُسرة تنتمي. تأخذه الذِّكرى حتى بعد مرور السنوات ليرى نفسه مرتديًا بدلته البُنية، ويشعر بملمس الفازلين في راحة يده عندما دهن به شَعره. وقد بدا وجهه ناصعَ البياض في ذلك اليوم بعد الحِلاقة. يتذكر نظرتَه إلى وجهه في المرآة وهو يتأمل ملامحه. ولأجل تلك الملامح، كان بعض زملائه في العمل يُشبهونه بالعساكر الإنجليز، فأنفه طويلٌ مدبب، وشفتاه رفيعتان للغاية، أما عيناه فكانتا عسليتيْن تميلان إلى اللون الأخضر حين ينعكس عليهما ضوءُ الشمس، ووجنتاه مُشرَّبتان بالحُمرة، كما أن حاجبيه كشَعره يميلان إلى اللون البُني، على عكس أغلب أقرانه من الشباب ذوي الشَّعر الأسود الفاحم، والبَشرة الخمرية التي تلمع تحت شمس بورسعيد، وتزيد سواحلُها من سُمرتهم. ورِث «سيد» بياضَ بَشرته وملامحَه المميزة من والدته الأرمينية الأصل، التي أتت إلى مصر في عُمر الثامنة والعشرين يتيمةً بلا رفيق، فاتنةَ الجَمال، بشَعر ذهبي لامع، وعيون خضراء اللون آسِرة، بلا فائدة! عمياء، خائفة، تتعثَّر في خطواتها المجهولة وهي تتبع باقي اللاجئين من الأرمن، الذين فرُّوا جميعًا من الإبادات الجَماعية والمذابح والتعذيب وما لاقَوه على يدِ الأتراك عام ١٩١٥.

كان «حمودة» والد «سيد» يعمل آنذاك مسؤولًا عن المِلكية الخاصة لأحد أعيان بورسعيد، ورأى «آزنيف» للمرة الأولى، عندما وُكل إليه تفقُّد مخيمات اللاجئين بمنطقة الكارنتينا ببورسعيد، لإحضار مَن يريدون العمل. منح علبة سجائر لأحد جنود المراقبة ليسمح له بالدخول والتجوُّل بين الخيام. ووقعت عيناه حينها عليها، ليَقع في حُبها من النظرة الأولى. ولم يُدرك أنها ضريرة، فقد بادلته النظرَ بعينيها الساحرتيْن، بل تتبَّعته في خطواته بنظراتٍ داعبت مشاعره، فغرق في عينيها بلا ارتواء، ودقَّ لأجلها قلبُه،

Visual Watermark

فتعلقت بها نفسُه من شدة الحُب والشغف! وازداد شفقةً لما اكتشف عِلّتها. تدبر الأمر بعد عدة أسابيع، حتى استطاع أن يأخذها معه من المخيَّم إلى والدته، ويُقرر الزواج منها. ولم تُعارضه الأم، فقد انتظرت يومَ زواجه بفارغ الصبر، ولكنها رفضت اسم «آزنيف» وقالت له إنه اسم ماسخ يشمئز له البدن، ولا يحمل معنًى، وقررت أن تناديها بـ «آمنة» ليصبح اسمها الدائم. واختارت لها اسمها الجديد تيمُّنًا بملامحها المُتسمة بالسكينة وهدوء النفس. أمضى «حمودة» مع زوجته «آمنة» عدة سنوات تعلَّمت فيها العربيةَ بسرعة فائقة تُحيِّر العقول، وأنجبت له «سيد». وحفظت حينها أركان البيت، كأنها مَن قامت ببنائه، بل كانت تساعد حماتها في التنظيف وكنس الأرض بدقة، بعينين ترى ما لا يراه الآخَرون!

استُشهد «حمودة» في ثورة ١٩١٩ بعد نفي «سعد زغلول»، تاركًا زوجته المسكينة وأمَّه التي انفطر قلبها مرتين؛ فالمرة الأولى كانت بانضمام ابنها الكبير إلى الجنود المصريين المحاربين في الحرب العالمية الأولى، ولم يعُد بعدها قَطُّ! والثانية بموت ابنها الثاني في الثورة. لم تحتمل الحزنَ وماتت هي الأخرى مكلومةً بفقيديْها، ليتبقى الطفلُ «سيد» وأمُّه الأرمينية يواجِهان الحياةَ وحدهما.

***

لا ينسى «سيد» ثقةَ أُمه وهي تقول له: «لا تقلق.. ستكون من نَصيبك.. ثِق في كلامي يا بُني». ولم يندهش حينها من ثقة «آمنة» الزائدة، فلطالما كانت مَصدرًا للطمأنينة في كثير من الأمور، وربما الحذر في أمور أُخرى. ودائمًا ما كان يشعر بأن أُمه -وبالرغم من اعتناقها المسيحية كسائر أهلها- لها دينها الخاص، كأنها تؤمن بكل الأنبياء والأديان السماوية. بل كانت تطلب منه أن يقرأ القرآن بصوت مرتفع وتَشرح له آياته ببراعة، كأنما خصَّها الله بأحد أسرار الكون! فبصيرة «آمنة» تنم عن حدوث المعجزات، ومَقدرتها على فهم الأشياء والتنبؤ بالأحداث قد تُبهر العلماء.

يتذكر «سيد» كيف أخذ أنفاسًا عميقةً وهو يَطرق باب بيت «عليَّة» متأبِّطًا ذراعَ أُمه الفريدة، ليُستقبَل بحفاوةٍ وترحابٍ من أهل حبيبته؛ لم يترددوا في إبداء قبولهم المبدئي له، خاصةً والدُها الحكيم ذو الخبرة. فقد رأى في «سيد» -بعد أن تحدث معه- مِثالًا للشاب المكافِح الطموح. وقد سرد له الخاطِبُ كلَّ ماضيه وكلَّ ما يأمله في المستقبل. وحكى له كيف أنه بعد وفاة والده وجدَّته صار مسؤولًا عن والدته كأنه رَجل، على الرغم من أنه لم يكن قد بلغ بعدُ الخمسَ سنوات. وكيف أنه عمل صبيًّا بالقهوة بحيِّهم من قبل التحاقه بالمدرسة، وهو أمرٌ كان من النادر حدوثه آنذاك، فلم يكن هناك الكثير من المتعلمين أو المدارس، ولكن أباه «حمودة» علَّمه الكثيرَ في السنوات القليلة التي أمضاها معه، فأورثه مَحبةَ تحصيل العلم قبل أن يتعلم النطق! كما أنه ترك له القليل من الصيت الذي ساعده فيما بعد على ارتياد المدرسة حتى حصل على الشهادة الإعدادية. وعُيِّن بعدها موظَّفًا في السكة الحديد، وصار بعد مرور أشهر قليلة أحدَ موظفيها الأكفاء. تأثر «حافظ» بحكايات «سيد» في مقابلتها الأولى هذه، كما تأثرت والدةُ «عليَّة» بطيبة السيدة «آمنة»، التي ظلَّت تمدح ابنها البارَّ لمساندته لها منذ وفاة أبيه، وأخبرتهم أنه «سيد» كاسمه، فهو سيد الرجال وسيصبح نِعم الزوج والسند لابنتهم. فتفاءل أهل العروس خيرًا، وطلب «حافظ» أن يُحدِّدا موعدًا لمقابلة أُخرى، ليتسنى له إخبار ابنه «عادل» في دمياط. كانت العقبة الوحيدة أمام «سيد» هي إصرار أبيها أن يتزوجا بعد عام حتى تحصل ابنتهم على البكالوريا. ولكن الفتاة رفضت الانتظار، والاستيقاظ صباحًا لمدرستها، بل أضربَت أيضًا عن الطعام ليومين، قائلةً إنها ضاقت ذرعًا من الاستيقاظ مبكرًا، وأنها اكتفت بما حصَّلته من العِلم، وأنها أتمت تعليمها برؤيتها لـ «سيد»! رضخ أبوها لرغبتها ولم يحتمل حزنَ ابنته، فدخل عليها الغُرفة ليُعلن موافقته بقُبلةٍ على جبينها، فتهللت فرحةً وغمرته بامتنانها بصدقٍ بالغ. ونُفِّذت رغبتُها؛ لن تُكمل تعليمها، لتتزوج.

ولم يمرَّ سوى شهرين منذ قراءتها لكلمات «سيد»، لتُزَف «عليَّة» إليه في شتاء عام ١٩٣٩، وتصبح منذ ذلك الحين، كما قال لها في خِطابه الوحيد، والذي لا تزال تحتفظ به: «حبيبته وزوجته».

***

تَسلل صوت عصافير الصباح المُغردة ليُداعب الآذان من خلف النوافذ، وكذلك صوتُ استيقاظ الجيران في العمارة. فقد أفاق أغلبهم مُبكرًا في الخامسة والنِّصف صباحًا. وبدأت تُعلن الهمهماتُ الخافتة -عبْر المَنوَر الفاصل بين مَطبخَي الشقتين بكل طابق- عن السيدات اللاتي استيقظن لإعداد الفطور لأُسرهن.

Visual Watermark

كان في الطابق الثاني الذي تسكنه أسرة «سيد»، أربعة أبواب، كل بابَين لشقة منفصلة؛ البابان اللذان يواجهان السُّلم، واحد عن اليمين أمامَ مَن يصعد من الطابق السفلي، وهو بيت «سيد»، ويفتح هذا الباب على صالة البيت، مَقر اجتماع الأسرة في أغلب الأوقات. ووُضعت أمام المدخل طاولةٌ صغيرة للطعام، عن يمينها أبوابٌ شراعية تُطل على الشُّرفة. وبابٌ جانبي لغُرفة المعيشة، وأمامها كنبة، عادةً لا تَبرحها الجدة «آمنة» سوى لقضاء حاجتها أو للنوم. وعلى جانب تلك الكنبة بخطوتين، بابُ المطبخ، وما يتسلل منه من روائح طهي «أم عثمان» التي يسيل لها اللعاب. ومن بعده ممرٌ طويل في بدايته حوض غسل الوجه، وأمامه باب دورة المياه الضيقة للغاية. وتضع «أم عثمان» تحت هذا الحوض طَبَقَيْن من النُّحاس لغسْل الملابس. ومن بعده غرفتان للنوم، غرفة «سيد» وزوجته، والغرفة الأخرى التي ينام فيها أبناؤهم والجدة و«أم عثمان». أمَّا في نهاية الممر، فتوجد دورةُ مياه أخرى أكبر حجمًا، يخاف منها «فريد» و«فيفي» لأسبابٍ واهيةٍ من صُنع الأطفال وخيالاتهم. فتسمع آذانُهم أصواتًا غريبةً إذا اقتربوا منها، أو ترى أعينهم خيالًا لعفريتٍ مهولٍ يتسرَّب من تحت عقب الباب ويقف في آخر الممر ناظِرًا إليهما! فيقف الطفلان في بدايته عند الصالة لتصطكَّ أسنانهما وقد امتلأ بالخوف من السراب! ولذا كان الممر في صالة البيت بمثابة طريقٍ طويلٍ لنهايةٍ مُرعبةٍ للأبناء الصِّغار؛ يحمل الكثير من الركض، والصرخات بلا معنى!

أمَّا باب البيت الآخَر، فهو مدخلٌ لغُرفة الضيوف، وقد وُضعت الوسائدُ القُطنيةُ الضخمةُ المُنجَّدةُ فوق أثاثِها من الكنب والكراسي، وتغطيها الأقمشةُ المزينة بالورد الأحمر، وكانت تلك الأقمشة هديةً من «كوثر» لابنتها لحماية الوسائد من الانسلاخ. كانوا قلَّما يجلسون في تلك الغرفة؛ خُصصت للزيارات العائلية أو تجمُّع الجيران في الأعياد والعزائم.

واجتمعت غرفة المعيشة وباقي الغرف جميعًا بشُرفة واحدة كبيرة طولًا، بحيث ترى الشقةُ الشارع من ثلاث نواصٍ.

ويسكن الشقةَ المجاورةَ لـ «سيد»، الأستاذُ «أمين» وزوجتُه «عنايات». وكانت «أبلة عنايات» -كما تناديها «عليَّة»- لا تُنجِب، تُقيم مع زوجها الذي يعمل موظفًا مرموقًا بـ «القنال». ومع أن فرش بيتهم يدلُّ عن يُسر حالتهم المالية مُقارنةً بفرش بيت جيرانهم المتواضع للغاية، إلا إنها لم تَستعن بخادمة قَطُّ، وكانت كثيرًا ما تطلب من جارتها الاستعانةَ بـ «أم عثمان» حتى تحمل لها بعض السجاد لتنفيضه على السُّلم.

وفي الطابق الثالث، فوق شقة «سيد» مُباشرةً، تسكن أُسرةُ الأستاذ «عيد» بأبنائه الخمسة المتقاربين في الأعمار، وزوجته «دُرِّية» وخادمتهم. وكثيرًا ما تضايَق «سيد» من أصوات أقدام أبنائهم تَقرع الأرضيةَ فوق رأسه! حيث كانوا دائمي الركض والقفز، لكنه لم يشكُ يومًا لجاره، واكتفى بتوجيه نظراتٍ لائمةٍ إلى السقف!

بجانب «عيد»، سكنت أُسرة أُخرى شديدةُ الانطواء، ذوو أصول يونانية. وعلى الرغم من عزوفهم عن الاختلاط بالجيران، كانت وجوههم بشوشةً إذا ما قابلوا أحدًا من سكان العمارة، يُلقون التحيةَ مبتسمين بغاية الترحاب.

وفي الطابق الأول سكَنَ «صابر» وأُسرتُه، وكانت زوجته «فايزة» تُفضَّل «عليَّة» دون باقي الجيران لاقترابها في العُمر، وكذلك كان زوجها يعمل بالسكة الحديد مثل «سيد»، ولكنه في القسم القانوني، و«سيد» كان في قِسم الحسابات. لدى «فايزة» و«صابر» ابنٌ واحدٌ يُدعى «حسين»، يَكبر «فريد» بعامَيْن، ولذا كان «حسين» كثيرًا ما يَصعد إلى بيت جاره للَّعب مع «فريد» في ممر السُّلم. ولسنوات طويلة حاولت «فايزة» الحملَ عدةَ مرات بعد إنجابها لابنها الوحيد، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل. فبثَّت حُزنها إلى جارتها المقرَّبة ذات يوم في حديثٍ بينهما وهي تبكي، وتحكي لها كيف أن والدتها دارت بها تُمشط الشوارع بحثًا عن المشايخ لتَطرق أبوابَ الأمل المزعوم، لَمَّا ملَّت من آراء الأطبَّاء، خاصةً بعد أن أجمعوا على أنها لن تحمل مرةً أُخرى، لانقطاع الدورة الشهرية المُفاجئ عنها. فنصحتها «عليَّة» حينها بشُرب ستة أكواب من «البردقوش» الساخن يوميًّا، وقالت لها بثقةٍ بالغة: «لكن اوعديني إن رُزقتِ بالبنت أن تُسميها «عليَّة»، وابقي ادعي لي..»

لكن الوصفةَ لم تُجدِ نفعًا، ولم تَنلْ منها سوى اضطراب المعدة وكثرة التردد على دورة المياه! فسئمَت وقَنعَت هي وزوجها بما كتبه الله لهما. وكانت تستعيذ بالله كلما حلَّت الأمنياتُ المستحيلةُ لتُنغص عليها

Visual Watermark

نومها. وصارت تطرد حُلمَ الإنجاب كلّما وصل إلى مَسمعها صوتُ صراخ أبناء جيرانها. فقد سكن بجانبها اليهوديُّ السمين «ناحوم» وزوجتُه «مارسيل»، التي لا تقِلّ عنه سمنةً، وميَّزها شَعرُها برتقاليُّ اللون. وكان لديهما اثنان من الأبناء، الشاب «روبير»، والذي خطب لتوه ابنة خاله، وابنتهما «عديلة» الطالبة بمدرسة سان مارك ببورسعيد.

واعتاد السكان عند مرورهم أمام شقتهم سماعَ صراخ «روبير» في أُخته الصغرى ونَهره الدائم لها، وكان صراخًا حادًّا مبالَغًا فيه، يستنفر كلَّ الساكنين. وتخيَّلت «فايزة» أن هذا ما سيؤول إليه الحال ببيتها إن رُزِقَت بفتاة، وحتمًا سيَفرض ابنُها الكبيرُ سطوتَه على المولودة المسكينة حين تكبر، مثل حال أبناء «ناحوم»، فهدأت سريرتُها وقد آمنت بأن ابنتها بداخلها محفوظةٌ، بويضةً ساكنةً تأبى أن يُقذَف بها إلى الحياة!

امتلك الجار «ناحوم» -بالشراكة مع اثنين من إخوانه- بقالةً كبيرة. عرف «سيد» مكانها حينما صادفها في طريق عودته من عَزاء أحد أصدقائه، القاطن في شارع «الثلاثيني». لمحت عيناه «اليافطة» التي كُتب عليها بالإنجليزية: «ناحوم وإخوانه».

وبدا حينها «ناحوم» بداخل بقالته مُنهمكًا خلف ثلاجة الأجبان، يأخذ بيده من الجبن الأبيض ويَلتهم قِطعةً وراءَ الأُخرى، ويَلحس بعدها أصابعه بنَهَم! فهبط «سيد» من الحنطور ليُحيِّي جارَه، فاستقبله صاحب البقالة بترحاب شديد، واقتطع له من أجود أنواع الجُبن الرومي، وأصبح «سيد» من الزبائن المترددين على البقالة في أول كل شهر.

***

لم تُواجه «عليَّة» أيَّ مشكلات تُذكَر مع جيرانها، وكانت عادةً ما تتودَّد إليهم جميعًا. ولكن أحيانًا ما كانت تشعر بشيءٍ من الغَيرة المُستترة تجاه جارتها «عنايات»، لأنها دائمةُ التأنُّق، وكثيرًا ما تترك باب بيتها مفتوحًا أو مواربًا بلا سبب. وكانت عادةً ما ترتدي قمصان نوم خليعةً تحت أرواب حريرية مُلفتة. كانت «عليَّة» تخاف أيضًا! فعلى الرغم من أن جارتها تكبرها بأكثر من عشرين عامًا، إلا أن وجهها جميلٌ للغاية، وجسدُها مُلفتٌ كأنه قطعةٌ فَنية نُحِتَت انحناءاتُه بدقة؛ مَن يراه حتمًا سيُفتن به، خاصةً بملابسها الفاضحة تلك، ورائحة عِطرها المختلط بدخان السجائر. لأجل ذلك حاولت -في أغلب الأيام- أن تُراقب عودةَ زوجها قُرب انتهاء عمله، كي تفتح باب الشقة قبل أن يصعد بثوانٍ، فلا تترك له اغتنامَ أي فرصة لأي نظرات مُسترَقة نحو باب الشقة الموارب بجانبهم. غير أن «سيد» لم يكن ليُوجِّه أي نظرةٍ تَحمل رغبةَ الرجال تجاه «عنايات»، احترامًا لزوجته، واكتفاءً بها.

وكانت «عليَّة» كثيرًا ما تتعجب من جرأة جارتها المُبالَغ فيها، خاصةً أنها لم تلحظ من قَبلُ أن هذا قد يُثير حَفيظةَ «أمين» ولو ليوم واحد! وأدهشها كيف لرجل أن يترك لزوجته الحَبل على الغارب إلى هذا الحد! غير أنها -مع كل ما راقَبته- لم تُدرك قَطُّ أن زوجَ الجارة نادرًا ما يعود للبيت في وقتٍ مُبكر، وأن أغلب أيامه يُمضيها بين عمله والقهوة. وأن الملل قد تسرَّب إلى حياتها منذ سنوات، فاعتادت «عنايات» الجلوسَ وحدها أمام سبرتاية القهوة، تُدخن سيجارتها وهي تنظر في صوَر المجلات الأجنبية، التي كثيرًا ما يُحضرها لها زوجها. تتفحَّص الصوَرَ وتفاصيلها دون أن تُتقن اللغات أو تفهم أيَّ كلمةٍ مكتوبة. وكانت كثيرًا ما تتأنَّق بشكل لافتٍ كأنها مَدعوَّةٌ إلى حفلٍ بسراي المَلك لتُنافس الأميرات، ولكن الأمر دائمًا ما كان ينتهي بها بالتنزه وحيدةً في الحدائق! وعلى الرغم من غَيرة «عليَّة» ومخاوفها تلك، إلَّا إنها -في قرارة نفسها- تُحب «عنايات»؛ تعتبرها مَثلًا أعلى للمرأة المُقبِلة على الحياة، وكيف أنها تبدو مسرورةً طوال الوقت، فاتنةً، حُلوةَ اللسان والمَعشر، وأحاديثُها شائقةٌ جذابة.

وقالت ذات يوم لزوجها وهما يتناولان الغداء:

- مسكينة أبلة «عنايات»، حياتها مملة، كيف يمكن للحياة أن تستمر بلا أبناء! «فايزة» كادت أن تُجَنَّ لسنوات لأنها لم تُنجب سوى «حسين»، فتخيَّل حالَ جارتنا!

مضغ «سيد» ما بفمه وهو يُجيبها:

- الحياة دائمًا تستمر يا «عليَّة». ولِمَ تتوقف؟ والله إني أشكُّ أن الست «عنايات» وزوجها بعد هذا العمر بلا أبناء، قد يحتملان صراخ طفلٍ لليلةٍ واحدة. جرِّبي أن تُرسلي إليها «فريد» و«فيفي» لساعة، واسمعيها وهي تَسُبُّ أسلافهما من الدقيقة الأولى.. إنها حتمًا في نِعمة!

ارتبكت حينها «عليَّة»، وأزعجها ردُّه لتقول بنبرةٍ لائمة:

Visual Watermark

- العُقم نِعمة يا «سيد»! إذًا كنتَ ستُصبح سعيدًا لو حرمنا اللهُ من «فريد» و«فيفي»؟

مسحَت يدَها على بطنِها، لتردِف:

- أتاريك غير مهتم بحَملي هذه المرة!

افترَّ عن أسنانِه ضاحكًا ليُجيبها:

- يا شيخة! أنا غير مهتم؟ بل إنني على أحرَّ من الجمر لرؤية المفعوص. كفاياكِ حساسية زائدة عن الحد! كل ما قصدتُه أن لديها نِعمٌ قدَّرها الله لها، ومنحها الصبرَ على ما افتقدَت. وأنا في نعمةٍ بِكُم، كل إنسان في الدنيا مُنِح أشياءَ لتُسلَب منه أشياءُ أُخرَى. وهي أيضًا ربما لديها الكثيرُ مما لا نمتلكه نحن. هكذا هو القدَر. ولكن لتعرفي، لو كان الله قدَّر لنا عدم الإنجاب، لما كنتُ شعرتُ بالملل معكِ أبدًا يا «عليَّة»، فأنتِ رفيقة الدرب. الأطفال وجودهم أو عدمه لا ذنب له بتسلل الملل إلى الحياة بين الأزواج، هناك من لديه أورطة من العيال أنجبهم فقط ليَحملوا اسمه، ويُسرِّحهم في أعمار صغيرة ليعملوا ويجوبوا الشوارع لبيْع الطرابيش والجرائد وحمل الحقائب لمسافري القِطار، تخيَّلي هذا! قمة الأنانية!

هدأت سريرةُ «عليَّة» بِرَد زوجها، وتذكَّرت ما قاله لها في بداية زواجهما، وكيف أنه يتمنى لو يُنجب منها عشرة أبناء. وقد أنجبت له اثنين، والثالثُ تحمله في أحشائها. تعرف جيدًا أن «سيد» يسعى بكل مقدرته ليُوَفر لهم احتياجاتهم قدْر استطاعته، فراتبُه لا يتعدَّى الاثنَيْ عشرَ جنيهًا، وهو بالكاد يكفي إيجارهم ومصاريفهم الشهرية. ويحاول «سيد» بدوره أن يُنحي جانبًا خمسين قرشًا لزوم السينما والتنزه. حتى تدخينه، منذ زواجه لم يَعد مُدخِّنًا شرِهًا، ووضع الأولية في كل مليم يَصرفه لأجل أهل بيته.

***

(آه يا خوفي لو بابا شافني وأنا بضحك، وأنا بضحك وأرقص وأغني، كان يشتمني، كان يضربني، آه آه، آه يا خوفي!)

مكثت «عليَّة» تُدندن بصوت مُنخفض إحدى أغنيات فيلم «ليلى مراد»، وكانت تلك هي الأغنية الوحيدة التي علقت في ذهنها، على الرغم من مرور عدة أسابيع منذ مشاهدتها الفيلمَ في السينما. فهي تُحب أنغام الموسيقى، وتفتقد الجرامافون وأسطواناته في بيت أبويها. ولو أنها لَمحت لهما لمنحوها إياه، مثلما منحوها «أُم عثمان» مُربيتَها وخادمتَهم بعد زواجها.

ظلَّت جالسةً على الكرسي الخشبي بالشُّرفة وهي تُغني، تنظر إلى الشارع بترقُّب منتظرةً عودة زوجها من عمله. ملَّت الغناء، وحاولت قتل الوقت بتخمين جنسيات المارين ووجهتهم؛ فمَن يرتدي بيريه.. فرنسي، وهذا الرجلُ الذي يمشي وعصاه تَسبقه بخطوة، يرتدي قبعةً وبجانبه امرأةٌ أنيقة ببالطو.. حتمًا من الإنجليز، عربةُ حنطور قادمةٌ من بعيد، تجلس فيها امرأةٌ ترتدي ملاية لَف، ربما تسكن بشارع الحميدي، شابٌّ يقود دراجةً هوائية، تُفكر: «هممم.. مصري، لا.. إنجليزي؟ لا لا، فرنسي، لا يبدو عليه أنه إيطالي»، ثم تتساءل: «ومَن لا يقود الآن دراجةً في شوارع بورسعيد؟» رَجل آخَر بطربوش وبدلة، وآخَر بطربوش وجلباب، وثالثٌ بعمامة..

وبينما كانت تُمارس لُعبتها المبتكرة، بدأت رائحة الأرز بالبصل المحمَّر تتسرب من المطبخ إلى أنوف أهل البيت، وكان «فريد» يركض وراء «فيفي» حول الطاولة الصغيرة بالصالة، وقد جلست الجدة «آمنة» على الكنبة أمامهما، تبتسم لصوت ضحكات حفيدتها الصغيرة وهي تحاول الهرب من إمساك أخيها بها. ونقشت الجدة من أصواتهما المرِحة ملامحَ لهما في مُخيلتها. غير أنَّها كانت تعلم كيف يبدوان، فقد رأتهما كثيرًا في أحلامها.

ملَّت «عليَّة» من الانتظار، فقامت من جلستها، وفور خروجها من الشُّرفة باغت «فريد» أختَه بهجمة منه أسقطَتها على الأرض، فنهرتْه والدتُه بصوتٍ لائم:

- بس يجي أبوك، وسأُعلمه بكل مشاغباتك وضربك لأختك. يكفي إزعاجًا لـ نينه يا «فريد»!

فقاطعتها الجدة «آمنة»:

- اتركيهم يا بنتي، لسة أطفال، وبُكرة يتعلّم.

حملت «عليَّة» «فيفي» التي أجهشت بالبكاء، وأخذت تحكُّ شَعرها بيدها الصغيرةِ من الألم الذي أحسَّت به لاصطدام رأسها بالبلاط، فلم تكن السجاجيد تُغطي كلَّ أرضية البيت. بينما أمسك «فريد»

Visual Watermark

ذيلَ جلباب أمه يأمل أن تحمله هو الآخر، وهو يتظاهر بالبكاء بصوتٍ سخيفٍ مُفتعَل، فقالت له بلهجة حادة: «يكفي يا «فريد»! لقد كبرتَ يا حبيبي».

تأفف الابن لإصرار كلِّ مَن حوله على أن يَكبر رغم أنفه! منذ عدة أشهر، ومنذ حَمْلِ أمه وهو يسمع يوميًّا كلمةَ «كبرت» من أبويه. في بادئ الأمر لم يكن يَعي معناها، ومع الوقت استوعب أن الكِبَرَ يعني حياةً صارمةً بلا أخطاء، وصوتًا منخفضًا أكثرَ من المعتاد. يَعني التزامًا في كل شيء، فلا ضحكات مرتفعة، ولا صراخ عفوي بسعادة، ولا إلقاء بقايا الطعام من الشُّرفة على رؤوس المارة، أو تكسير شُخشيخات أُخته «فيفي» وألعابها. يَجزم عقل «فريد» الصغير أن الطفولة حُرِّيةٌ مُطلَقة، وأنها بحلاوة طَعم المهلبية التي تُعدها «أم عثمان»، أو قِطَع السمنية التي أحيانًا ما يشتريها لهم والده، أما الكِبَر فهو أمرٌ سيئ، مَقيتٌ ومقزِّز، وأنه لو كان شيئًا ذا رائحة، فرائحته كريهةٌ كرائحة بُرازه!

دخل الغرفة التي ينام بها، ثم صعد فوق السرير النُّحاسي المرتفع ليقفز فوقه عنادًا وتمرُّدًا على مَن يظن أن الطفولةَ تنتهي بعد العام الرابع! فاجأه صراخُ أُمه من خارج الغرفة، ليقفز صدى صوتها حوله وفي عقله، ويطارد كلَّ خلية في جسده ادَّعت التمرد، فوثب عن السرير إلى الأرض ثم خرج من الغرفة مطأطئًا رأسَه. مرَّ أمامَ أُمه إلى جدته، ثم جلس بجانبها ووضع رأسَه في حِجرها في هدوء؛ فالجدة «آمنة» هي مكانه الآمِن في هذا البيت، وكفَّاها حينما يُربتان عليه يُخيَّل إليه أنهما سَكينةُ نومه وسِرُّ ابتهاج قلبه. تنفَّست «عليَّة» الصُّعداء، وقد أحسَّت أنه لفرطِ حركاته وقفزاته سيَكسر عِظامَ قدميه في وثبته الأخيرة! شعرت للحظةٍ أنها على وشَك الولادة، من كثرة انفعالاتها طوال اليوم. ثم دخلت المطبخ بعد أن تأكدَّت أن ابنها قد انصاع لأمرها وجلس هادئًا بقُرب جدته. وقفت -وهي لا تزال تحمل ابنتها- لتُتابع «أم عثمان» وقد انهمكت في تحضير الطعام فوق الوابور الوحيد لديهم، فسألتها «عليَّة»:

- الأكل استوى؟ «سيد» على وصول يا «أم عثمان».

أجابتها «أم عثمان»:

- استوى السمك بالصلصة، وتتبقى دقيقة على الأرز.

نظرت «أم عثمان» إلى وجه «فيفي» الذي بلَّلته دموعُها الغزيرة، وقد كانت تتابع بأُذنيها ما يحدث بالصالة، ضحكت بهدوء وهي تقول:

- ياه على الزمن! وكأن «فيفي» هي «عليَّة»، و«فريد» هو «عادل».

تركت «عليَّة» ابنتها من يدها لشعورها بالتعب، وجلست فوق مقعد صغير بالمطبخ.. ثم قالت:

- لا، لا.. حقَّه كلُّه إلا «عادل» يا «أم عثمان»، لقد أوشكت أمي أن تفقد عقلَها حتى تزوَّج!

فقالت «أم عثمان» بنبرة هادئة:

- كلُّه مصيره يعقل يا ابنتي.

تنهدت «عليَّة» ثم وقفت واقتربت من «أم عثمان» لتُربت على كتفِها بحُنو، وتركتها بخطوات بطيئة حذِرة، فقد دخلت لتوها شهرَها الثامن، وبدأت تشعر بثقل الحمل، ابتسمت لها «أم عثمان» وهي تقلِّب الأرز.

لم تبالغ في مناداتها بـ «ابنتي»، فقد عاشت لدى أُسرة «عليَّة» من قبل أن تُولَد الأخيرة، أتَت هي وأُسرتها من أراضي النُّوبة منذ عام ١٩٠٢ إلى القاهرة، وكانت حينها تبلغ من العمر ثلاث سنوات، وكان اسمها «حليمة». أمضت بضعةَ أعوام مع أُسرتها، وكانوا يعملون لدى جدة «عليَّة» لوالدتها، بحَي باب اللوق بالقاهرة. ثم انتقلت «أم عثمان» بعد ذلك لتعيش مع السيدة «كوثر» بعد أن تزوجت وسافرت لتستقر ببورسعيد مع زوجها، وكانت تبلغ من العمر لحظةَ انتقالها إلى بورسعيد سبعةَ عشرَ عامًا. وبعدما كبُرت في السن، قالت ذات مرة لـ «كوثر» حينما كانت تشكو دومًا من ابنها «عادل»، إن الصبيانَ نعمةٌ مهما فعلوا أو ارتكبوا من الآثام الصغيرة، وأنهم كالنخل في البيوت، عمدان لها، وهم أسباب طرح البَركة كتَمر النخل بحلاوة مذاقه. وأنها كانت تتمنى لو تُنجب ولدًا وتُسميه «عثمان»، فأصبحوا ينادونها منذ تلك اللحظة بـ «أم عُثمان». وبهذا الاسم أيضًا انتقلت لتعيش مع «عليَّة» وأُسرتها، وقد قاربت على إنهاء عَقدها الخامس. وعلى الرغم من كِبر سِنها هذا، ووزنها الزائد، تتمتع «أم عثمان» بصحةٍ جيدةٍ ونشاطٍ كأنها في أوج شَبابها. ملامحها تُشعر مَن ينظر إليها بالطمأنينة، بَشرتها شديدةُ النعومة كالأطفال، ومع سُمرتها، يبدو وجهها كأنه

Visual Watermark

يُنير حجابَها الأسود الذي لا يُفارق رأسَها.

وكان سبب مجيئها مع أُسرتها منذ البداية، هو التهجير القسري الذي تعرَّض له أهلُ النوبة منذ سنوات بعيدة. لكنها تفرَّقت عن أبويها، فقد تركوها في عُمر السابعة لدى جدة «عليَّة»، لزيارة أرض النوبة ومعرفة أحوالها، غيرَ أنهم رحلوا حينها بلا عودة! وتكاثرت الظنون أنهم ربما تعرَّضوا لحادثٍ ما، فنسيت «أم عثمان» وجوهَهم مع مرور السنوات. ضاعت كلُّ الذكريات التي ربطتها بهم، تبخَّرت كلُّ أيام طفولتها التي أمضتها ليلًا في البكاء لافتقاد أُمها. وفي إحدى الليالي، حكَت للجدة «آمنة» ما تبقى لها من فُتات الذكرى، فقالت لها آمنة:

«فليطمئن قلبُك. أشعر أنه مهما طال الزمان، ستعودين يومًا ما إلى قَريتك، بل يُخبرني قلبي أنكِ ستعيشين طويلًا، حتى قُرابة المائة، وستنعمين بخيرات أرضِك!»

ابتسمت «أم عثمان» بلا ابتغاءٍ للعودة، وباستسلام للأيام. سماحةُ قلبها جعلتها تبتلع مآسيها برضا نفْسٍ وتسليمٍ للقدَر؛ تؤمن أنها ما دامت بخير، فكلُّ مَن تنتمي إليهم سيكونون بخير أينما وُجدوا. تؤمن أن النيل بمياهه الطاهرة وأرضَ النوبة بنخيلها المرتفع، لهما سِحرٌ إلهيٌّ أصلُه طيِّبٌ لن يَنتهي، وسيحفظ أهلَها مهما تفرقوا عنها. تؤمن أن جذور أرضها الطيبة، التي تعود لآلاف السنين، هي تميمةُ سلامٍ أبديٌّ لأبنائه.

***

كانت أهمية الجرائد في بيت «سيد» كالخُبز والماء. اعتاد في بادئ الأمر أن يشتري الجريدة في الصباح ليقرأ سريعًا بعض العناوين والأخبار في عمله، ولكنه قرر مع الوقت أن يشتريها بعد نهاية العمل، خاصةً أن بعض زملائه فضَّلوا عدم شرائها توفيرًا للعَشرة مليمات، ثم يلتفُّون حوله ليقرأ لهم العناوين المهمة، أو يتلقفونها فيما بينهم، وينتهي الأمر بنسيانه الجريدةَ في مكتبه. وكانت «عليَّة» تَعلم أهمية الجرائد في بيتهم، ولذا كان لها جزءٌ مخصَّص في دفتر المصروفات الشهرية بقيمة ٣٠ قِرشًا شهريًّا. ولكن «سيد» اتفق معها منذ شهر أن يشتري كلَّ يوم واحدةً عدا يوم الجمعة، يُمكنه شراء اثنتين، ووافقت الزوجة. ولكنه أغفل هذا القرار اليومَ بعد انتهاء عمله، واشترى جريدتي الأهرام والمصري ودفع للبائع عشرين مليمًا.

عاد «سيد» إلى بيته، علَّق طربوشه ثم بدَّل ملابسه وارتدى بيجامته الكستور. وبعد الغداء أعدت له زوجتُه كوب الشاي، ثم جلس بجانب والدته الهادئة ليحتسيه. أمسك يدها يُقبِّلها، فدعت له من قلبها، قال لها بصوت واضح: «آمين!» ثم قبَّل رأسها. هو يعلم أن دعوات أُمه تَعني له طَوقَ النجاة في الحياة، وسَكينتها الدائمة وابتساماتها الطيبة هما سِرُّ صلاح حاله وهدوء نفسه. وبدأ تصفُّح الجريدة، ثم بعد لحظاتٍ شهق فجأةً وقال بصوت مرتفع:

- ياه! خبرٌ مؤسف! خُذوا عندكم هذا الخبر:

«النهاية المُفجِعة للفنانة أسمهان، سقوط سيارتها في تُرعةٍ عند طلخا، ووفاتها ووصيفتها، ونجاةُ السائق». نهايةٌ صعبة يا جماعة!

وقفت «أم عثمان» تغسل الفاكهة في حوض المطبخ، وتأثرت فور سماع النبأ. وخرجت «عليَّة» من الغرفة ما إن سمعت كلمات زوجها، ثم سحبت كرسيًّا من الطاولة لتجلس أمامه، وقد صارت بطنُها على وشك الانفجار من الحمل. ظهرت تعابيرُ الحُزن على وجهها تأثُّرًا بهذا الخبر، فقد أحبَّت أسمهان، انبهرت بجمالها وصوتها الخلَّاب منذ أن دخلت مع زوجها فيلم «انتصار الشباب». وليس لهذا فقط، فذلك اليوم لن تنساه أبدًا، كانت حينها في الأيام الأخيرة من حملها بـ «فيفي»، وكان حَملًا غير متوقَّع. فقد وُلد ابنُها «فريد» في شهره السابع، في التاسع من يوليو ١٩٤٠، ولم يمرَّ شهر ونصف حتى وجدت نفسَها قد حملت للمرة الثانية. وفي ليلة حضورها الفيلم في أواخر شهر أبريل عام ١٩٤١، وبينما هي مندمجةٌ تتمايل مع غِناء أسمهان: «يا بدع الورد، يا جمال الورد»، جاءها الطَّلْقُ مباغتًا، فصرخت حينها في صالة السينما لتُعلن أنها على وشَك الولادة، وقام زوجها وكلُّ الحضور يحاولون فِعل أي شيء! نسوا أسمهان وغناءها، وبين الهرج والمرج كلٌّ يَصيح: «ست بتولد، ست بتولد!» ولكنها -مع كل هذا- كانت الوحيدة التي تنظر إلى شاشة العرْض في أثناء صراخها! وتودُّ لو تُكمل الفيلم الذي لم يمرَّ من وقته سوى نِصف ساعة!

نجح زوجها بمساعدة بعض الغرباء بأخذها بالحنطور إلى البيت، ولكنها كانت قد وَلدت بالفعل في طريقها! ليهرع «سيد» طالبًا مساعدة الجيران، ويَصل الخبر إلى «أم عثمان» التي هبطت إلى الشارع ومعها بطانية لحمل المولودة، وهي تزغرد!

Visual Watermark

لاحظ «سيد» تأثر «عليَّة» بنبأ وفاةِ أسمهان، فأدرك تذكّرها لتلك الليلة العجيبة؛ ازدادت نبضاتُ قلبه، ثم قال محاولًا تشتيتَ انتباهها:

- كلما ظننَّا أن الحرب العالمية الثانية على وشك الانتهاء، تُخرب الدنيا من جديد! اسمعي هذا يا «عليَّة»: استطاع السوفييت أن...

- آآه.. آآآه.. آآآآه!

ألقى «سيد» الجريدة من يده، وأصابته البلاهةُ لثوانٍ كأنه في حُلم سخيف! ارتعبت الجدة «آمنة» بدورها وهي تُحاول أن تستند على ابنها وأي شيء آخر، وهي تقول:

- في إيه يا ولاد؟! مالكِ يا ابنتي؟ الحَق يا «سيد»، شكله الطَّلق يا ابني!

قفز «سيد» من مكانه في لمح البصر، وأدرك أنه قد حانت لحظةُ الولادة كما قالت أمه، تجمَّع الصِّغار حول «عليَّة» يبكون تأثُّرًا ببكاء أمهم وصرخاتها. وركضت «أم عثمان» من المطبخ مسرعةً قدْرَ استطاعتها لتُساعد «عليَّة» للقيام عن الكرسي حتى تصل إلى سريرها بالغرفة، وخلفهم الجدة «آمنة» ممسكةً يدَ «فريد» بإحدى يديها، وبالأخرى تتحسَّس الأثاث من حولها لتسير معهم، وهي تدعو لـ «عليَّة» بولادةٍ يَسيرة. وفي تلك الثواني المعدودة ارتدى «سيد» ملابسه سريعًا وخرج لإحضار الدَّابة، ومن خلفه علا صوتُ زوجته تطلب منه أن يُحضر والدتها. وصل صراخُها إلى «عنايات»، فوقفت أمام باب البيت تتنصت، وكادت أن تَطرقه، ولكن «سيد» فتح البابَ فجأةً ليصطدم بها! ويتركها ذاهلةً دون تحيةٍ ويقفز على درجات السُّلم، وهو يُحدِّث نفسَه بصوتٍ مرتفع للغاية:

«لا! الموضوع مُريب جدًّا! كلما ظهرت سِيرة أسمهان، تلِد عليَّة! لا لا لا.. لا يُعقَل!»

***

عمَّت الفرحةُ بالمولود الجديد أرجاءَ البيت، وجاء والدا «عليَّة» مُحمَّلان بأكياس الفاكهة والدجاج والسَّمن الفاخر. قرر «سيد» أن يُسمي مولوده «فهمي»، وبدأ الجميع يتلقفون عضو العائلة الذي وصل لتوه فيما بينهم، فإذا حملته «آمنة» لبضع دقائق، تختطفه جدته «كوثر»، ومن بعدها يأخذه «سيد» يحمله لثوانٍ ثم يُعطيه لأمه التي تحتضنه بحرصٍ وتدعو له وهي تُمرر أناملها بخفةٍ على تقاسيم وجهه. ثم يأتي «فريد» وأُخته ويُصران على حمله، فتُنقذه «أم عثمان»، تُسمِّي اللهَ ثم تُناوله لجده «حافظ» وهي تقول لهم: «لا زلتم صغارًا»، فيرد «فريد» بخبطةِ اعتراضٍ من قدمه على الأرض قائلًا: «لا، أنا كَبرت.. ماما تقول أنا كبير وبابا يقول أنا كبير!»

فيضحك جده ويقول:

- بالطبع! أنت سيد الرجال، وكلها عام ولَّا اثنين وتأتي عندي المدرسة.

بُهت «فريد»، ووجم وجهه لكلمات جده، لا يعرف جيدًا ما هي المدرسة، ليست لديه مشاعر واضحة تجاهها، لا محبة ولا كُره، ولكن أحاسيسه ومخاوفه من جده شديدة الوضوح، وتُعلن عن نفسها في كل تصرفاته، فكل المشاغبات التي يقوم بها في بيت والديه، لا يجرؤ على فِعلها ببيت جده؛ يشعر بصرامته وحَزمِه ويَهاب نظرةَ عينيه الجادتين إذا ما اقترف خطأً -دون قصد- أمامه، فيقف مكانه بأرجلٍ مرتعشة. حتى إنه ذات مرة تبوَّل على نفسه رهبةً منه! لذا، وجَّه نظرةً طويلة إلى الجمع الملتف حول المولود، ثم عاد إلى الغرفة بخطوات بطيئة، فهو يخاف حتى أن يركض أمام جده، وسقط في بئرٍ مظلمةٍ من الترقُّب وانتظار الغد الآتي!

وظلَّت «فيفي» بدورها تنظر إلى الجميع نظرةَ اعتراضٍ على كل ما يحدث، تكزُّ على أسنانها بغيظٍ وتتنفس بوتيرة متسارعة، فقد كانت لتوها المدلَّلةَ الصغيرةَ التي لا يُرفَض لها أمرٌ، وفجأةً أصبحت مثلها مثل «فريد» منذ لحظة ولادة «فهمي». وتأكدت بعد أن رأت أمها تُرضع مولودها وهي تحتضنه، بأنها قد قُذفت بعيدًا، أو أُلقي بها من شُرفة البيت، التي بدت للصغيرة كلما نظرت من بين أعمدتها الخشبية كأنها تعيش فوق جبلٍ شاهقِ الارتفاع. تُدقِّق بمقلتيها الصغيرتين في بريقِ عيني أُمها عندما تنظر إلى المولود، فتزداد غيظًا وحنقًا. حتى حِجر والدها وذراعاه اللذان احتوياها دائمًا، ما عادا يضمَّانها وحدها؛ فهو يحمل أخاها الرضيع بحُبٍّ جارفٍ لا تريد تصديقه، كما أصبح لا يُعيرها الأب اهتمامًا، مثلما كان بالأمس!

لذا قررت أن تتحد مع أخيها الكبير على هذا الطفل الذي حلَّ عليهما كالبلاء ليُعكِّر صفوَها، لكن

Visual Watermark

«فريد» لم يهمه الأمر برمته، وبات يفكر ليل نهار في كلمات جده، وكيف أنه سيكون تحت سطوته عمّا قريب. يُفكر في الخلاص منه، وتُفكر أخته في الخلاص من «فهمي»!

وذات ليلةٍ قالت له «فيفي» بعد مرور عدة أسابيع، وقد تأكدت أن مكانتها لن تعود أبدًا مثلما كانت: «نأكله يا فريد؟ وقت نوم ماما وبابا، نأكله بالليل أنا وأنت».

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

الفصل الثاني

لم تتحقق مخاوف «فريد» وكوابيسُه التي لم تفارقه طوال العامين السابقين. التحق بالسنة التمهيدية ومن بعدها بالصف الأول بمدرسة العدوي الابتدائية، اختفى ذُعره، وأدرك أنه أمرٌ نادرُ الحدوث أن يلتقي جدَّه في أرجاء المدرسة. وعلى عكس ظنونه أيضًا، وكلِّ ما أوحَت إليه بالأهوال التي سيلقاها، كانت له مكانةٌ خاصةٌ بين المدرسين والطلاب. فالمدرسون وعلى الرغم من اهتمامهم بتعليم كافة الطلاب بالحرص ذاتِه، إلا أنه حظِيَ بعنايةٍ مُضاعَفة. وكان أكثرُ الطلاب يسعَون إلى التقرب منه والتودد إليه، فهو حفيد الناظر! وأدت رعاية المعلمين له ومعاملتهم الطيبة إلى مَحبته اللامحدودة لتحصيل العِلم. فصار -دون أن يدري- من المتفوقين، الأولَ دائمًا على صفِّه، والمثالَ الذي يُحتذى به ويُضرَب به المَثل. كذلك أحبَّ الدراجة الهوائية التي أهداها له جدُّه في يومه الدراسي الأول، وأصبحت وسيلته للذهاب والعودة من المدرسة، وكان قد تعلَّم ركوبها منذ عام على يد صديقه «حسين». ولا ينسى «فريد» المرةَ الأولى التي استطاع فيها موازنة جسده فوقَها دون أن يقَع، فقد اعتاد أن يراقب جارَه وهو ينطلق بدراجته، من شُرفة البيت، لأن والديه لم يكونا ليسمحا له باللعب في الشارع كباقي الأطفال، وانحصرت فترات لعبِهِ مع «حسين» أمام باب بيتهم بالبِلي. ولذا حين سُمح له بالانطلاق في الشارع للمرة الأولى راكبًا الدراجة، شعر بسعادة غامرة كمَن لامَس السماء. يتذكر جيدًا هواءَ بورسعيد وهو يداعب وجهه عندما انطلق بأقصى سرعة ليقطع شارع فؤاد الأول حتى نهايته، ثم انحرف يمينًا ليرى من بعيد التمثالَ الضخم. أوقف دراجته آنذاك بقدميه، ووقف يتأمل التمثالَ المهول لفيرناندو ديليسبس، وقد بدا ارتفاعه أعلى من العمارة التي يقطنها. ومنذ أن أصبحت له دراجته الخاصة، اتفق هو و«حسين»، الذي كان يدرس بمدرسة الواصفية، أن يتقابلا كلَّ يوم عند مفترَق بداية الطريق بعد انتهاء اليوم الدراسي ليتسابقا إلى البيت.

وصار «فريد» يتعجَّب في قرارة نفسه من تعلُّقِه الغريب والمفاجئ بجده «حافظ»! وكلما زاد عمرُه يومًا، تحوَّلت المهابة في قلبه إلى حُبٍّ واحترام متأصِّل. فيظَلُّ يُلحُّ على والدته في يوم إجازته لتصحبه إلى بيت جده في بداية اليوم. وفور دخوله من بابِ البيت، يُقبِّل يدَ جده ويجلس بجانبه وهو ينظر إليه نظرةَ إعجابٍ وتقدير. وبالطبع، كان تفوُّق «فريد» الذي يتحدث عنه كلُّ معلميه، قد وصل إلى «حافظ»، فشعر بالفخر والسعادة لتحقيق أُمنيته المَنسية التي لم ينلْها مع ابنه. وكانت الأُسرة حينما تجتمع، يَنفرد الجدُّ بحفيده، ليُحدثه عن التاريخ وعلوم الدنيا بشتى اختلافاتها، ويمنحه كتبًا من مكتبته ليقرأها، في العلوم والثقافات العامة والروايات. أحب «فريد» كتابات عباس العقاد، وقد أحس أنها تُبارز عقلَه لكي يفهم مكنونها، واعتاد أن يعود إلى جده ليناقشَه فيما قرأ، فيجلس الجدُّ منبهرًا بالحفيد الذي لم يتعدَّ سبع سنوات!

كما أصبح يجلس كثيرًا مع جدته «آمنة»، يُناقشها نِقاش الكبار في أمور الدنيا، وسألها ذات يوم:

- ألا تفتقدين النورَ يا نينه؟

ابتسمت «آمنة» لتُجيبه:

- أنا لم أره منذ كان عمري أصغرَ منك يا «فريد».

فقال متسائلًا:

- ولكن كيف؟ وقع شيءٌ فوق رأسِكِ؟

ضحكت قائلةً:

- لا! بل زالت كلُّ الهموم من فوق رأسي.. أنا لا أرى ظلامًا يا بني. لقد منحني اللهُ نورًا منه يُضيء عقلي. يومها نمتُ نومةً طويلةً واستيقظتُ وقد رحل البصر بلا عودة، وحلَّت البصيرة. ثم إنني لستُ أحتاج إلى النور وأنتَ بجانبي يا نور العين!

احتضنها «فريد» مُغمِضًا عينيه، ولكنه لم يغِب عن عينيْ «سيد»، لاحظ تعلُّقه بجده وجدته وتأثُّره بهما. كما راقب تصرفات ابنه وقد بدت أكثر اتزانًا وهدوءًا وأدبًا، فامتلأ بالفخر.

أنهى «فريد» عامه الدراسي الأول دون أن يشعر أحدٌ بالعبء، وحصل على نتائج دراسية مبهِرة جعلته من أوائل مدرسته.

Visual Watermark

***

لاحت في الأفق رائحة الموت خوفًا من وباء الكوليرا بعد ظهوره في عدة قرًى بمحافظات مصر. وكان الموتُ الأسود قد ضرب مصر في تاريخها الحديث أكثر من مرة منذ عام ١٨٨٦ وحتى ١٩٠٢، وقد أودَى بحياة مئات الآلاف من الأرواح. وقد قدِم هذه المرة من الهند، بعد جلاء القوات البريطانية عنها في الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٧، والتي اتخذت منطقة «فايد» محطةً لرسوِّ السفن، فأتوا مُحمَّلين بالوباء، وظهرت أولُ حالة بحُميَّات العباسية لواحد من الذين كانوا يعملون بمعسكرات الإنجليز.

عُلِّقت يافطات «لا راحة ولا سكون» على المستشفيات كافةً، وحلِّقتِ الطائراتُ في سماء مصر، وخاصةً القُرَى المُصابة، لرشِّ المُعقِّمات في الهواء لمُحاربة الذبابِ الناقل للمرض، وكذلك رش الشوارع والمباني. وبدأت حملاتُ التوعية في الصحف، للتنبيه على ضرورة غسل الأيدي والخضروات والفاكهة، وتجنُّب ملامسة الآخرين والبصقِ في الطُّرُقات، ونشرت الجرائد صورًا لمَن يتلقَّون التطعيم للوقاية من المرض، حتى إن بعض المجلات نشرت صورًا لسيدة تُرية تُحمم كلبها كلَّ يوم للوقاية من الكوليرا! ومُنِع السفرُ من مصر وإليها، وبين المحافظات إلَّا بوثيقةِ التطعيمات.

كان «سيد» يُتابع تطوُّر هذا الوضع المُقلِق، ويُشيد -في أحاديثه مع زملائه- بحِكمة المسؤولين وقراراتهم للحدِّ من انتشار المرض المُخيف، واستشفَّ أنهم سيُسيطرون عليه بأقل خسائر في الأرواح، مقارَنةً بما حدث من قبل.

وقال مُحدِّثًا زوجته وهو يقرأ الجريدة، وقد ظهرت الكلمات أمامه بالبنط العريض «تأجيل شم النسيم»:

- يظهر أنه لن نستطيع الذهاب للاحتفال بشم النسيم عند أخيكِ هذا العام.

- ولم؟

- البلد، وحالات الكوليرا يا «عليَّة»! صحِّي النوم!

امتعضت متسائلة:

- وما دخل رأس البر بالكوليرا؟ لقد قضَوا عليها، غير أني كلمت «نوال» زوجة «عادل» من أسبوع عندما زرتُ ماما، وأكدتُ عليها أننا سنأتي، و«فيفي» تتشوق لرؤية ابنة خالها. هل أُخلف وعدي لها؟

مدَّ «سيد» يده بالجريدة لها:

- خُدي، اقرأي.. توجهين لي اللوم كأنني صاحب القرار! البلد كلها في حالة إغلاق. رمضان على الأبواب، والناس تخاف من انتشار المرض يا «عليَّة». ثم ما لها شواطئ بورسعيد؟ عجيبة دي! الناس كلها تأتي من أنحاء مصر لشواطئنا! نستطيع قضاء الوقت والاستمتاع هنا..

تأففت «عليَّة» في ضيق وقامت لتدخل المطبخ. كان تأففها لاختلاف حياتها منذ ولادتها لـ «فهمي»، أصبحت لا تذهب إلى السينما إلا نادرًا، وقلَّت مراتُ الخروج للتنزه مقارنةً بما مضى. كثُرت المصروفات مع ولادة الابن الثالث، وبدخول «فريد» المدرسة، وستلحقه «فيفي». وزادت الأقسام في الدفتر.

وكانت علاقتها قد توطدت بزوجة أخيها المرفَّهة، وهي على عكس «عليَّة» لا تحمل همًّا، فأُسرتها تساندها هي وزوجها ماديًّا، وتُنفِق أضعاف دَخل أُسرة «سيد» على شراء الفساتين وتفصيلها على أحدث الصيحات الفرنسية، التي استوحت أغلب تصاميمها من فساتين الأميرات بمصر. كانت قد رأت في إحدى المجلات الأجنبية عند جارتها «عنايات» موديلًا جديدًا لفستان من موضة العام، اشترت له قطعةَ قماش من «صيدناوي» لتفصيلها عند «زينب» خيَّاطة والدتها. فضَّلته مُخصَّصًا لزيارة رأس البر، منافَسةً لـ «نوال»! لكن تأتي الرياح بالسفن المُحمَّلة بالكوليرا! ذَهب كلُّ هذا سدًى! أصابها الإحباط فلن ترتدي فستانها الذي ستستلمه في الغد.

وعلى النقيض، كانت «نوال» لا تعبأ بكل البَشر من حولها ولا ترى سوى نفسها، ولا تشغل بالها بأي أحداث تَجري في العالَم، فلا الحروب تُعكِّر مزاجها، ولا الأمراض أو الأوبئة! بل تُعير تسريحات شَعرها كلَّ الاهتمام! وتعلم «عليَّة» جيدًا -في قرارة نفسها- ألَّا أحد في الكون كان ليناسب «نوال» مثل أخيها «عادل»، فهو مثلها لا يعبأ أيضًا بما يحدث حوله. تتخيل لو أن «نوال» قد تزوجت «سيد»، الذي يحيك عالَمه بأخبار الوطن وهمومه، لكان أحدُهما قد قتل الآخَر في الصباحية!

تنهَّدت ثم قالت لأبنائها بصوتٍ ارتفع بخَيبة الأمل، وقد استسلمت للأمر:

Visual Watermark

- تأجَّل سَفر رأس البر.. خلاص يا ولاد.

ركضت «فيفي» لتدخل المطبخ وهي تقول:

- و«سوسو» يا ماما! أنا لم أرَها منذ عدة أشهر!

فأجابتها باستسلام:

- ما باليد حِيلة! يمكن لو الأوضاع صارت أفضل، نذهب إليهم أو يأتون إلينا في العيد. يلا روحي اعتني بـ «فهمي» حتى أنتهي أنا و«أم عثمان» من الغداء.

انصاعت «فيفي» لأمر والدتها ودخلت الغرفة. جلس «فريد» فوق السرير يقرأ رواية «دعاء الكروان» لطه حسين، وبجانبه «فهمي» يُقلب بين أوراق كراسات أخيه كلُعبة. ضحك الصغير فور أن رأى أخته، وهرع لينزل عن السرير إليها بخطوات متعثرة مثيرة للضحك، ابتسمت له «فيفي»، وأمسكت كفَّه الصغيرة ليَدخلا معًا إلى الشُّرفة، جلست على الكرسي واتكأت بذقنها فوق كفِّيها على السور الخشبي تنظر إلى الشارع بعينين خضراوين بديعتين، ورثتها عن جدتها «آمنة»، وانسدلت منها بتحرُّر خارج السور ضفيرتا شَعرها الكستنائي بربطتها البيضاء. وقف «فهمي» بجانبها وهو ينظر من بين أعمدة الشُّرفة الخشبية إلى الشارع والمارة باستكشاف، ثم حلَّق بعينيه العسليتين مع الطيور في السماء، وانعكست في مقلتيه كأنما تُحلِّق بها إلى عقله الصغير. بلغ «فهمي» عامه الثالث وبدا أكثر وعيًا وتعلُّقًا بأخته. وقد أصبحت «فيفي» بدورها بمثابة أُمٍّ في السادسة من عمرها، فإن بكى لا يُهدهده أحدٌ سواها، وإن أصابته سخونةٌ أو مرض، يَصفرُّ وجهها ويُصيبها قلقٌ أشدُّ وطأةً مما يُصيب الأم التي تمرَّست بعد ثلاثة أبناء. وبدأت العلاقة بين «فيفي» وأخيها الأكبر تتباعد منذ دخوله المدرسة. التحقت مثله في العام التالي، إلَّا إنها لم تكُن لتقارِب تفوقه. فهي تُنهي ما يُطلب منها من واجبات دون بذل أي مجهودٍ إضافي. أما «فريد» فقد صار له عالَمه الخاص بين الكتب بعيدًا عنها، يُحب مجالسةَ الكبار ومناقشة أبيه في أمور الدنيا وما يقرؤه في الجرائد، تبخَّرت خيالات الطفولة التي جمعتها مع مرور الأيام. ولم يَعد يُمضي أي وقت معها للَّعب كما اعتادا من قبل. ولكن هذا لم يضايقها، فدَور الأمومة مع «فهمي» أصبح مناسبًا لها أكثر، يُشعرها بأنها كبيرةٌ أيضًا مثل «فريد»، ومسؤولة. خاصةً أنه عادةً ما يُحدِّثها كأنها طفلةٌ على الرغم من فارق العمر الصغير بينهما، بل -أحيانًا- كأنها غبية!

لمحت -وهي لا تزال تنظر إلى الشارع- جارَهم «حسين» بدراجته، فتذكرت أخاها عندما نهَرها منذ أسبوع حين طلبت أن تقف معهما بممر السُّلم، قائلًا لها بحدة: «ادخلي!» احمرَّ وجهها آنذاك وشعرت بالحَرج. وبينما هي تراقبه متذكرةً ما حدث، نظر «حسين» بعفويةٍ إلى أعلى، فأدخلت رأسها بسرعةِ البَرق وسحبت «فهمي» بعيدًا عن أعمدة سُور الشُّرفة. كان هذا الخجل شعورًا جديدًا عليها، هي لا تعرف لمَ اختبأت! شيءٌ لا إرادي وُلد بداخلها منذ أن منعها أخوها من الوقوف معهما، كأنه من الآن لا يَحق لها مناداة أبناء الجيران من الشُّرفة أو الضحك معهم كما اعتادت حتى العام الماضي. عادت ببطء لتنظر إلى الشارع وقد تأكدت من عدم وجوده. حقدت على أخيها الذي يستطيع اللعب مع أصدقائه وجيرانه، ويستطيع التجول بدراجته، في حين أن الدقائق تُحسَب عليها منذ خروجها من المدرسة حتى العودة إلى البيت، فتقود دراجتها بسرعة كأنها لا ترى الشارع. وهي في الحقيقة إلى جانب ذهابها وعودتها من المدرسة، كانت لا تخرج من البيت سوى للزيارات العائلية أو في المرات النادرة عندما يخرج جميع أفراد الأُسرة للتنزه في حديقة «بالاس».

***

جاء رمضان عام ١٩٤٧، ولم تكن زينته واضحةً في شارع فؤاد، ولكن الشوارع الجانبية والحارات اكتظت بالشباب والصغار لتعليق الزينة بين شُرفات الشارع وعلى جوانبه. وبدأ الإعداد للدورات الرمضانية لـ «كُرة الشراب» بين فِرق كل شارع جانبي وآخَر. فاحت روائح الطعام الشهي من المطابخ، ووقف الرجال الذين أرسلتهم زوجاتهم مزدحمين حول بائعي البسبوسة والكنافة والقطايف. وإلى جانب التجول الصباحي المعتاد لبائعي اللبن، بدؤوا في المرور بالشوارع قُبيل فترة السحور أيضًا، وهم يصيحون: «لبن، حليب يا طازه».

وبعد إفطار اليوم الأول، اجتمع كلُّ أبناء العمارة الصغار؛ وبدؤوا يَطرقون أبواب الجيران وهم يُغنون: «إدُّونا العادة، ربِّ يخليكم». وكان الذين قرروا الخروج من بيتهم أولًا، هم أبناء «عيد» الخمسة وهم

Visual Watermark

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

يحملون الفوانيس النحاسية الصغيرة، ولحقهم «فريد» و«فيفي». اصطحبت «فيفي» أخاها الصغير ممسكةً بيده اليُسرى، وبيده الأُخرى حمل فانوسه. وركض «فريد» على درجات السُّلم إلى الطابق الأول، طالبًا من «حسين» أن يُسرع لكي ينضم إليهم، رفض في بادئ الأمر لشعوره بأنه الأكبر سنًّا بين كل هؤلاء المتظاهرين من الأطفال، وقد لاحظ فرقَ طولِه عنهم جميعًا، ولكنه سرعان ما قرر أن ينضم إليهم حين استوعب ما سيعود عليه من «عادة» رمضان وخيراتها من الفول السوداني والقطايف أو أي حلوى سيمنحها لهم الجيران.

وسمعت صوتَ الأطفال، «عديلة» ابنة «ناحوم»، ففتحت باب الشقة وقررت أن تنضم إلى الفوج. وتسابقوا مبتهجين يَطرقون الأبوابَ ابتداءً من الطابق الثالث، طرقوا أولًا باب «عيد» فمنحت زوجتُه كلَّ طفل القليلَ من المكسَّرات والبونبون، ومِن بعدها طَرقوا بابَ الأُسرة اليونانية المنغلقة، وعلى الرغم من سماعهم أصوات أهل البيت، إلَّا أنه لم يكترث بهم أحدٌ أو يفتح الباب! فصرخ «حسين» كأنه قائدُ الثورة قائلًا: «طَب بِلَبسة على بِلَبسة، صاحبة البيت ده مفلسة!» وهتَف خلفه الأطفالُ في احتجاج، فتفتحت السيدة ورمقتهم بعينٍ جاحظةٍ يَخرج منها الشَّرر وصرخت فيهم، ليركضوا بعدها على السُّلم ضاحكين، إلى الطابق الثاني. استقبلهم «سيد» مُبتسمًا وقرَّر منْحَ كلِّ طفلٍ بضع تمراتٍ والحلوى المغلَّفة، وجاءت من خلفه «عليَّة» لتمنحهم قطائف محشوة بالمكسرات، فالتهمها الجميع على الفور، ومدَّ أبناؤه أياديهم يطلبون المزيد، فمازَحهم قائلًا: «لَّما ترجعوا البيت ماما هتديكم».

ووقفت «عنايات» -خلف بابها المواربِ كعادته- تُتابع كلَّ ما يحدث وهي تضحك مع ضحكاتهم، ثم طلبت منهم أن يقفوا طابورًا، وبعد أن انصاعوا لأمرها، مَنحت كلَّ طفلٍ قِرش صاغ، قائلةً لهم أن يشتروا ما يودون من الحلوى، فصاحوا بسعادة وفرحة، وهتف «حسين» قائلًا: «يعمر بيت الست عنايات، طَب بِلَبسة على بِلَبسة، صاحبة البيت ده كويسة!» وردَّد خلفه الجميع!

وفي الطابق الأول وزَّعَت عليهم «فايزة» قِطَعًا من السمنية والبسبوسة. أما «ناحوم» فقد فتح الباب ليَسحب ابنته من وسط الجَمع إلى الداخل، وهو يَسترق النظرَ بعينيه إلى كفَّي يديْها وجيوبها، يحاول أن يلمح ما حصلت عليه من جيرانها! طلب منهم الانتظار، ودخل خلف ابنته إلى الغرفة وهي تضع كلَّ ما مُنِح لها بسعادةٍ على السرير، وفي لمح البصر أخذ تمرةً من غنيمتها! وعاد ليَمنحها للأطفال، وقد ألقاها في الهواء وهو يقول مداعِبًا: «الجدَع اللي يلقُف».. تلقَّفها «حسين» وحدَه، ووقف حائرًا ينقل نظرات الاستفهام بين التمرة ووجهِ الرجل، وأعدادِ الواقفين! فأشاح لهم «ناحوم» بيده وهو يُغلق بابَ البيت قائلًا: «يلَّا! كلُّه على بيته».

صاح الجميعُ احتجاجًا على هذا الظُّلم، كيف سيتقاسمون جميعًا تمرةً واحدةً فقط! وكاد «حسين» أن يهتف ضدَّ سُكان البيت ويُلقيَ بالتمرة في وجه «ناحوم»، إلَّا أنه تماسَك في اللحظة الأخيرة لأجل «عديلة»! فقلب الفتى الذي بلغ لتوه تسعةَ أعوام كان يدقُّ سريعًا كلما التقاها. شَعر بذلك للمرة الأولى منذ عام، عندما قابلها في أثناء عودتها من المدرسة ووقفت تُمازحه، ثم قادا دراجتيهما جنبًا إلى جنب حتى وصلا أمامَ العمارة.

كان إعجاب «حسين» بريئًا لا يتعدَّى القليل من التوتر إذا لمح «عديلة»، والغضبَ الشديد إذا ما سمع صياح أخيها فيها، أو شعوره بالسعادة البالغة إذا ما تحدثت إليه ورأى ضحكتها المميزة تُضيء وجهها. ولم تصِل بعدُ إلى مُخيلته القُبلات الساخنة والعلاقات الغرامية التي بدأت تغزو السينما في الأفلام الأجنبية. ولذا شعر بإحراج من أي ردِّ فعلٍ قد يقوم به تجاه والدها، وقرر أن يكتم غَيظَه من بُخلِه ويدخل بيتَه تاركًا باقي صِغار الجيران، وقد بدأت الأمهات تنادي على الأبناء للعودة إلى البيوت. انفضَّ الجمعُ المرِح وعاد كلُّ طفلٍ بغنيمةٍ جيدةٍ من الحلوى والمكسرات، وبقرشِ «عنايات».

***

انتبه «فريد» بعد خروجه من المدرسة للجموع التي احتشدت بجانب الشارع، ليُراقب المَوكبَ القادم من بعيد. أوقَف دراجته ووقف يتطلَّع إليهم في فضول، ثم مشى خطوتين للأمام ليُصبح في الواجهة، اقترب المَوكبُ الذي يَضم الأميرةَ «فوزية» ابنةَ المَلك فؤاد، وبجانبها شقيقتُه وبعضُ الوصيفات. وأدرك هُويتهم قبل اقترابهم، بسبب الأحاديث التي ترامت إلى سَمعه من الحشد. هدأت سُرعة المَوكب لثوانٍ حتى يتسنَّى للأميرات أن يُشِرن بأيديهن لتحيةِ الواقفين، أشار «فريد» بيده وحيَّاهم بابتسامةٍ خجولةٍ

Visual Watermark

فابتسمت له الأميرةُ «فوزية» وبادلته التحيةَ دون باقي الواقفين، ثم انطلق الموكبُ بعدها ليُكمل طريقه مبتعدًا. شعر بفرحةٍ عارمةٍ لأنه الوحيد الذي خصَّته بتحيتها وهي تنظر مباشرةً إلى عينيه، وقد ارتفعت الأصواتُ مِن حوله غَيْرةً: «أيوا يا عم!» عاد ليركب دراجته وقد انتفخ صدره، وبدا من زهوه كأنه ازداد طولًا! قاد الدراجة مُسرعًا للغاية، وكاد طربوشه أن يَطير منه، مدَّ يدَه يُثبِّته وهو يحاول السيطرةَ على القيادة باليد الأُخرى، فارتطم بسيارةٍ وطارَ مُرتفعًا في مشهدٍ دراميٍّ ليَسقط فوقَ عربة الخضار التي احتشدت فوقها الخَضروات، وكان موقعه تحديدًا فوق الطماطم! شهق صاحبُ العربة مشدوهًا ونظر إلى السماء التي ألقت بهذا الصبي فوق عربته فجأةً! كلُّ هذا ويَدُ «فريد» فوق طربوشه تُحكِم بقاءَه!

ساعده البائع بحمله، هو وكلُّ مَن اجتمع حوله من المشاة وعابري الطريق ليشاهدوا المعجزة التي قذفت به من السماء. وسرعان ما بدأ البعض بإلقاء اللوم على قيادته المتهورة لدراجته، فعاد للبائع رشدُه مُدركًا بأن سماء بورسعيد لا تُلقي بالمعجزات! وصاح بتوترٍ واعتراض:

«إنتَ وقعت عليَّ من أنهي داهية؟!»

حاول الواقفون تهدئةَ الرجل، وهو يخبط على عمامة رأسه بحسرةٍ وأسى. أما «فريد» فطأطأ رأسه في خجل وشعر بالذنب، وقد بدَت ملابسه ملطخةً بالطماطم، والتصقت به بعضُ قرون الفلفل، وتبعته كلمات البائع الصارخة: «يا ناس! ده خرب لي بيجي عشرين كيلو طماطم!»

انتابَ «فريد» الهَلع! وشَعر أن البائع سيُلاحقه بعد ثوانٍ! أخذ دراجته التي ارتمت على الأرض بجانب السيارة وركض بها مُسرعًا وهو يمصُّ أصابعه من بقايا الطماطم التي التصقت بها!

وفور دخوله البيتَ قال بحماسٍ زائد، مُتناسِيًا حالته:

- لديَّ خبرٌ هامٌّ جدًّا يا أبي..

انزعج الأب للوهلة الأولى من منظر ابنه، سأله وهو يُزيل عن وجهه عودًا من الخَضروات التصق به:

- أيُّ خبرٍ مهبَّب هذا! ما هذا يا «فريد»!

- آه.. آه يا بابا، آسف! لقد فقدتُ السيطرةَ على الدراجة فوقعتُ فوق عربة خضروات.

نظر أبوه إليه يتفحصه من رأسه إلى حذائه المتَّسخ، فتبخَّر انزعاجُه وبدأ يضحك على مَنظره، ثم قال:

- هذا هو الخبر؟ الله يحميك من أُمكَ فورَ أن تراك هكذا!

ردَّ «فريد» بحماس:

- لا لا.. يا بابا! رأيتُ اليوم ابنةَ المَلك فاروق، تصوَّر يا بابا؟ بادلتني وحدي التحيةَ دون كلِّ الواقفين! تخيَّل يا بابا! أنا الوحيد الذي ابتسمت له! وتخيَّل.. لوَّحت لي بيدها يا بابا!

ضحك الأب ثانيةً ثم قال مُصَحِّحًا:

- بركات الأُسرة المالكة! على أي حال: الأميرة «فوزية» هي ابنةُ المَلك فؤاد يا «فريد»، وأُخت الملك فاروق وليست ابنته..

خبط «فريد» جبهتَه بكفِّ يده لخطئه، ثم عاد لحماسته وهو يُردف:

- أعرف أعرف.. لكن الموقف أنساني.. إنها جميلةٌ جدًّا يا بابا، وكأنها كالأميرات..

ضحك الأب مُجدَّدًا بصوتٍ مرتفع، وشاركته «آمنة» الضحك على كلمات حفيدها، لتقول:

- ما هي أميرة فعلًا يا صغيري! الظاهر أن الولد طالع لأبوه، يُقدِّر الجمال. إنني أُراهن أن أمَّك جميلةُ الجميلات، وأكثر بهاءً منهن جميعًا..

تردد «فريد» للحظة في خَجل، ثم أجاب جدَّته وسط ضحكات الأب:

- طبعًا.. طبعًا يا نينه!

وفي هذه الأثناء، جلست «عليَّة» على طرَف السرير بالغرفة، تُساعد ابنَها «فهمي» على ارتداء ملابسه بعد استحمامه، بينما كانت أُذناها مُصغيتيْن تمامَ الإصغاء لأحاديث الأُسرة بالصالة، ونسيَت للحظةٍ توعُّدَها بعِقاب ابنِها لتهوُّرِه واتساخ ملابسه. ابتسمت فورَ أن سمعت ما قالته «آمنة» عنها، فعلى الرغم من أن حماتَها لم ترَها قَطُّ بعينيْها، إلا إنها بثَّت فيها بكلماتها تلك القليلَ من الثقة التي بدأت تهتزُّ مؤخَّرًا بداخلها. تساءلت في قرارة نفسها: «تُرَى هل هي في عيني زوجها لا تزال حقًّا أجملَ امرأة، كما قال لها في بداية

Visual Watermark

زواجهما؟» تعرف جيدًا بأن انهماكها في مُتطلّبات البيت، ومع أبنائها الثلاثة، قد أخذ قدْرًا من رونقها واهتمامها بنفسها. تعرف أيضًا أنها لم تَعد مثلما كانت. لقد أتمت عامها السادس والعشرين منذ شهر، ونسيَ «سيد» -على غير عادته- يومَ ميلادها، فلم يُبادرها بقُبلة في صباح ذلك اليوم. لا هدية مميزة، لا سينما ولا تنزُّه؛ لقد ولَّت تلك الأيام، تبخَّرت لتكوِّن فوق رأسها سحابةً من المسؤوليات تحجب الضوءَ عن مُتع الحياة! ونسيَت مع الأيام صالات السينما والطُّرقَ التي تؤدي إليها. صارت أمًّا مثاليةً يُضرب بها المثل، وحلَّت تربيةُ أبنائها وتلبيةُ احتياجاتهم -التي لا تنتهي- في المرتبة الأولى. وعلى الرغم من ضيقها، لم تلُم زوجَها يومًا أو تسعى لتذكرته بالأيام الخوالي. لقد أرادت هي نفسها أن تنسى، زجرت الريح بسنوات الطفولة التي تمنَّت فيها أن تُصبح امرأةً كبيرة راشدة. تبدلت المشاعر وأضحى الحُلم كابوسًا مَقيتًا. صارت تخاف من مرور السنوات، تُشفق على العَجَزة، وتحزن على القِطَع المعدنية حينما ينهش فيها الصدأ، وتؤرِّقُها الأتربةُ التي تتراكم جبالًا فوق الأماكن المَنسيَّة والشقوق في الجدران المُهمَلة.. تمقتُ «عليَّةُ» الشيخوخةَ والإحساس بتقدُّم العُمر، وتُزعِجُها رؤيةُ ذبول الورود، وتتمنى لو تظلُّ ابنةَ السابعةَ عشرة للأبد، فلا أيام تمرُّ ولا سنواتٌ تمضي بها!

خرجت من الغرفة، ولا يزال «فريد» يحكي ويتحاكى بما رأى.. فقالت تنهره:

- والله عال يا بيِ «فريد»! يكفي حكايات. اخلع حذاءك، وادخل فورًا كي تستحم. واحذر أن تُلطِّخ ملابسُك أيَّ شيء.. أُختك عادت من قبلِك وبدَّلت ملابسها، وهي بالغرفة تذاكر ما عليها، في الوقت الذي تأخرتَ فيه أنتَ مَضيِّعةً لوقتك بلا فائدة!

أخفض «فريد» رأسَه متحاشيًا النظر في عيني أُمه، وشعر بتأنيب ضمير مفاجئ يُباغته، خاصةً عندما قارنته بأخته التي سبقته بحلِّ ما عليها من واجبات. تأسَّف لوالدته، وكاد يركض من أمامها، فسألته بحزم وتعجُّب واضح:

- أين حقيبةُ المدرسة يا «فريد»؟!

تسمَّر في موقعه لثوانٍ يُفكر، ثم قال مرتعبًا يُتهته بالكلمات:

- إما.. قد نسيتُها في المكان الذي رأيتُ فيه الأميرة، وإما.. فوق عربة الطماطم..

فصاحت أُمُّه:

- وإما سُرقَت!

نَهرته بشدة، وأمرته أن يعود بهيئته تلك لإحضار حقيبته من مكانها غير المعلوم، في ذلك اليوم الممتلئ بالأحداث من حياته!

ثم جلست بجانب حَمانها وهي تنظر بجانب عينيها إلى زوجها، الذي اختفى وجهُه خلف ورق الجريدة، ولم يُبد أيَّ تعليق أو يَنهر ابنه بدوره على نسيانه حقيبته.. تنهدت «عليّة» بصوت واضح ثم تساءلت:

- هناك حدثٌ هامٌّ في بورسعيد اليوم؟

همهم زوجُها دون إجابة، فأردفت:

- أقصد ما قاله «فريد»..

طوى «سيد» الجريدة وهو يقول:

- آه.. اليوم افتتاح مَبرَّة «محمد علي»، لقد وُضع حَجر أساسها في أول الشهر، واليومَ حضرت الأميرات للافتتاح.

فكَّر لثوانٍ، ثم ضاقت عيناه وأشار بسبابته في الهواء وهو يُضيف:

- تخيَّلوا.. عبد الرحمن لطفي باشا تبرَّع وحدَه بأربعة عشر ألفَ جنيهٍ في بناء هذا المُستشفى! أعتقد أنه سيُصبح من أهم مستشفيات بورسعيد..

اتسعت عينا «عليَّة» من هذا المبلغ الضخم، وكادت أن تُعلِّق، ولكن زوجها استطرد في الحديث وهو يفتح الجريدة مرةً أُخرى:

- غريبٌ أمر المَلكِ وأعوانِه! بقدْر المشاريع التي يُنشِئونها لأجل المواطنين، والتبرعات من هنا وهناك، وكل تلك الإنجازات، يُعطون أنفسَهم حقَّ منحِ الوطن ذاتِه لمَن لا يَملكه!

Visual Watermark

امتعض وجه «عليَّة» من كلمات زوجها لتقول:

- مالكش حق يا «سيد».. انظر إلى مصر، هي من أفضل دول العالم بسبب المَلك.. انظر إلى بورسعيد، وحدها تُضاهي في جَمالها كلَّ بلاد العالم!

تغيَّرت نبرةُ «سيد» ليَرُدَّ منفعلًا:

- ما تقولينه هو قِمة السذاجة! أنتِ تُثبتين لي يومًا بعد يوم مدى سَطحيتك يا «عليَّة»! بلادُك جميلة بسبب أبنائها، كدُّهم هو الذي بناها، وليس الملك أو أتباعه! ومع ذلك انظري لتقييمك للأمور.. تَحكُمين على البلاد من شوارعها العامَّة والبريق الأوروبي الزائف؟ ادخلي الحارات، ستجدين الفقرَ المُدقِع يُخيِّم في سمائها، وما أكثرَ الحارات والفقراء في بلادنا، ما أكثرَ الكادحين! أنا لا أكره المَلك، ولكنه ضعيف، والضَّعف نهايته دائمًا سيئة. سياسة المَلك تَجعل كأن مصر وما فيها مِلكٌ للآخَرين، فكأننا يَجب أن نُقبِّل الأيادي لأنهم تفضَّلوا علينا بما نستحقُّه في حقيقة الأمر! يا «عليَّة» نحن أبناء الوطن وخَيرُه وخيراته مِن حقِّنا..

أرادت «عليَّة» أن تُعبِّر عن رأيها، أن تُبديَ اعتراضًا، فقالت:

- ولكن..

فقاطعها «سيد» مستطرِدًا:

- لا لكن، ولا غيره! المَلك في عالَمه الخاص مع أحبابه من الطاليان وغيرهم، يعيش حياةً مُترَفةً إلى حدِّ السَّفَه.. وبعدين، شغِّلي عقلَكِ قليلًا: هل تعتقدين أننا إن أردنا أن نطرد كلَّ الأجانب الذين يتسكعون في شوارعنا مُنعَّمين في خيرات بلادنا، سينضم المَلك لصفوف الشَّعب في قَرارٍ كهذا؟ لا يا «عليَّة»، بل سيَحدث مثلما حدث لوالدي في ثورة ١٩، إن أول دماء ستسيل على أرض الوطن هي دماؤنا نحن.. لن يأبَه المَلك!

احتشدت الدموع في عيني الجدة «آمنة» فور أن جاءت سِيرةُ زوجها الراحل، وبدأت تُحسُّ بإعياءٍ مُفاجِئ، فرَّت دمعةٌ وحيدةٌ من عينها لتستند على تجاعيد وجهها تنتظر أن تُمحى، فمسحَتها بكفِّ يدِها. تنهَّدت في حسرةٍ ثم قالت إنقاذًا للحديث الذي احتدَّ بين ابنها وزوجته:

- جرى إيه يا ولاد! كله من «فريد» وسِيرة الأميرة! قومي يا «عليَّة» لأبنائك، بلا كلام فاضي..

تأففت «عليَّة» في سِرِّها، ثم قامت وقد تبدلت ملامحُها منذ اللحظة التي نعتها زوجُها بـ «السطحية»، ثم قالت:

- آه! ما أنا الحائط المائل! يرضيك يا نينه؟ لم ينهر «فريد» على ما فعله.. ويَصب غضبه عليَّ أنا!

***

لا تقرأ «عليَّة» الجرائد ولا تُتابع الأحداث من حولها كزوجها، ولكنها نشأت في بيتٍ وطنيٍّ مُحبٍّ للمَلك، ويَضع والدُها صورتَه في غُرفة مكتبه. تُدرك جيدًا أنها لن تستطيع الاحتدام مع زوجها أو رفع صوتها مثلما كانت تفعل في سابق عهدها. قد ولَّى زمنُ التدلُّل المفرط، وأحست أنها أصبحت كأبنائها، لها حدودٌ لا يجب أن تتخطاها مع «سيد» أبدًا، بل أحيانًا ما تشعر أنها أقلُّ منهم! لقد توقَّعت عدةَ مرات أن ينهر الأبُ ابنَه على ما حدث منه، لكنها لم تسمع سوى صوت الضحكات المتعالية!

بدأت تشعر بارتفاع حرارتها من النقاش المُرهِق الذي دار بينهما، وكأن رأسها تتصاعد منه أدخنةٌ من كلمات تبخَّرت بداخلها ولم تُنطق! مرت بغرفة أبنائها لتجد «فيفي» مُنكبةً فوق كراسها تذاكر، و«فهمي» بالشُّرفة تلاعبه «أم عثمان»، التي التفتت تنظر إليها وقد قرأت في وجهها الكثيرَ من الغضب.

فمنذ زواجها لم تر «أم عثمان» هذا القدْرَ من الأسى على وجه «عليَّة»، وكادت أن تقوم من مقعدها لتلحق بها، ولكن الزوجة دخلت إلى غُرفتها وأغلقت البابَ خلفها، وبدا كأنه قد كُتب عليه «ممنوع الدخول»! فأثاث البيوت وحوائطها تألَف الساكنين مع الوقت، تَضيق الغُرف وتتسع بقدْر ضيق النفوس أو راحتها. طلاء الحائط يَظهر بلون باهتٍ إذا ما اكتئب أهلُ البيت، بينما يبدو كأنه طلاءٌ جديدٌ في كل الأحداث السعيدة. وكذلك الأبواب، ولذا فقد أدرك بابُ الغُرفة أنها لا تريد أحدًا غيرَها بالداخل، منذ اللحظة التي أمسكت يدُها مِقبضَه، فشارَكها حالَها رافضًا اقتراب أحدهم!

ولا تعلم «عليَّة» سرَّ كآبتها المتزايدة مؤخَّرًا.. ما سِرُّ الملل الجاثم على أيامها.. وما سِرُّ الغيظ الذي تسلَّل

Visual Watermark

إليها بعد كلمات زوجها! لم تكترث يومًا لأي أحداث قد تحدث حولها في العالم، ومنذ اللحظة التي تزوجت فيها من «سيد»، أصبح هو عالمها بكل ما يحمله من محبة الوطن، وهو الفَلك الذي تسبح حوله، وإن اختلفت آراؤه عن والدها حول المَلِك وسياساته، ليست تَعنيها تلك التفاصيل.

أمسكت بقطعةٍ من القماش تُنظف بتوتُّر طربوش «سيد» من الوَبر العالق به والخيوط الصغيرة، ثم قالت تُحدِّث نفسها: «مكنش ليَّ حق برضُه».

شعرت بأنها أخطأت عندما عبّرت عن رأيها.. ربما زوجُها على حق.. هذا الرجل يأكل الجرائد بعينيه، تتغذى خلايا عقله على كلماتها. تُفكر في قرارة نفسها: مَن هي لكي يَصدُر منها رأيٌ أمامَ زوجها الذي يَشغله في كل لحظةٍ حالُ البلاد! إن أباها وعلى الرغم من صورته الوطنية في ذهنها، لا يهتم بالجرائد والأحداث الجارية مثلما يهتم بكُتبه العلمية وقراءاته في الأمور الأخرى.

وبينما هي بالغُرفة غارقةٌ في أفكارها ولومِها لنفسها، تسلَّل إلى مَسمعها صوتُ طَرَقاتٍ على باب البيت. خرجت بعد لحظاتٍ قليلة لتجد «عنايات» واقفةً في الصالة تُمازح زوجَها، ويضحك هو مِن قلبه! استشاطت غيْظًا، ومسحت بيدها بتوترٍ على شَعرها لترتيبه، ثم مشَت إليها بابتسامةٍ مُفتعَلة، لتُحيي الجارة:

- أهلًا يا أبلة «عنايات».

كانت «عنايات» لا تزال تضحك على شيء لا تعلمه «عليَّة»، التفتت إليها وقالت:

- متواخذنيش يا حبيبتي، أصل الوابور عندي عطلان، لم يمرَّ أيُّ منادٍ للتصليح، وأحتاج إلى الإبرة، لا أعلم أين ضاعت!

فقال «سيد»:

- يا نهار أبيض يا ست «عنايات»! ده بيتك.. الوابور كله لك..

ضحكت مرةً أُخرى بصوتٍ أعلى، ومالت بجسدها من فرط الضحك، بينما وقفت «عليَّة» تزمُّ شفتيْها وهي تحاول بكل قوة بداخلها أن تبتسم.. تُفكِّر باستياءٍ ما الطُّرفة التي قالها زوجُها تستحق هذا القدْرَ من الضحكات! ومكثت تتفحَّص المرأةَ من رأسها إلى أخمص قدميْها، وقد أوجعتها الغَيرةُ الشديدة. رأتها فاتنةً، ترتدي روبًا أزرق حريريًّا، يُظهر من بين فتحته -إذا ما تحركت يمينًا أو يَسارًا- ملابسَ البيت القصيرة المثيرة التي ترتديها، شَعرها مُهندَمٌ كأنها ستحضر سهرةَ الليلة! وتفوح رائحة الياسمين المنعش منها. دقَّقت «عليَّة» في ملامح جارتها، سرحت في تقاسيم وجهها الرفيع، وقد ارتسم أنفُها الصغير بدقَّةٍ إلهيةٍ فائقة، وبدت عيناها السوداوان لامعتيْن كعيون القطط في الظلام، وظهرت شفتاها الرفيعتان أكبرَ حجمًا ببراعة «عنايات» في تخطي مساحتها الضيقة بأحمر الشفاه، كما زيَّنت أسفل شفتيها شامةٌ كتلك التي كانت لدى أسمهان! وشعَّ وجهها بالنضارة، التي غابت عن وجه «عليَّة» مع الأيام. فاحتارت وتمتمت بحَنَقٍ في سِرِّها: «أي إبرةٍ تلك التي تسأل عنها! أمثاليةٌ في كل شيء إلى هذا الحد! تفهم «أبلة عنايات» في كل شيء؟ أتطبخ تلك المرأة بكامل أناقتها، وهي ربما قد أفرغَت على نفسها زجاجة كولونيا كاملة؟!»

أحضرت «أم عثمان» الإبرة من المطبخ، أخذتها «عنايات» وقالت وهي تخرج من البيت موجِّهةً كلماتها إلى «عليَّة»، وعينيها إلى «سيد»:

- فُتُكم بعافية.. ألَا صحيح، لَم تَمُرِّي عليَّ يا «عليَّة» منذ أسابيع، تعلمين.. الباب بالباب، وأنا وحدي أغلب الوقت..

ابتسمت لها «عليَّة» على مَضض، ثم أغلقت البابَ خلفَها ودخلت إلى المطبخ. وقفت شاردةً وأنظارُها نحوَ قِدْر الشوربة الذي يغلي على النار، لا ترى ما به، تَفور مثله روحُها من الغيظ، تضع يديها في خصرها وتُدبدب بقدمِها اليمنى على الأرض.. وقرأت «أم عثمان» كلَّ ما يدور بخَلدها، فابتسمت لها في صمت، ثم انهمكت تُحضر الأطباق للغداء.

***

«كيف لا يرحل هؤلاء؟!»

تساءل «عبد» وهو يُحدِّث جاره «سيد»؛ لقد قامت الحرب في فلسطين مع إسرائيل، وكانت مصر من الدول العربية التي قررت المشاركةَ في الحرب دفاعًا عن الأراضي الفلسطينية، ضد العدوان الصهيوني

Visual Watermark

بمساعدة الغَرب ومباركتهم. يكره «عيد» اليهودَ ويَصفهم دائمًا بقوله: «اللي ما يتسموا».. وانشغل باله مؤخرًا -هو وأغلب المصريين- بالحرب التي بدأت منذ شهرين، وتصدَّرت أخبارُها كلَّ عناوين الصحف المصرية. وكان «عيد» قد قرر زيارةَ جاره تاركًا زوجتَه وأبناءه ليُمضوا اليومَ عند حَماته، كما انضم إليهم «صابر» وزوجتُه «فايزة» لتَهنئتهم بعيد الفطر.

اجتمع الأزواج بغرفة الضيوف ببيت «سيد»، وحضرت من بعدهم «عنايات» وزوجها. وظلَّ باب الشقة الخاص بغُرفة الضيوف مواربًا لتُرحب «عليَّة» بالزائرين. وكان تساؤل «عيد» عن اليهود، لرفضه بقاءهم في مصر، ومنهم جارهم «ناحوم».

تدخلت «عنايات» مقاطِعةً «عيد» لتقول:

- لا، ملكش حق يا «عيد» أفندي.. لقد جئنا إلى هذه الدنيا وهم حولنا، أتذكَّر أن صديقة أمي الوحيدة -رحمها الله- كانت يهودية، لقد وُلدتُ على يدها. غير أن أُسرة «ناحوم» طيبون للغاية، أنت بنفسك تُعاملهم بكل محبة واحترام..

وأيَّدت «عليَّة» كلامَ جارتها:

- ومين سمعك يا أبلة «عنايات».. أنا كانت أقرب مُدرسة لقلبي في المدرسة هي أبلة «نعيمة»، الله يمسيها بالخير، وكانت يهودية. وبعدين يا جماعة منذ متى ونحن نتحدث بهذه اللهجة؟ لعنةُ الله على الحروب التي تُشتِّت شَملنا! نحن جميعًا مصريون، أنا وأنت و«ناحوم» وأي يهودي يعيش هنا.

ضحك «عيد» باستهزاء مُستتِر، وأخرج علبة سجائره والكبريت ليُشعل سيجارة.. خاصةً بعد أن نفثت «عنايات» دخان سيجارتها في وجهه بتحدٍّ، وقال:

- نحن جميعًا مصريون؟ بكرة أفكركم، وهم راحلون في أول حنطور بهلاهيلهم على إسرائيل المزعومة. وعلى العموم.. أنا لا أُحبهم لله في لله، وربيت أبنائي على أن اليهود لا مكانَ لهم بيننا.

نظر للجميع وهو يُردف ويَشرح بيده، وقال بصوت منخفض:

- لقد عُرفوا على مدار التاريخ بأسوأ الأمور التي يأبى العقل أن يُصدقها! تعلمون جميعًا تلك القصة طبعًا عن «فِرية الدم»! وألَّا يقترب الصغار من أي تجمُّعٍ لليهود حتى لا يُختَطف ويُذبَح، ليَعجنوا بعدها بدمائه فطائرهم..

خرجت ضحكةٌ رقيعةٌ من «عنايات»، دوَّى صداها في العمارة بأكملها، وقالت:

- وهل تُصدِّق أنتَ تلك الأسطورة؟ شكلك تذهب إلى السينما كثيرًا يا «عيد» أفندي، من ورانا..

فتدخَّل «سيد» قائلًا بجدية، بعد أن تَفكَّر لثوانٍ في كلام «عيد»:

- كل شيء وارد الحدوث إلَّا هذا يا «عيد». أنا في الحقيقة لم أَقُل يومًا لأبنائي هذا الكلام. ولكنني سمعت عن ظاهرة اختفاء الأطفال قُرب احتفالات اليهود.. لكنها مجرد أسطورة.. هذا لا يعني أنني لا أحترم «ناحوم» وأسرته، هم نِعم الجيران، وهم مصريون. ولكن يا أخي الموضوع شائك في مُجمَله، فأغلب اليهود شعوب بلا وطن، في قرارة أنفسهم يحملون الكثير من المآسي، وخاصةً بعدما حدث لهم على يد «هتلر» في الحرب العالمية الثانية. أعتقد أن الأمر زادهم غيظًا دفينًا، وليس رحمةً، وهو أمرٌ مُخيف. نحن لا نعلم ما يدور بأذهانهم..

قال «صابر» لـ «عيد» ممازِحًا:

- أنت بس لأنك إخواني زيادة عن اللزوم يا «عيد»، لذا تُروِّج لتلك الشائعات!

تجاهَل «عيد» كلمات «صابر»، وقد أغاظه ما استنبطه من معانٍ، ثم قال مُعلِّقًا على كلمات «سيد»:

- مُرَّ بحارة اليهود هنا ببورسعيد، لتعلم ما يدور بأذهانهم. لو عليهم، سيطردوننا نحن! في كل بلد وكل محافظة يتجمعون كخلايا النحل لإنشاء مُستعمرة. الفِكر الاستعماري يَجري في عروقهم جَريَ الدماء، واللهُ أعلم ما الذي قذف بـ «ناحوم» بعيدًا عن الحارة..

فقالت «عنايات» باستهزاء:

- أمَّا خيالك واسع بشكل! يكون في معلومك: أغلب أغنياء بلدك من اليهود، وحُثالتهم القِلة القليلة هم الذين يتجمعون في الحارات.

Visual Watermark

وقال «سيد»، وقد كان مُصغيًا تمامَ الإصغاء يُفكر:

- على الرغم من اختلافي معك يا «عيد»، على الأقل فيما يَخص يهود مصر، إلا إنني أحيانًا أُفكر: تُرى عندما تُغلَق عليهم أبوابُهم، هل يَشعرون تجاهنا بمشاعر طيبة؟ إنني أعرف أن التلمود يُحقِّر كلَّ الأرواح غير اليهودية، وكأن باقي البَشر من دونهم أقل من الحيوانات، بل ويعتبر غيرَ اليهودي بلا قيمة ولا يستحق الحياة..

ولم يكَد «سيد» يُكمل كلمته الأخيرة، حتى سمِعَ الجميعُ همهمةَ «ناحوم» وزوجتَه وهما يصعدان السلم إلى بيته. ابتسم الجيران في توتر فورَ دخولهما وإلقاء التحية، وقدَّمت «مارسيل» طبقًا صغيرًا من الكعك إلى «عليَّة»، التي شكرتها، ونظرت تُدقِّق بالكعك وهي تُفكِّر في الأسطورة التي سمعتُها للتو!

وجلسوا جميعًا يحتسون الشاي الذي أحضرته «أم عثمان»، وقد تغيَّر الحديث ليصير -بين الرجال- عن أحوال بورسعيد، ووصفات الطعام من «فايزة» إلى «مارسيل» و«عليَّة»، وفي مقابلها أنواع الأقمشة الحديثة ووصفات منزلية للعناية بالبَشرة من «عنايات».

اعتاد أكثرُ سُكان العمارة التجمعَ ببيت «سيد» بعد المغرب في ثاني أيام العيد من كل عام، مخصصين اليوم الأول لعائلاتهم وأقاربهم. وفُتحت نوافذ شُرفة الضيوف على مصراعيها لتدخل نسمةُ هواءِ شهر يوليو الصيفية، وقد حملت معها أصواتَ الأطفال الآتية من الشارع، صراخهم المرِح وألعاب المُفرقَعات. وكان «سيد» شديد الحرص ألَّا يمكث أبناؤه في البيت في أثناء هذا التجمع، حتى لا يحرج الزائرين بتقديم العيديات للصِّغار.

ووقف الأطفال أمام المدخل في الشارع يُلقون المفرقعات بفرَح ويتباهون بالملابس الجديدة التي فُصِّلَت لهم، وقال «فريد» لـ «حسين»:

- لقد جمعتُ اليوم خمسةَ عشر قِرشًا عيدية، وتخيَّل.. عندما زُرنا بيت جدي بالأمس، خالي وحده منحني عشرةَ قروش!

برقت عينا «حسين» ليقول في ذهول:

- ياه! عشرة قروش مرة واحدة! سلِّفني خالَك هذا! ماذا يعمل؟

فضحك «فريد» وهو يلقي واحدةً من البومب على المارَّة، قائلًا:

- لا أعرف، يعيش هو وأُسرته في دمياط.

وسرح خيال «فريد» مع سؤال جاره عن عمل خاله، تساءَل: متى يكبر سريعًا ليَجني الكثير من الأموال ويمتلك سيارته الخاصة مثل الفورد التي مرَّت لتوها من أمامه؟ كان طموح «فريد» يختلف عن أغلب أبناء جِيله، دائمًا ما يَحلم لو أنه يَملك الكثير من الأموال ليشتري بها كلَّ ما يريد. وكلُّ ما يريده ليس كأحلام طفلٍ يبلغ ثمانية أعوام، ليس الكثير من الحلوى أو الملابس، بل إنه تمنَّى في زيارته الأخيرة مع أُمه لصيدناوي بأن يَملك كلَّ المحل، بما فيه من ملابس وأقمشة!

***

ربما تأخر «سيد» قليلًا في شراء راديو على الرغم من إلحاح «عليَّة» عليه، فقرر في شتاء ١٩٤٩ أن يُفاجئ أهلَ بيته بعد عودته من العمل وهو يَحمل جهاز الراديو.

وفور أن فتحت زوجتُه البابَ صاحت بسعادة، وعانقت زوجَها الذي لبَّى رغبتَها أخيرًا، والتفَّ الجميعُ حول الراديو بعد الغداء، وقد بدا «سيد» كأنه «غوليلمو ماركوني» بنفسه وهو يتنقل بين المحطات بلفِّ البكرة، يُحاول ضبط الإرسال، وكلَّما تدخل أحدٌ من أبنائه للمس الراديو، أبعد يدَه بضربةٍ خفيفة! وأضفى وجودُ الراديو على البيت أجواءً جديدةً ومرِحة.

اختار له «سيد» مكانًا فوق مِنضدة خشبية مرتفعة، ووضع كرسيًّا بجانبه، ثم قال لأبنائه مُنبِّهًا: «هذا كرسي بابا.. يُمنع الجلوس عليه»، فأومؤوا برؤوسهم. وإذا ما أرادوا الاستماع إلى الراديو، يَفترشون الأرض ليُنصِتوا إلى فقراته المختلفة من مسلسلات وإعلانات وفوازير.

وكانت «عليَّة» ترفع صوتَه في فترة الظهيرة ليُسلِّيها عندما تقف في المطبخ لمتابعة تحضير الطعام مع «أم عثمان». غير أن «فهمي» الذي أتم عامه الخامس منذ أربعة أشهر، كان طفلًا فضوليًّا للغاية، وراودته مشاعرُ غريبة تجاه هذا المذياع الذي تَخرج منه أصواتٌ مختلفة، فاستغل أن جدته ضريرة، ووالدته مشغولة

Visual Watermark

بالداخل، وقرر حملَ الراديو الثقيل ليتفحَّصه. حاول عبثًا أن يرُجَّه، ظنًّا منه أنه ربما سيسقط منه الأشخاصُ المختبئون بداخله! ولكن يديه الصغيرتين لم تتحمَّلا حجمَه وثقلَه، فأفلت الراديو منه ليسقط على الأرض فاقِدًا النُّطق!

فصرخت الجدة «آمنة»:

- يا ولد! ماذا فعلت؟

لتخرج «عليَّة» على صوتها، وتصرخ هي الأُخرى بدورها بصوتٍ أعلى، ويركض «فهمي» وقد أصابه ذُعرٌ ممَّا سيُلاقيه، فدخل واختبأ تحت سرير أبويه. حاولت «عليَّة» إصلاحَ المذياع، فخرجت الأصواتُ منه كأشباحٍ تُغَنِي بلهجةٍ غيرِ مفهومة. وبعد أن فقدت الأملَ نظرت حولها، توعَّدت الصغيرَ بالضرب، وهي تبحث عنه في كل أرجاء البيت.

وعندما عاد «سيد» من عمله، وعرف بما فعله الابنُ الصغير، وبَّخه وقرر عِقابه بالحرمان من ألعابه. ثم أخذ الراديو لتصليحه، وأعاده بعد ذلك بأيام قليلة.

يومَها أوقف أبناءه في طابورٍ عسكريٍّ، وبدأ تهديدَه الصارم، وهو يُوَجه نظراته إلى «فهمي» الذي ارتعد وتضاءَل خوفًا، قائلًا:

«أصلحتُ الراديو، مَن سيقترب منه مرةً أُخرى، فلا يلومَنَّ إلَّا نفسَه!»

***

مرَّ عامٌ على انتهاء حرب فلسطين وإعلانِ الدولة الإسرائيلية، ليُعلن «ناحوم» وأسرتُه الرحيلَ، كما تمنَّى «عيد» من قبلُ.

لقد قرر بعضُ اليهود بالفعل الهِجرةَ من مصر إلى إسرائيل بعد حرب ٤٨، إلا أن «ناحوم» قرَّر الرحيلَ طواعيةً، ليس إلى بلده الجديد، وإنما ليُهاجر إلى أبناء عُمومته في أوروبا، ولم يكن قراره هذا بين ليلةٍ وضُحاها، فقد شعر الكثيرُ من يهود مصر بالقلق والخوف خاصةً بعد أحداث العنف التي حدثت في عام ١٩٤٥ في ذِكرى وعد بلفور. وكان الحادث مُدبَّرًا من «الإخوان المسلمين» في بادئ الأمر، ومِن بعده زُجَّ بأطيافٍ مختلفة من عموم الشعب ليَخرجوا في مسيرات عديدة بمصر، في احتجاجاتٍ مناهِضةٍ لليهود ومُطالِبةٍ بضرورةِ رحيلهم من مصر. وقبل سفره بليلة واحدة، طَرَق أبوابَ جيرانه يُخبرهم بقراره ويوَدِّعهم. وقد أبدا الجميعُ تأثرَهم لرحيل جارهم الذي ألِفوه لسنوات طوال، كما تأثَّر «صابر» بهذا الخبر، وظهرت على وجهه ملامحُ الأسف، واحتضن «ناحوم» بصدقٍ فدمعت عيناه، وأبلغه «ناحوم» أن ابنه سيتزوج وسيأتي بزوجته للإقامة في البيت، فقد قرر استكمال حياته في مصر، وإدارةَ البقالة بدلًا منه هو وإخوانه الذين قرروا السفر أيضًا. وسمع «حسين» الحديثَ بين والده وجاره، فركض إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، وقد انهمرت دموعه حُزنًا على رحيل محبوبته «عديلة»، التي لا تعلم شيئًا عمَّا يشعر به تجاهها. ودَفن رأسه في الوسادة وهو يبكي، حتى لا يصِل صوتُ نحيبِه إلى أبويه، ثم قام ومسح وجهه، وقرر أن يكتب لها رسالةً لن تصِل إليها أبدًا!

***

Visual Watermark

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الثالث

«نحن عِميان!»

قالها «صابر» لـ «سيد» وهما يجلسان على قهوة البمبوطي على ناصية شارعهم، ومعهما بعض جيرانهم من العمارات المجاورة. ولعلوِّ صوته، شعر الرجال الجالسون بالفضول، فسحبوا كراسيهم وشيَشهم من أمام طاولاتهم وانضموا إلى طاولة «سيد» وجاره ليستمعوا. فقد استشاط «صابر» غضبًا من تبِعات حرب فلسطين، والأسلحة الفاسدة التي أتى بها المَلك إلى مصر. وكان سبب حنقه المَقالةَ التي توضِّح صفقةَ الأسلحة الفاسدة في مجلة روز اليوسف، والتي سرعان ما أصبحت هي الشغل الشاغل للرأي العام.

قال «صابر» بمرارة وغضب:

– ما حدث لنا، خيانة! لقد خاننا الملك وحاشيتُه.. بيستعبانا جلالة المَلك! فاكرنا كروديا؟ دفع أموالًا طائلةً للغرب ليُحضر لنا قيامةً من الأسلحة! على كيفه يُوزع الأموال حيث يشاء، وكأنها من جيب أبوه! ونحن هنا نعاني الأسعار التي ترتفع، وجشعَ التجار الذي لم يتوقف في السنوات الأخيرة. حتى الجاز، لا نحصل عليه سوى بالكوبونات! بُكرة سنحصل على رغيف العيش بكوبون! وربما ستُفرض الضرائب على مَن سيصطاد سمكةً من بَحر بورسعيد! لكُم أن تتخيلوا مثلًا أنهم قاموا بشراء القنبلة الواحدة بـ ٧٥٠ مليم! ٧٥٠ مليمًا يا عالَم! لكنها قنابل لا تُنافِس حتى بومب العيد، وقنابلنا نحن المَحلية ربما تفوقها قوةً وسِعرها لا يتعدَّى الـ ٣٥٠ مليم! دفَعَ ملايين في هُراء.. المَلك وأعوانه كانوا يعلمون أن جنودنا سيُحارِبون بأسلحة خيخة من بقايا الحروب! إلى متى سيظل هذا الشعب صامتًا هكذا يغضُّ البصرَ عن الخَيبات الثقيلة!

قاطعه أحدُ الرجال ضاحكًا:

– والله عندك حق في كل كلمة! ده إحنا لو كنا حاربنا بالنبلة لكان أشرفَ لنا..

ثم تدخَّل «سيد» مُعلِّقًا على كلمات جاره:

– ومَن قال لك إننا صامتون يا «صابر»! مثلما نتكلم نحن هنا، يتكلم الجميعُ في كل مكان. الكلُّ معترِض وغاضبٌ من حال البلد وسيطرةِ الإنجليز وضَعفِ شخصية المَلك. ولكن ما باليد حِيلة! والصوت إن ارتفع، يَخاف أن تُسكِته أسوارُ السجون التي تمتلئ بالمُعارضين!

تفاعَل معهم صبيُّ القهوة الذي أتى ليأخذ أكواب الشاي الفارغة، ويضعَ الممتلئةَ تفوح منها رائحةُ النعناع، قائلًا:

– طيب ولِماذا لا نثور على الظلم يا «سيد» أفندي؟ رجال بورسعيد وحدها قادرةٌ على ذلك، ما بالك بكل محافظات المحروسة؟

فقاطعه أحدُ الجالسين الذين كانوا يُصغون بملء آذانهم، ساخِرًا:

– قال لك نثور عالظلم! موت يا حمار!

***

لم يَكد العالَم يَلفظ أنفاسَه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ويُلملم بقاياه من ضحايا وخسائر من البَشر والأوطان. وما بعده من حرب فلسطين التي بثَّت مشاعر الخزي بين المصريين والعرب، خاصةً بعد فضْح أسرار صفقة الأسلحة الفاسدة، ليُنشر في الأول من يوليو عام ١٩٥٠ خبرٌ في عمودٍ صغيرٍ في قلب الصفحة الأولى في أخبار اليوم، عن تنبؤ الفيلسوف والسياسي الإنجليزي برتراند راسل بوقوع حربٍ عالميةٍ ثالثةٍ ستبدؤها روسيا. ربما كان انطباعه هذا، بعدما تسربت أنباءُ امتلاك روسيا للقنبلة الذرية منذ ١٩٤٧، وقد تعرَّف العالَم على حَجم دمارها بعد كارثة هيروشيما ونكازاكي بالحرب العالمية الثانية على يد الأمريكان.

وناقش «سيد» هذا الخبر مع أهل بيته حينما اجتمعوا لتناول الغداء، وانهمك الجميع بأكل، وهم يستمعون بلا اكتراثٍ لكلمات الأب، عدا «فريد» الذي أصغى باهتمام لكلمات أبيه، ثم قال:

Visual Watermark

- يعني لو ألقيت يا بابا قنبلةً على بور سعيد، ستُحدِث دمارًا كبيرًا؟

فضحك الأب وقال بعدنا ابتلع طعامه الذي امتلأ به فمُه:

- ساعتها لا هيكون فيه بور سعيد ولا دياولو! قوة قنبلة ذرية واحدة تمحونا من على الخريطة يا «فريد»!

فغرَ «فريد» فاهُ في ذهول، وقالت «آمنة» في هدوء:

- بلاها قنابل وأحاديث تسدُّ النَّفس عن الأكل يا «سيد»!

وعلَّقت «عليَّة» مؤيدةً كلامها:

- قولي له يا نينه..

لم يكن هذا هو الخبر الوحيد اللافت للنظر في الصحف، فقد بدت العناوين في كل الصحف المصرية تترقب الحروب وتستعد لها. ويتوه «سيد» عندما يقرأ الجرائد بين مَن سيحارِب مَن، ومَن سيتحالف مع مَن! لقد شنَّت مصر وحلفاؤها، الأردن وسوريا وغيرها من الدول العربية، الحربَ على إسرائيل منذ عامين، وانتهت الحربُ بإعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. رُفع عَلمها المرسوم بالحبر الأزرق وأعلنَ الفشلَ الاستراتيجيَّ للجامعة العربية. كما أن الحرب الباردة بين القوتين العظمتَيْن، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، بدأت تَلوح في الأُفق لتسيطر مجرياتها على الصحف. وانشغل بال «سيد» بما يحدث في العالم بأسره، وخاصةً فلسطين، وما لقيَه شَعبُها من ظلم واستعبادٍ وإبادة. فقد أصبحت قضيتها تنبض في قلب كلِّ مصري، وتُتابع الصحف المصرية الأخبارَ المؤسفة أولًا بأول، هذا لأن مصر هي قلب العالَم، وكلُّ قرارٍ مَصيري حتمًا ستُصبح طرَفًا فيه. وبينما كان «سيد» يراقب من كَثَبٍ كلَّ الأحداث الحالية والتنبؤ بما سيحمله المستقبل، وقفت «عليَّة» بجانب الخيَّاطة أمام باب بيت «عنايات»، تُراقِب ما ترتديه جارتُها التي فتحت بابَها بترحابها المعتاد. تصنَّعت أنها تريد أن تُعرِّف خياطتها الخاصةَ عليها، علَّها تحتاج إليها..

دعتها «عنايات» إلى الداخل، فدخلتا وجلستا بغرفة الضيوف، وهمست الخيَّاطة في أُذن «عليَّة»:

- يا نهاري! دي ولا بنت العشرين يا ست «عليَّة»!

خبطتها «عليَّة» في كتفها خوفًا من أن تسمعها «عنايات»، التي دخلت لتُحضر زجاجات الكازوزة لضيوفها. وعادت لتقديمها لهما، ثم جلست واضعةً ساقًا فوق الأُخرَى، وأشعلت سيجارتها. وكانت «عليَّة» قد اتصلت بوالدتها منذ عدة أيام لتُخبرها بأنها تحتاج إلى «زينب» الخيَّاطة في أسرع وقت، وعندما جاءتها «زينب»، حكت لها عن قمصان نوم «عنايات» الرائعة بتفصيلاتها المثيرة، وأكدت لها «زينب» أنها من نظرةٍ واحدةٍ لأي قميص ترتديه جارتُها، ستستطيع في أقل من يومين أن تُفصِّل لها مثلَه، بل أفضلَ منه.

قالت الخيَّاطة بعد أن ارتشفت الكازوزة، بصوتٍ مرتفع:

- وأنتِ يا مدام.. مَن الذي يُفصِّل لك؟

فضحكت «عنايات»:

- لا، لا، أنا لا أتحمل التفصيل ولا أُحبه، أنا أغلب ملابسي تأتي من أوروبا.

ثم نظرت إلى «عليَّة» وهي تُردف:

- تعلمين يا «عليَّة»، بحُكم عمل «أمين» بالقنال، يَعرف العديد من التجار..

مررت يدها على فخذها وهي تتحسَّس خامةَ قميصها الحريريَّ المُلتصق بجسدها، وهي تقول:

- الخيَّاطة لن تصنع شيئًا مضبوطًا على جسدي كهذا.

انفعلت «زينب» لتردَّ عليها بحِدَّة:

- وهو القميص الذي ترتدينه نزل على أوروبا من السماء لكِ خصوصًا؟ ما هو في النهاية تفصيل يا هانم..

ابتسمت «عنايات» بثقةٍ مبالِغة لتقول:

- أبدًا.. أنتِ مثلًا، هل تستطيعين أن تُفصِّلي للست «عليَّة» دون أخذ مقاساتها؟ صدر وبطن وطول وعرض وغيره؟ من أوروبا يأتي مقاسي مضبوطًا من غير قياس، وبلا همٍّ الخيَّاطة والبروفات. الحياة أصبحت أسرع من أن تَضيع في كل هذا.. نحن سنة ٥٠ يا «زينب»! ألَا ترَيْن فترينات المحلات الآن

Visual Watermark

أغلبها ملابس جاهزة؟ ولكنني أحب ارتداء أحدث الصيحات، لذا أفضّل شراءها وارد الخارج.. بلا هَم..

- لا بقى.. ما هو أصل الخيَّاطة..

كادت «زينب» تنفجر في وجه «عنايات»، إلَّا أن «عليَّة» خبطتها بقبضة يدها في كتفها مرةً أخرى، وقررت بعد لحظات أن تسحبها وترحل بها. وصحبتها «عنايات» إلى الباب ثم قالت بكيْد مُستتر:

- فُرصة سعيدة يا «زينب»، خلينا نشوفك..

وعندما عادت «عليَّة» إلى بيتها، سألت الخيَّاطة بحماس:

- هاه؟ أخدتي بالِك من قميصها؟

فصفعتها كلمات «زينب»:

- حرقت لي دمي، البعيدة، ولم أنتبه جيدًا.. هو كان لونه إيه؟

***

بلغ «فريد» الحادية عشرة من عُمره، وأنهى المرحلة الابتدائية بتفوُّق اعتاده منذ البداية، وكان من الأوائل في مدرسته فكرَّمه جدُّه أمامَ الطلبة بالمدرسة بمَنحه شهادةَ التفوُّق، كما كرَّمه في احتفالٍ عائلي واشترى له بدلتين. وغمرت «فريد» الفرحةَ وابتهج من إطراء الجميع له. كما أعطاه والده عشرين قِرشًا، فلم يُصدِّق نفسَه!

أما «فيفي» فقد أصرت ألَّا تصبح كأخيها في تحصيل العلم، على الرغم من أنها عادةً ما تُمضي أكثرَ ساعات يومها وهي تسترجع دروسها. ولم تكن تشعر بالضيق كونها بالكاد تَحصل على درجات النجاح، كانت أقصى أحلام «فيفي» في السابق هو الجلوس في الشُّرفة ومتابعة المارَّة بالشارع، أما الآن فأصبحت عيناها بدلًا من أن تنظر إلى أسفل، تتطلع إلى النجوم، فصارت تحلم لو أنها نجمةٌ كـ «فيروز» التي ظهرت على شاشات السينما منذ عام، بفيلمها «ياسمين». وتمنت «فيفي» أن تصير بطلةً لفيلم سينمائي، بعد أن رأت المُلصق الضخم المعلَّق بسينما ماجستيك لفيلم «فيروز هانم» وبه صورها بأحجام مختلفة وهي ترتدي جلبابًا وعمامةً وتحمل عصا بيديها الاثنتين فوق رأسها، وقد كُتب فوق الصورة: «الطفلة المعجزة ياسمين تعود إليكم في فيلم جديد». وعادت حينها لتطلب بإلحاح من والديها دخولَ الفيلم؛ تجاهَل «سيد» طلبَها هذا وهو يقرأ جريدته، بينما رفضت «عليَّة» قائلةً: «بلا دلع بنات..»

فانزعجت «فيفي» من التغيُّر الذي طرأ على والدتها، وندمت على المرات التي أمضتها نائمةً في حضن أُمها عندما كانت ترافقها لمشاهدة الأفلام! وقد لاحظت عزوف الوالدين مع مرور الأيام عن الذهاب إلى السينما.

دخلت الغرفة وألقت حقيبةَ المدرسة بضيق، ثم ارتمت فوق السرير لتسرح في السقف، واخترقته نظراتُها لتُحلِّق بعيدًا. صار خيالُها جامحًا، وقد رأت في صورة «فيروز» تلك رسالات عدةً وُجِّهت لعقلها الصغير. تمنَّت لو ترتدي جلبابًا وعمامةً مثلها، وشعرت أنها بقوة أخيها وأبيها، وأن الفتيات لا يختلفن عن الرجال في شيء. لِمَ لا ترتدي بِنطالًا مثل أخيها؟ ولِمَ كل ملابسها فساتين!

قررت «فيفي» ذات يوم أن ترتدي طربوش «فريد» خلسةً وتنظر إلى نفسها في المرآة، ضحكت على شكلها، ثم ابتسمت في ثقةٍ بعد أن سرَحَت في ملامح وجهها، وكأنها تُحدِّث نفسَها بأنها تستطيع أن ترتدي ما تُريد، مثلها مثل فيروز. وعلى الرغم من احترامها لوالديها وعدم رفع عينيها فيهما، إلا أن جموحها بدأ يظهر خفيًّا في معاملاتها، خاصةً مع إخوانها، وبدأت تُحكم سيطرتَها على «فهمي» الصغير، تأمره بلهجة حازمة أن يُذاكر دروسَه، وتنهره إذا ما أراد اللعب. وقد أُعجب الوالدان بسلوكها الجديد مع أخيها وهما لا يعلمان ما خلفه. كما أصبحت تحتدُّ على أخيها الأكبر، فلم تَعد تخاف منه مثلما كانت من قبل، فصارت إذا صرخ فيها وأمرها بالدخول حين يتحدث مع الجيران من أقرانه، تنظر في عينيه بتحدٍّ وتقول: «وأنتَ مالَك!» فيصيح لينادي والدته لتنهرها. كما قررت بأنها لن تجعل أحدًا من اليوم وصاعدًا يختار لها ما سترتديه من الدولاب كما اعتادت، على الرغم من أن أبويها هما مَن يشتريان أو يُفصِّلان لها فساتينها، فعلى الأقل من حقِّها أن تختار هي مما فُرض عليها من ذوقهما! أما حُلمها بالتمثيل، فكان يتجلَّى عندما تستمع إلى فقرات الراديو ومسلسلاته وتتخيَّل نفسَها إحدى البطلات. وكانت كلما انفردت بنفسها، تخترع قِصصًا

Visual Watermark

من خيالها وتُحدِّث نفسَها كأنها بطلة الفيلم، وتُغيِّر نبرةَ صوتها ولهجتَها لتقوم بدَورِ باقي الأبطال أيضًا؛ فهي الشريرة والضحية، وهي السارِق والضابط، سيدةُ القَصر، والخادمة، هي القِطة الجائعة التي تبحث عن بقايا الطعام في الأزِقَّة، وهي الشجرة التي يَختفي خلف جِذعها طعامُ القطة! هي الطفلةُ والعجوزُ والرجلُ والمرأة.

بل ونجحت أمام جمهورها، من حوائط الغرفة وسريرها، عندما استطاعت بمهارةٍ فائقةٍ أداءَ دَور تراجيدي قامت هي بتأليفه، وقد انهارت تبكي بدموعٍ غزيرةٍ على أبويها اللذَيْن ماتا في حكايتها الخيالية تلك، وصارت بعدهما بلا مأوى! كان مَشهدًا دراميًّا مُبهِرًا، وخُيِّل إليها أنها تسمع تصفيق محافظة بورسعيد بكلِّ فاطنيها!

اتخذت «فيفي» قرارَها، فإذا كان أخوها هو نابغةُ العائلة في العِلم، فإنها ستصير يومًا ما مثلَ فيروز.. مُعجِزة!

***

لم تَصدُق كلماتِ ذلك الرجل القابع على القهوة يلعب الطاولة ليلَ نهار، عندما قال منذ عدة أشهر مستهزئًا بالصبي: «موت يا حمار!»

لقد باءَت كلُّ المفاوَضات التي قام بها رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا مع الإنجليز بالفشل الذريع. فشلت كلُّ المساعي لجلاء الاحتلال عن مصر، وأُلغِيَت معاهدة ١٩٣٦ التي كانت تنصُّ على صداقةٍ كاذبةٍ بين المصريين والاحتلال البريطاني. فانتفض الوطن، ثار الشعب المصري على الظلم، ثار في صمت، صمتٍ دالٍّ على نفاد الكلمات من الأفواه! تحالفت القوى الوطنية باختلاف أطيافها وانطلقت في مظاهرةٍ عُظمى، وصفتها جريدةُ الأهرام بالعنوان العريض في صفحتها الأولى: «أكثر من مليون يشتركون في أكبر مظاهرةٍ شَهدتْها مصر».

قرأ «سيد» العنوان بصوتٍ عالٍ وسعادةٍ جمَّة. أخيرًا انتفض الشعبُ اعتراضًا، وخرجَ الرجال والنساء والأطفال إلى ميدان الإسماعيلية في الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩٥١ ليُطالبوا برحيل الاحتلال البريطاني عن مصر. كما أرادوا بتلك المَسيرة تخليدَ ذِكرى شُهداء الوطن وفِدائيه. لقد تكاتف الشعب المصري والتحمت كلُّ فئاته، وسارت المسيرةُ الضخمةُ صامتةً، لا صوت فيها حتى وصلت إلى قَصر عابدين. كما نزلت مسيراتٌ مؤيدةٌ في كل المحافظات لتُندد بالاحتلال وتُطالب بالاستقلال.

وفي بورسعيد، انضم «فريد» لمسيرةٍ مرَّت من أمام مدرسته، بعد انتهاء اليوم الدراسي. وهو لا يعلم شيئًا عن مَطالبها، ولكنه وجد نفسَه جزءًا منها، مُنصهِرًا فيها. ورفع رأسه ينظر خلفه إلى اليافطة التي حملها المتظاهرون عاليًا وقد كُتب عليها: «المسجونون والسياسيون يتمنون لقاءَ الإنجليز في القنال». وفي لحظةٍ وبينما عيناه مُعلَّقتان باليافطة تَفحصُها، أحسَّ بيَدٍ تَجذبه بقوةٍ من بين الجموع، التفتَ ليرَى جدَّه الذي سحبه خارج الجمع. أخذه في صمتٍ كصمت مئات المتظاهرين، عائدًا به إلى البيت، ثم أمره أن يدخل غرفته. ارتعد الحفيدُ وهو لا يعلم ما الخطأ الذي ارتكبَه، ثم اقترب بأُذنه من باب الغرفة يحاول أن يسترِقَ السمع إلى الحديث الدائر بين أبيه وجده. كان الجدُّ يُحذِّر «سيد» من أن ينخرط «فريد» في الأحداث السياسية في هذا السنِّ الصغير، وهو ما قد يُشتِّته عن دراسته، ثم أردف مُحذِّرًا:

- أظنك لا تودُّ أن تجد ابنك ذات يوم مُعارِضًا سياسيًّا يُزَجُّ به في السجون ككثيرٍ من الشباب الذين ضاعت حياتُهم وانهارت طموحاتهم! لقد أراد اللهُ أن أُصادفه اليومَ وأسحبه من بين هؤلاء إنقاذًا له.. فهذه المسيرات تمتلئ بالكثيرين الذين يَسعون إلى استدراج صِغار السن في خلاياهم السِّرِّية.. وابننا في غنًى عن كل هذا.

تعجب «سيد» لأنه لم يلحظ من قبلُ اهتمامَ ابنه بأيِّ أمرٍ سياسي، وشعر بانشراحٍ في صدره.. ثم خالَف الجدَّ في رأيه قائلًا:

- مع كلِّ احترامي لك يا عمي، لكنني أرى أن الدفاع عن الوطن يفوق أهميةَ أي دراسة أو تحصيلٍ عِلمي. وابني إن طَلب في الغد أن يَحمل سلاحًا ليُحارِب به، سأكون أولَ المُرحبين. فحمل السلاح كحَمل الكُتب، بل أشدُّ كرامةً، إذا ما احتاجت إلينا مصر.. وأظنك لا تختلف معي في هذا الأمر. لقد أشدتَ مِرارًا من قبلُ بدَور والدي الذي استُشهد في ثورة ١٩، وأسميتني حينها «ابنَ البطل».. هل تُبدِّل الآن رأيك؟

ازداد حَنقُ «حافظ» من كلمات «سيد»، وقام ليرحل من غرفة الضيوف مُعترِضًا دون أن يُحيي ابنته. وودَّ

Visual Watermark

لو أنه يملك الحقّ في أخذ «فريد» من سَطوة أبيه، فقد مَنح له إحساسًا قد افتقده مع ابنه «عادل»، التفوق العلمي، ولا يريد لأي شيء ولا لأي أحدٍ أن يُعيق طريقَ حفيدِه نحو النبوغ العِلميّ، ويُبدِّد حُلمه!

حزنت «عليَّة» على ما دار بين زوجها وأبيها، خاصةً أنها المرة الأولى منذ زواجها التي تشعر فيها بأن هناك خلافًا بينهما.. واقتربت من «سيد» تُعاتبه بهدوء، فانفجر فيها قائلًا:

- أرى أن أباكِ قد نسي أنني أنا والد «فريد»! لقد سمحتُ له في كل السنوات السابقة أن يُشكل شخصيةَ ابني كيفما شاء، ولكن عندما يُقرر ابني أن يفعل الصواب بفطرته، لن أسمح لكائنٍ مَن كان أن يتدخَّل في هذا الأمر..

تجمدت الكلماتُ في فم «عليَّة»، لم تكُن تتوقَّع ردًّا كهذا من زوجها، فقامت لترحل بهدوءٍ من أمامِه. أمَّا «فريد» فقد وصل إليه مضمون الحوار، وشعر بالتشتت بين مَثله الأعلى، جده، وبين أبيه. وأحسَّ في قرارة نفسه أن جدَّه على حق، العِلم هو المستقبَل وهو الأهم. وتذكَّر كلمة «السجون» التي وصلت إلى مَسمعه من جده، فكَرِه المسيرات وكلَّ المُظاهرات. ولكن صوتًا ما بداخله كان يُخالِفه، خاصةً مع حادثةِ أصغرِ شهيدٍ ببورسعيد، والتي كان يتحاكى بها زملاؤه في المدرسة. فقد شهدت بورسعيد يومًا حزينًا عندما استُشهد الطفل «نبيل منصور» تلميذُ الابتدائية، حين تمكَّن من التسلُّل إلى أحد معسكرات الإنجليز، وبدأ يُلقي كُراتٍ مغموسةً بالحاز على المعسكرات في أثناء نومهم، وسرعان ما بدأت النيران تنتشر، ولكن.. لسوء حظِّه خرج الجنود الإنجليز وقتلوه رميًا بالرصاص!

فكَّر «فريد» في هذا الطفل، كيف أتته الجرأةُ لاقتحام معسكرات العدوّ في مثل هذا العمر الصغير! وكيف يُعاني هو الآن من كل تلك الحَيرة، وربما الجُبن، خوفًا من اعتقاله في يومٍ ما! ولم يَعِ عقلُه أنه في حقيقة الأمر مُعتقَلٌ، وأنه أسيرٌ لمخاوفه التي بدأت تكبر كلما كبرَ في العمر. لم يعِ عقلُه أن الحريةَ هي تحرُّرُ الروح من المخاوف، وأن الجبناءَ في حقيقة الأمرِ هم السجناء، أمَّا الذين اعتُقلوا دفاعًا عن الوطن، فهم الأحرار.

***

سمعت العمارةُ بأكملها صراخَ «عنايات» وتكسيرَها لأثاث البيت كالثَّور الهائج، وكأن نارًا أمسكت فيها تلتهمها، أو كأنها لعنةٌ أصابتها فتحولت إلى امرأة ممسوسةٍ لا يُمكن السيطرةُ عليها، ولن يُنهي صراخَها سوى انهيار سَقف البيت فوق رأسها!

خرج الجيران يركضون على السُّلم، منهم مَن يحمل عصًا في يده ظنًّا بأن هناك جريمةَ قتلٍ في العمارة، في الوقت الذي كانت أغلب الجرائم في بورسعيد لا تتعدَّى نشْل المَحافظ وسرقة الغسيل! ومنهم مَن ظنَّ أن هناك حالةَ وفاةٍ مفاجئة. وتخبَّط الجيران في بادئ الأمر على السُّلم في حَيرةٍ لا يعلمون مَصدر الصياح والنحيب وسَيل الكلمات التي لم يفهموا منها شيئًا، وأرشدتهم «عليَّة» كونها هي أول مَن سَمِع، وقد تبِعها كلُّ مَن معها بالبيت، وكانت الجدة «آمنة» تتحسَّس الطريق إلى باب الشقة خلفهم، يكاد قلبها أن يتوقف من سرعة نبضه، وقالت بصوتٍ خافت: «أعانها اللهُ على آلام قلبِها.. أعانها اللهُ على ما حلَّ بها من الكرْب!» سمعتها «عليَّة» وارتبكت في حَيرةٍ من أمرها، وقد بدَت كأنها تعلم خفايا الجارة!

احتشد الجميع أمام الباب، وتألَّمت الكفوف من كثرة الطَّرق عليه دون أي استجابة، وكأن «عنايات» قد فقدت السمع! ومرت عشرُ دقائق من الطَّرق المتواصِل، تخلَّلها ازديادُ صوتِ الصراخ والتكسير! فاقترح «عيد» أنه ينبغي كَسْرُ الباب، خاصةً بعد أن بدأ جمعٌ غفيرٌ من المارَّة بالشارع ينتبهون للصراخ الصادر من أعلى ويَدلفون العمارةَ واحدًا تلوَ الآخَر في فضولٍ وقلَق. دفع الرجال بابَ «عنايات» دَفعةً واحدةً فانفتح على مصراعيه، ليَجدوها تحمل آخِر مزهريةٍ سليمةٍ في بيتها، كانت على وشَك تكسيرها، نظرت إليهم لثوانٍ في صمتٍ نظراتٍ مشوَّشةً، تائهةً بين الوجوه. وبوجهٍ ذابلٍ مُجهَدٍ بدا متورِّمًا وقد لطَّخته دماءُ يدِها التي تنزف دون درايةٍ منها. حربٌ ضاريةٌ بلا جنود أو أعداء، خاضتها وحدها! سكتَ الجمعُ في ترقُّبٍ وقلقٍ بالغ، فكسرت الصمتَ بتصويب المزهرية تجاه الحائط أمامها لتتكسر وتتفتت أجزاؤها منفجرةً في وجوه الجميع!

خارت قواها، ووقعت في مكانها متكئةً على ركبتيها، وقد ارتفع قميصُ نومها ليُظهر أغلب فخذيْها. وبدأت رؤوس الغرباء عن العمارة تتلصص النظرات من بين الزحام متفحصةً جسدَ المرأة التي هزَّ صوتُها شارعَ فؤاد في ظروفٍ غامضة. وفغرت الأفواه، والأعين تُحدق في المرأة المنكوبة، وقد ابتلَّ قميصُها

Visual Watermark

الحريريِّ من كثرة بكائها حتى صار شفَافًا عند صدرِها يُظهر ما تحته، لتبدو عاريةً أمام الجميع!

أدرك «صابر» هذا التجمُّع الغريب، فأمر الجميعَ بلهجةٍ حادَّةٍ بالخروج من الشقة، وترك معها زوجتَه «فايزة» ونساءَ العمارة فقط.

توقف بكاء «عنايات»، ونظرت إلى النساء الحائرات في أمرها، تتفحص الوجوه كأنها تراهم للمرة الأولى. تُحاول أن تنفض عن رأسها الأفكار المؤلمة. وكانت «عنايات» قد اكتشفت منذ ثلاثة أعوام أن لزوجها امرأةً أُخرى. ثلاثُ شُعيراتٍ نسائيةٍ وبقايا من أحمر شِفاهٍ كشفت أمرَه، واعترف بأسفٍ دون أن يُواجه عينيها، قائلًا حينها إنه تزوج منذ أيام قليلة، حيث مَلَّ من إلحاح والدته العجوز التي تمنَّت أن تحظى بأحفادٍ في حياتها، فأراد أن يُجرِّب حظَّه لكي يُحقق لها مُرادَها قبل أن تموت. نفثت حينها «عنايات» دخان سيجارتها تجاهه وهي تهزُّ ساقَها الموضوعة فوق الأُخرى في ترفُّعٍ وتعالٍ، قائلةً إن الأمر برُمته لا يَعنيها، وردَّت عليه بكلماتٍ مقتضبةٍ ونبرةٍ ساخرةٍ: «وما له يا أمين! جرِّب حظَّك!»

ومرت السنواتُ الثلاث دون أن يلاحظ أحدٌ من جيرانها هذا الأمر، تحجَّجت دائمًا أن غيابه ومَبيته خارجَ البيت كان لأجل مقتضيات عمله في السويس. وهو أمرٌ كانت هي نفسُها تُصدِّقه قبل معرفتِها بالحقيقة. ورسمت في ذهنها صورةَ الزوجة الثانية أنها امرأةٌ قبيحةُ الملامح أسنانُها متآكلة، ترتدي ملابس من البالة، تفوح منها رائحةُ البصل، وتحتمي حشراتُ الأرض في شقوق كعبيْها! ظلَّ الزوج طوال تلك السنوات يُبلغها بأنه لم يُنجب بعدُ، ولكنه صار يتغيَّب في العام الأخير كثيرًا. فبدأت تتذمَّر وتُعلن استياءَها. تلاشى كبرياؤها، فأعلنت بلا سابق إنذارٍ رفضَها التامَّ لتَقبُّل هذا الأمر السخيف، واستشاطت غيْظًا، خاصةً عندما عاد ذات ليلة وسُترته تحمل إمضاءَ المجهولة برائحة عِطرٍ نسائيٍّ أخَّاذ، يتعارض مع الصورة المشوَّهة لها في مُخيلتها! وتسلَّلت الغَيرة لتتحوَّل الملامحُ القبيحة إلى امرأةٍ فائقةِ الجَمال، والأسنانُ المتآكلة -في خيالها- إلى لؤلؤٍ مكنون، فكرهَت أن يكون زوجُها مع امرأةٍ أُخرى لا تعلم هُويتها ولا هيئتها! نفد صبرُها وطلبت منه أن يُطلِّقها فورًا، فخرج «أمين» مُنفعِلًا بعد احتدام النقاش بينهما دون عودة، ليُرسل لها رسالةً أصابتها في مَقتَل، وانهار كبرياؤها ليرحل عنها بلا رجعة! أخبرها في رسالته أنه عندما واجهَته منذ سنوات، لم تكُن الزيجة منذ أيام مثلما قال، لقد تزوج «أمين» بعد عام واحدٍ من زواجهما، وأنجب من الأبناء ثلاثةً، أكبرهم فتاةٌ تبلُغ من العُمر خمسةَ عشرةَ عامًا! ومع ذلك قال لـ «عنايات» في رسالته إنه يُحبها ويَعشقها عِشقًا، وأنها ستظلُّ حُبَّه الأولَ والأخيرَ للأبد.. كتب كلامًا كثيرًا.. ولكنها لم تقرأ الكلمات التي تلَت انكشاف أمرِه، وذابت دموعُها والحِبرُ سويًّا!

ظلَّت «عليَّة» جانبها تُربت على كتفِها في هدوء، بينما حاولت باقي الجارات إرجاع الكراسي والطاولات -التي بعثرتها في انهيارها- إلى مواقعها. وأحضرت «عليَّة» مقشةً لكنس الزجاج المتناثر في كل أنحاء البيت، ولم تلاحظ بدورها بقايا أوراق الرسالة الممزَّقة على الأرض، فكان مصيرُ كلمات «أمين» ودموعُ «عنايات» التي جفَّت فوق الأحرف، القمامة!

ظلت «عنايات» صامتةً، فارغةً من أي شعورٍ بعد كلِّ هذا الغضب. تتساءل بما تبقَّى لها من عقلها الذي شتَّ: كيف أمضت أحدَ عشرَ عامًا دون أن تدري، ودون أن تُلاحظ بصمات امرأةٍ أُخرى فوق جسد زوجها!

نظرت حولَها بوجهٍ شاردٍ، ثم ثبَّتت مُقلتَي عينيها على باب الشقة، تمنت لو تسمع خطوات حذائه آتيةً فوق السُّلم، وأن يَدخل عليها قائلًا إن كلَّ هذا كان مزحةً.. مزحةً سخيفةً.. مؤلمةً.. وربما قاتلة!

انتهت سيداتُ العمارة من إزالة آثار العدوان من خذلان الجارة، قدْر استطاعتهنَّ، وقررت حينها «عليَّة» أن تستجمع جرأتها لتُنهي سكوت «عنايات» التام، وقالت بصوتٍ شديد الهدوء:

- خير يا أبلة «عنايات»؟ ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟ الأستاذ «أمين» والأهل بخير؟

نظرت إليها «عنايات» للحظاتٍ بدَت بطول الدهر.. كفكفَت ما تبقَّى من الدموع التي انهالت على خديْها ورقبتها، ثم قامت تاركةً كلَّ شيء خلفها، توجهت نحو غُرفتها بخطواتٍ مترنحة، وقالت بعد أن وجَّهت نظرةً أخيرةً مُجهَدةً نحو النساء في بيتها: «لا شيء.. أنا بخير..»

***

«بَني وطني، اجتازت مصرُ فترةً عصيبةً في تاريخها الأخير، من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحُكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثيرٌ كبيرٌ على الجيش. وتسبَّب المرتشون والمُغرضون في هزيمتنا في حرب

Visual Watermark

فلسطين. وأما فترةُ ما بعد هذه الحرب، فقد تضافرت فيها عواملُ الفساد، وتآمر الخونةُ على الجيش، وتولى أمرَهم إمَّا جاهلٌ أو خائنٌ أو فاسد. حتى تُصبح مصر بلا جيش يحميها. وعلى ذلك، فقد قُمنا بتطهير أنفسنا، وتولَّى أمرَنا داخل الجيش رجالٌ نثق في قُدرتهم، في خُلقهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلَّها ستتلقى هذا الخبرَ بالابتهاج والترحيب».

استيقظ المصريون في صباح يوم الأربعاء، الموافق الثالث والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ليستمعوا إلى البيان الذي بُثَّ فجأةً في الإذاعة المصرية بصوت «أنور السادات».

فقد بدأت الأحداثُ السياسيةُ تزداد سخونةً على الأراضي المصرية منذ مَطلع ذلك العام، ولم تَسلم القاهرةُ من أحداث الشغَب والحريق الذي نشَب فيها إطفاءً لنيران الأفندة المُعترِضة على وجود الإنجليز. وخرج حينها الأمرُ عن السيطرة، فكثُرت أعمال السرقة والنهب، وعمَّت الفوضى. صار رفض سياسة المَلك جليًّا دون خوفٍ من أيِّ اعتقال، وكُسِرَت رهبةُ الشَّعب من جنود الاحتلال. وفي لحظةٍ تاريخية فارِقةٍ، تغيَّر وجهُ مصرَ إلى الأبد، ولم يُصدِّق المستمعون إلى الراديو آذانَهم!

خرج الجميع إلى الشوارع والميادين فرِحين مُهللين. وعلا صياحُ النصر وزغاريدُ النساء من خلف أبواب البيوت. وكان «سيد» وأُسرتُه في إجازة صيفية بدمياط مع عائلة زوجته. اعتذرت والدةُ «سيد» عن الانضمام إليهم هذا العام لإحساسِها بتوعُّكٍ صحيٍّ، فقررت «أم عثمان» البقاءَ معها في بورسعيد.

وبينما كان الجميع يستعد للذهاب إلى الشاطئ، ناداهم «عادل» بصوتٍ مرتفعٍ للغاية، ليستمعوا إلى البيان المُذاع بالراديو، فهبطوا جميعًا من الطابق العلوي بالفيلا، وهرعت الخادمة والطبَّاخ اللذان كانا يُعِدان سندوتشات الشاطئ بالمطبخ، ليلتفُّوا جميعًا حول الراديو.

واختلفت الوجوه والتعبيرات، جلس «حافظ» مشبِّك الأيدي وهو يستمع بتركيزٍ تام، وارتسمت على وجه «عادل» ملامح الاستغراب والترقُّب الحذِر. أمَّا «سيد» فقد وثَب فرِحًا ليقول: «ينصر دينكم!» وبثَّت سعادتُه الفرحةَ في قلب زوجته. وراقبهم «فريد» وقد جلس بينهم يتفحص الوجوه، فتارةً يُنصت باهتمامٍ بالغٍ حينما ينظر لجده، وتارةً أُخرى تتسع ابتسامتُه لابتهاج أبيه وأمه، ثم يتوه في عيني خاله الحائر.

لم تنضمَّ «فيفي» وابنةُ خالها «سوسن» إلى هذا الجمع، ظلَّتا بالغُرفة، وفتحت «سوسن» دولابها لتنبهر «فيفي» بالفساتين وتستأذنها في ارتداء واحدٍ منها، سمحت لها ابنةُ الخال بشرط أن ترتدي هي فستانها الذي أتت به. وكانت «سوسن» تغار بشدة من «فيفي»، فجَمالها مُلفِتٌ للنظر على الرغم من صِغر سِنها، كما كانت تغتاظ من لون عينيها الأخضر، وتحقد على لون بشرتها الذي يبدو دائمًا كلون الزهور في الربيع، حتى التفاف جسدها المُلفت وبروز نهديْها مع أن أنوثتها لم تكتمل بعد. أمضت الفتاتان وقتهما في الضحك والدوران بأرجاء الغرفة الكبيرة كالفراشات بحُريةٍ مُطلقة، ثم ارتمتا على السرير بسعادة بعد أن أنهكهما الدوَار. وسألت «سوسن» «فيفي» عن أخيها ومعاملته معها، فتغيرت ملامحها قائلةً إنها تَمقته، فهو دائم التحكُّم والصراخ فيها. فسرَحت «سوسن» في خيالها، وبداخلها إعجابٌ جمٌّ بابن عمَّتِها الرصين الذي يَكبرها بعدة أشهر، واعتدلت في جلستها لتقول:

- أقلها تجدين مَن تختلفين معه، إنني قلَّما أتحدث مع أخي «سمير».

فأجابتها «فيفي»:

- إن جيتي للحق يا «سوسو»، «فريد» أرحم من «سمير»! أخوكِ دائمًا ما يشعرني كأنه أكبر منا بعشرين عامًا!

اعتدلت «فيفي» من استلقائها سريعًا، وقامت لتسيرَ في تبختُرٍ وتباهٍ، بشفاهٍ مشمئزةٍ وهي تُلقي بنظراتٍ متعالية، في محاوَلةٍ منها لتقليد ابن خالها، وأدركت «سوسو» هذا فضحكت من قلبها! وصدَقت، فـ «سمير» هو الابن البكر «لعادل و«نوال»، وقد بلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، غير أنه يبدو كأنه في الثالثة والثلاثين من عمره! اهتماماته مُختلفة، وأصدقاؤه كذلك. وكان كابن عمَّته «فريد»، معروفًا بالالتزام، ولكنه التزامٌ ظاهريٌّ نجح في أن يُصدِّره للجميع، التزامٌ مفتعَلٌ غيرُ حقيقي، فلم يكن يهتم بالدراسة مثله، وكان على قناعة تامة بأن النجاح الحقيقي هو أن يُصبح مالكًا للأموال، حتى يُصبح صاحبَ أملاكٍ كجده لوالدته. ويتمنى في قرارة نفسه لو يموت الجميعُ ليَرِثَ عنهم ما يمتلكونه! ولأنه ابنٌ مدلَّلٌ من عائلة والدته خاصةً، فكانوا يُغدقون عليه الأموال مصروفًا شهريًّا له ويمنحونه الهدايا بلا أية مناسبة. كما تعلم سِرًّا على يد اثنين من زملائه بالمدرسة لَعِبَ القمار منذ عام! وصار في إجازاته يجتمع في بيت أحدهما مع

Visual Watermark

مجموعة أخرى تُماثله في المستوى الاجتماعي، ليلعبوا تحت إشراف أهل صديقه، الذين يلعبون القمار دوريًا كنوع من الوَجاهة الاجتماعية. وإلى جانب هذا، كان «سمير» قلَّما يُشارك أسرتَه في أي تجمُّع، ويتحجج بالمذاكرة مع أصدقائه أو الخروج معهم، ولكنه في سَريرته كان يشعر بالتعالي عليهم، ويرى أن «فريد» الذي يصغره بعام واحد، ولدٌ تافِهٌ لا يهتم سوى بالكتب ولا ينتبه للكتاب الحقيقي: الحياة، وما بها من مغامرات.

***

لو كانت أمواج بَحر رأس البر تستطيع الكلام لصاحَت هي أيضًا فرِحةً بما تم بثُّه في صباح اليوم!

جلس أفراد العائلة تحت المظلات، يتحدثون عمَّا سيؤول إليه الوضع السياسي في مصر. ولَمح «حافظ» من بعيد السيد «محسن»، والد «نوال»، وهو يرتدي قُبعته ليَقي بَشرتَه حرارةَ الشمس، وتتأبط ذراعَه زوجتُه السيدة «كريمة»، ومن خلفها الخادمةُ تحمل حقيبتها. أشار إليهم «حافظ» بيده لكي يرَوا موقعهم على الشاطئ المُزدحم، وما إن وصلا حتى لاحظ الجميعُ وجومَ وجه «محسن»، وقد ظهر كأن الدماء حُبست فيه.

لم يتعجب «سيد»، فهو في قرارة نفسه يعلم أثرَ ما ذِيع في الصباح على «محسن» وأُسرته، هذا الإقطاعيُّ الذي يَملك الكثيرَ من الأراضي ومَن فيها من العاملين تحت رئاسته، وعلاقاته الجيدة ببعض الأجانب، فضلًا عن علاقاته ببعض السياسيين المُوالين للمَلك وأصدقائه الطَّليان. أمَّا «فريد» فقد اعتاد الاندهاش من حالِ «محسن» كلما راقب حكاياته التي يملؤها الترَف، وعلاقاته المتشعبة، وخُيِّل إليه أنه كالأخطبوط، يحمل بداخله ثلاثةَ قلوب، وله كثيرٌ من الأيادي ليُصافح الجميع!

جال «سيد» بنظره بين الجالسين، فاستقرت عيناه على «عادل»، ذلك الرجل الذي يُباشر أعمالَ والدِ زوجتِه في أوقات فراغه، ليأخذ في نهاية الشهر أموالًا طائلةً نظيرَ عملٍ لا يستغرق سوى ساعةٍ أو اثنتين في اليوم، وقد بدا قلِقًا يقضِم أظافرَه! تساءَل «سيد» في نفسه عن ردود الفِعل المضطربة إلى هذا الحد، هو يَعرف أنهم يَخشون تبدُّلَ حالِهم الاجتماعيِّ والماليِّ برحيل المَلك والإنجليز، ولكن.. ألا يشعر هؤلاء بأي مسؤوليةٍ تجاه الوطن؟ ألَا يرَون حالَ الشعب ومعاناته ومآسيه؟ ألَم تصِل إليهم الفضيحةُ المنحطَّة التي حدثت مع الجنود في حرب فلسطين! أم أنهم لا يُبالون إلَّا بأنفسهم ومَصالِحهم فقط!

أشعل «محسن» سيجارَه الفاخر بتوترٍ يُحاول إخفاءَه، وقال قاطِعًا أفكارَ «سيد»:

- ما حدث اليوم سندفع جميعًا ثَمنَه.. ستعُمُّ الفوضى في أرجاء مصر! لا أدري كيف تجرأ هؤلاء الأوباش على أن يقتحموا مبنى الإذاعة ليُذيعوا هذا الهُراء؟ هذا انقلابٌ خطير.. ولكن.. ملحوقة، سيُعاقبهم المَلكُ عِقابًا عسيرًا.. إنه أمرٌ مَحتوم.. لا جدال فيه.

فقال له «حافظ»، وهو يربت على كتفه لتهدئة انفعاله:

- لا تقلق يا «محسن» بيه. أعتقد أن ما حدث لم يكُن وليدَ اللحظة، بالتأكيد الأمر مُخطَّطٌ له جيدًا. ثم.. ولتكن صرحاء، لقد اكتفى الشعب مؤخَّرًا من قضايا الفساد، وضاق ذرْعًا من الاحتلال. لقد زاد الحدُّ وأصبحنا كأننا سنعيش هكذا مدى الدهر تحت سطوتهم. وربما الحاصل الآن هو الأصلح لأبناء هذا الوطن.. فلا تقلق.. ولا تنسَ أن جنود بلادنا هم خير أجناد الأرض.

أُعجب «سيد» بهذا الردِّ بشدة، خاصةً أنه كان يتجنب حَماه لشهور بعدما دار بينهما عن «فريد». وأدرك في تلك اللحظة أن ما قاله «حافظ» آنذاك كان نابعًا من خوفه الشديد على حفيده المُقرَّب إلى قلبه. كما برقت عينا «عليَّة» سعادةً بردِّ أبيها، وهي التي تعلم جيدًا احترامه للمَلَكية المصرية. وجال بخاطِرها أنه ما الخطأ في أن يُبدل الإنسان آراءَه مع مرور الأيام؟ يَظن بعضُ الناس أن التغيُّر يتعارض مع المصداقية، في حين أن التشبث بالأمور حتى وإن بدأت تَحيد عن الصحيح، هو ضربٌ من الغباء والعناد الذي سيُودي بصاحبه. فأخذت نفَسًا عميقًا لأنها أدركَت أنَّ أباها قد صار يتفق الآن مع موقف زوجِها الحبيب.

اعترض «محسن» على كلمات «حافظ» قائلًا:

- أيُّ حدٍّ هذا الذي زاد؟ وأيُّ فسادٍ تتحدث عنه؟ ألا ترى الناس مِن حولِنا؟ إنني أجزم بأنهم جميعًا لا يَشغلهم هذا البيانُ التافه! لأنهم يعلمون تمامَ العِلم أنه كلامٌ فارغ. انظُر.. انظُر! هل تراهم بملابس مهترئة يَبحثون عن لُقمة العَيش؟!

Visual Watermark

فقال «حافظ» مداعِبًا لتهدئة «محسن»:

- الكلُّ هنا يأكل الجيلاتي ويرتدي المايوه يا «محسن» بيه.

فضحك الجالسون، عدا «محسن»، الذي استطرد متجاهِلًا المُزحة:

- نحن يا «حافظ» نعيش في أزهى أيام مصر، وهذا بفضل المَلك. وإن كان للإنجليز وجود فهم تحت سيطرتنا، ونحن الذين نُوهمهم بعكس ذلك. ثم أنا لا أفهم، كيف تجرأ هؤلاء الأوباش على وصف المَلك بالمُتآمِر والخائن! المَلك فاروق يَكره الإنجليز أكثر من كُرهكم لهم! ولا يُصادِق من الأجانب سوى الطليان.

تنهَّد في ضيقٍ، وأردف:

- خُذ مني هذا الكلام يا «حافظ»، ستنتهي مصرُ على يدِ هؤلاء المخابيل إن لم يَجدوا مَن يَردعهم!

ضحِك «سيد» ضحكةً مرتفعةً تملؤها السخريةُ والاستخفافُ بكلمات «محسن»، وعلَّق قائلًا:

- ستنتهي مصر؟ على العموم يا «محسن» بيه، أي ناسٍ هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟ هل تُقارِن حالَ شَعبٍ تعدَّى الملايين بالمُصطافِين حولنا على الشاطئ؟ نحن شَعبٌ زادت فيه نِسبةُ الأمية والفقر عن التسعين بالمِئة..

حدجَه «محسن» بنظرةٍ غاضبةٍ، وصاح في وجهه:

- ياه على المبالَغات! كذب! كلُّ هذا كذبٌ وافتراء! من أين لك بهذه المعلومة الفذَّة يا أستاذ «سيد»؟ هل دخلتَ كلَّ البيوت المصرية لتحكُم على حالها! والله إن مثل هذه الآراء هي التي ستجلب لنا الخرابَ العاجِل!

قاطعه «سيد» بلهجةٍ أكثرَ جدية:

- بل دعني أسألك أنا: متى آخر مرة قرأتَ فيها جريدة؟ ألم تكُن ترى في الجرائد والمجلات البذخَ الشديدَ الذي يعيش فيه المَلك فاروق وحاشيتُه، وفضائحهم بداخل مصر وخارجها؟ متى تعامَلتَ عن قُربٍ مع الشَّعب الأصليِّ، مع الكادحين؟ ألم يصِل إلى سَمعك أن أكثر من نِصف الوطن يُعاني الآن من الأمراض، البلهارسيا مثلًا، والنصفُ الآخَر يُعاني البطالةَ والفقرَ المُدقِع! أكثرُ من أربعين في المِئة من شَعبك بلا عمل يا «محسن» بيه! ويبحثون -كما قلتَ أنت- عن لُقمة واحدةٍ تتقاسمها أُسرةٌ من خمسةِ أفرادٍ أو ستة.. اسمح لي يا «محسن» بيه، إنني لا أوافقك الرأي أبدًا.. وأيًّا ما كانت تبعات ما حدث، ستكون حتمًا أفضلَ بكثير مِمَّا عانَى منه الشعبُ طوال السنوات السابقة.

اغتاظ «محسن» غيْظًا شديدًا، حتى إن العرَق بدأ يتصبَّب من وجهه، وبدا جسده السمين كأنه ينكمش ببطء فوق مِقعده، ثم بدأ بلا وعي منه، ينتف من شاربه، الذي يُشبه شارب الملك فاروق! وأدرك «سيد» فجأةً التشابهَ القويَّ بين المَلك و«محسن»، فهو يَملك جسدًا ضخمًا مثله، وإن كان «محسن» يزيد بضعةَ كيلوجراماتٍ عنه، كما أنه أقصرُ قامةً، ويملك أيضًا نظرةَ عينيه نفسَها وبياض بَشرته!

استمر الحديث بينهم، وكلما حاول «محسن» فرضَ رأيه اعترضَه «حافظ» و«سيد». والتزم «عادل» الصمتَ طوال الجلسة كأنه لا ينتمي إليهم، سحب كرسيه بعيدًا عنهم وجلس تحت الشمس متجاهِلًا قلقَه بتصفُّح مجلة أجنبية.

بينما جلست النساء يستمعن في صمتٍ دون تعليق، وهنَّ يشربْنَ الكازوزة ويُتابعن أبناءهن وهم يركضون بمرحٍ فوق الأمواج المتلاطمة عند الشاطئ، ثم إذا تعبوا يفترشون الرمال لبناء بيوتٍ تسكن فيها أحلامهم. وهمست «نوال» في أُذن «عليَّة» أن ينزلا البحرَ بدلًا من الاستماع إلى هذه النقاشات المملة، فوافقت بحماس، وقامتا وهما يرتديان مايوهات السباحة ليقفزا في المياه.

وعندما وجد «محسن» أنه لا جدوى من الحديث الذي طال، أطفأ سيجاره الثمين في رمال الشاطئ ووقف ساحبًا زوجته من يدها، مُعلنًا إصابته بصداعٍ مُفاجِئ، وأنه يحتاج إلى العودة فورًا لأخذ أسبرين.

ربما لم تكن هذه هي العائلة الوحيدة التي تُناقش هذا الحدثَ الجللَ على الشاطئ، فعلى عكس ظنون «محسن» بأن كلَّ الجالسين حوله لا يَشغلهم ما حدث، كان أغلب القابعين بجواره تحت المظلات يناقشون بيان «محمد أنور السادات» وتبعاته، والذي أُلقي بعدَه بيوم خِطابٌ آخَر من «محمد نجيب» إلى الشعب المصري، يُطالبهم بعدم الانصياع وراء الشائعات المُغرضة التي تهدف إلى إبقاء الوطن في الظلام الأبدي.

Visual Watermark

ظلّت مصر بأكملها لأيام عديدة، بكل بيوتها، في شوارعها وأزقّتها ومقاهيها، وفي المواصلات وحتى عند الحلاقين وبائعي الدواجن، تُناقش ما حدث. كانت مصر في تلك اللحظة تتحدث عن شيء واحد: «الحركة المباركة».

***

عادت الأُسرة إلى بورسعيد بعد انتهاء إجازتهم. وذيع بالأمس، بعد ثلاثة أيام فقط من البيان الأول، خِطابٌ يُعلن تنحّي المَلك وتنازلَه عن العرش لوليّ عهده الأمير أحمد فؤاد، وأنه غادَر البلاد في مساء اليوم ذاته، على باخرة المحروسة مُتّجهًا إلى إيطاليا.

كانت الجرائد طوال الأيام الماضية تتسابق إلى نشر سِرّ البيان وكواليسه، وكيف نجحت جماعةٌ من ضباط الجيش المصري في عمل تنظيم سِريٍّ سعَى إلى تخليص مصر، وفكّ أغلال الاحتلال عن عُنقها. وكانت بداية المساعي تتمثل في إنهاء المَلَكية، لاقتناعهم التام بضَعف الملك فاروق وحاشيته أمام البريطانيين. لقد عُرف عن الملك طوال الأعوام السابقة البذخُ والإسرافُ في الوقت الذي كان فيه أكثرُ المصريين يعيشون حياةً تحت خَطِّ الفقر. ولم تخلُ حفلاته المَلَكية من استقبال العديد من المسؤولين الأجانب. فتمرَّد الجميع، بعد سنواتٍ طوالٍ من الانصياع والاستسلام غير المشروط. وبدت شوارع بورسعيد منتعشةً، والنشاط قد دبَّ في الناس. أُزيلت اليافطات التي كانت تحمل صورةَ المَلك، كما أنزل أصحابُ المقاهي صورتَه المعلّقة عن جدرانهم، ووضعوها خارجَ المقهى، ومَن يريدها يستطيع أخذها دون مقابل. وعُلّقت في الشوارع الأعلامُ المصرية الخضراءُ التي يتوسطها الهلالُ ونجومُه الثلاثة. وعلى الرغم من كل هذا، كانت لا تزال هناك ملامح من الجاليات الأجنبية والإنجليز في شوارع بورسعيد، كأنهم غير مكترثين إن عاش المَلك أو مات، المهم هو الأرض التي يعيشون فوقها بحُرية تامة.

وعندما وصلت أُسرة «سيد» عائدين من الإجازة، صعدت «عليّة» والأبناءُ إلى البيت، بينما وقف «سيد» أمام بيت «صابر» يَطرق بابه في نفاد صبر. وفور أن فتح له جارُه عانقه قائلًا: «أخيرًا يا سيد!» ثم استأذنه أن ينتظره لثوانٍ أمام باب البيت ليرتدي سُترة بدلته حتى يذهبا معًا إلى القهوة ويتحدثا. مشيا إلى القهوة القريبة بخطوات مُتحمسة سريعة تدبُّ الأرضَ كأنها تُعلن انتسابَها إليها ببصماتها. ورحَّب بهم جمعٌ من الرجال الجالسين فورَ وصولهم. سحَبا الكراسي ليجلسا مُنضمّيْن إلى مجموعة من الرجال، وطلبا كوبين من الشاي. ثم أشار «سيد» إلى ماسح الأحذية لكي يُلمع له حذاءه، فخلع الكونترجي حذاءَ «سيد»، ثم وضع مسندًا خشبيًّا أسفل قدميه، حتى ينتهي من تلميع الحذاء. وقال «صابر» إنه من المتوقَّع أن يزور قادةُ الضباط الأحرار بورسعيد خلال الأسابيع القادمة، للتحدث إلى الشعب البورسعيدي، فعلّق أحدُ الجالسين:

– يا مسهل.. نأمل أن يتبدل الحال في أسرع وقت.

وقال «سيد»:

– حِلمكم علينا يا إخواننا! في العجلة الندامة! تلزمنا سنواتٌ وسنواتٌ لإصلاح ما أفسده الملك.. ما حدث ما هو إلا خطوة.

وتدخل رجلٌ آخَر ليقول:

– ولكن.. هل تعتقدون حقًّا بأن المَلَكية ستنتهي؟ رحل فاروق وحضر أحمد فواد.. موت يا حمار!

رد «سيد» بثقة:

– المَلَكية قد انتهت بالفعل. كلُّ ما يحدث الآن هو لحفظ ماء الوجه ليس إلا. والأهم من ذلك هو رحيل الإنجليز. المَلك وكلُّ مَن معه لم يكونوا سوى عرائس ماريونيت في يد الاحتلال.

نظر حوله ثم أردف:

– هل تعتقدون أنني لا أشعر بالحزن، ولو بالقدْر القليل، تجاه رحيل المَلك عن وطنه بهذا الشكل؟ حتمًا في قرارة نفسي كنتُ أود لو كان أكثرَ قوةً وصلابةً ليقف في وجه الاحتلال كرجل مصري يُحب مصلحةَ وطنه، وألّا ينغرس في ملذاته وفي الفساد الذي سندفع ثمنه بعد نفيه! وهو أيضًا سيدفع الثمن، حتى بعد رحيله، سيُدرك المَلك في حقيقة الأمر أنه كان ضحيةَ نفسِه.

فقال «صابر»:

Visual Watermark

- المَلك فاروق، بكرشِه هذا ضحية؟! الضحايا الأصليون هم جنودنا الذين ذهبوا فطيس بسبب صفقةِ الباشا الفاسدة.. راح وجلب لنا بقايا أسلحة من الحرب العالمية الثانية! الضحايا حقًا هم شَعب فلسطين، الذين سُلبت منهم أرضهم، وجُرِّدوا من حقوقهم على يدِ مُحتلٍّ قذِر.. شوية مهاجرين ومرتزقة لم يتحمَّلهم الغَرب، فجاؤوا بهم إلى الأراضي الطاهرة ليُعلنوا لهم دولة!

***

كما كان متوقَّعًا، حضر مجموعةٌ من الضباط الأحرار إلى بورسعيد، وفي مقدمتهم البكباشي جمال عبد الناصر ومحمد نجيب. نُصب الصَّوَان بالميدان لإلقاء كلمةٍ إلى شَعب بورسعيد تحثهم على الوقوف بجانبهم حتى تمرَّ هذه الأيام بخيرٍ يَعمُّ الجميع، فقد بدَت الأمور خارجةً عن السيطرة في الأيام التي تلَت إعلان الثورة. واحتشدت الجماهير البورسعيدية وقد ركض «سيد» وخلفه ابنه «فريد» لكي يلحقا مكانًا في الصفوف الأولى. ولمح «سيد» العديد من زملائه وجيرانه واقفين يتحدثون فانضم إليهم، وانسحب ابنه من جانبه ثم اقترب من المسرح الخشبي المرتفع الذي نُصِب لإلقاء الخطاب وهو ينظر من بين فتحاته إلى أعلى، فرأى البكباشي جمال عبد الناصر بأصابع كفَّيه المتشابكة وهو يَقرع الأرضيةَ بقدمِه في ترقُّب. فالتقَت عينا عبد الناصر بعيني الصبي فورَ أن رفع رأسه قليلًا، بعد أن كان شاردًا ببصره في أرضية المسرح الخشبي، ابتسم لـ«فريد» فبادله التبسُّم.

وفور أن بدأ محمد نجيب إلقاء كلمته، هتفت الجموع تشكو من نُقصان السكَّر في الأسواق، وتعالَت هتافاتهم: «فين السكَّر؟ ... فين السكَّر؟»

فانفعل نجيب على الحاضرين وهو يُلقي كلماته، وكادت أن تحدث كارثةٌ حيث استفزَّ انفعالُه بعض الحاضرين، وبدأت صيحات الاعتراض من بعض الجماهير، كأنهم على وشَك الهجوم على الصوَان! فتدارَك عبد الناصر الموقفَ سريعًا وبدأ يُحدِّث الجماهيرَ الغاضبة بدلًا من نجيب، ليُهدِّئ من انفعالهم، وبكاريزما حضورِه وهدوءِ طلبَ منهم مساندةَ الحركة المباركة والصبرَ حتى تعود الأمورُ أفضلَ ممَّا كانت عليه، وأضاف أن الضباط الأحرار ومن خَلفهم الجيش كله مع الشَّعب العظيم يُشكِّلون يدًا واحدةً ستُحارِب الظلمَ وتَقضي على الظالمين، وستجلب الاستقرارَ لا محالة. تأثَّر الجَمعُ بحديثه وهدؤوا، ليستمعوا بعدها إلى خطبة الضباط.

***

كان «فريد» أكثرَ المفتقدين للجدة «آمنة» طوال أيام الإجازة برأس البر، فظلَّ -بعد عودتهم- يقتنص الفُرصَ لأيام طويلة ليَجلس بجانبها ويَحكي لها عن الإجازة وما حدث بها، ووقْعِ النبأ المُذاع على عائلة «محسن». واستمعت له في كل المرات بإنصاتٍ تامٍّ واهتمام، على عكس أهل البيتِ الذين لا يُبدون هذا القدْرَ من حُسن الاستماع لابنهم الأكبر. ولأن الأجداد كانوا أكثرَ تقديرًا لحكايات الصبي ومناقشاته، انتمى لجدته «آمنة» وجده «حافظ»، وكأنهما أبواه الحقيقيان. وبعد أسابيع قليلة، تذكَّر وهو يقرأ إحدى الروايات أمرًا لم يُخبر به جدته، فخبط رأسَه بكفِّه ووثب وركض إليها وهو يقول:

- أمَّا يا نينه لو أقول لك ما حدث معي في رأس البر، لكن لا تُخبري بابا..

فأجابته بكلمات مطمئِنة:

- أسرارك في قلبي يا نور العين..

فقال بصوتٍ خافت:

- لقد كدتُ أن أموت!

شهقت الجدة:

- بَعيد الشَّر يا بُني! ماذا حدث؟!

تنهَّد ثم أجابها:

- البحر يا نينه.. كنتُ قد قررتُ العوم في أعماقه.. واقتنصتُ فرصةَ انشغال الجميع في الأحاديث، حتى لا ينهرني بابا كعادته إن ابتعدتُ كثيرًا عن الشاطئ نحوَ أعماق البحر. ولكن لا أدري يا نينه! كان البحر غريبًا يومها، كلما عُمتُ، أحسستُ كأن صوتًا يناديني ويجذبني إلى الأعمق.. فظللت أعوم وأعوم.. وفجأة.. نظرتُ خلفي لأجِد الشاطئ صار بعيدًا، وأحجام الناس كالنمل! فارتعبتُ وأصابني الهلع..

Visual Watermark

وأصبحَ رأسي يعلو وينخفض، يعلو وينخفض، وابتلعتُ الكثيرَ من مياه البحر! غير أن شيئًا لا أعرفه قَذَف بي إلى الشاطئ! قوةٌ خفيةٌ لا أعلم ما هي ولا من أين أتت.. تصدقيني يا نينه؟

ابتسمت الجدةُ وهي تقول:

- أُصدِّقكَ بالتأكيد.. ولكن في المرة القادمة لا تُغامِر يا بُني.. فهذه لعنةُ المجهول.. سيَظهر لك دائمًا بصوتٍ مرتفع في عقلك، لجذبك إلى المَخاطر.. تجاهَله يا بني ولا تستسلم له أبدًا. وأنا أعرف تمام المعرفة يا «فريد» أنك لن تموت إلَّا بعد عُمر طويل إن شاء الله، ستعيش وستُخلِّد ذِكراي معك.

ضرب «فريد» كفًّا فوق الأُخرى وهو يضحك متعجِّبًا:

- أمَّا حضرتك يا نينه غريبة بشكل! وكيف تعرفين إذًا؟!

ضحكت الجدةُ بهدوء لتقول:

- ليست معرفةً كالمعتادة يا «فريد»، ولكنه الإيمان.. الإيمان برسائل القدَر.. جدتك لا تستمع إلى المجهول يا بُني.. إنني لا أسمع سوى ما يَبُثُّه اللهُ في قلبي.. فالقلوب يا بُني بين يدي الله، يُرشدنا بها إلى الخير، ويُنبئُنا بشُرور الدنيا.

سكتت لبرهة، ثم تسللت يدُها تبحث عن كفِّ حفيدها لتحتضنها، وهي تقول:

- وبما أنك أخبرتني بسِرِّكَ العظيم هذا، سأُخبرك أنا بسِرِّي.

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الرابع

تجنبت «عنايات» الحديثَ مع جيرانها ومع كل البَشر منذ أسابيع طويلة. وتساءل الجميع كثيرًا عن حالها، ولكن لم يجرؤ أحدٌ على طَرق بابها. ذلك لأنها في المحاولات الأولى التي تلَت ما حدث في بيتها، لم تفتح لأحد. وقالت «دُرية» لـ «فايزة» إنها عندما التقت صدفةً بجارتهم البائسة في مدخل البيت، شكَّت أنه قد أصابها مسٌّ من الجنون، فقد بدَت مُريبةً غيرَ متزنة، تضحك وتعبَس في اللحظة نفسِها، تَطرُف بعينيها كثيرًا وتتلعثم في الكلمات! وأيَّدتها «فايزة»، وظلَّت بعدها تفكر طوال اليوم في حال «عنايات»، وانتظرت بعد الظهيرة لتصعد إلى «عليَّة» وتُخبرها بما قالته لها زوجةُ «عيد». وحلَّت لحظةٌ من الصمت بين الجارتين وهما في حَيرة من أمر «عنايات»، ثم تساءلت «فايزة» عن سبب غياب «أمين» طوال هذا الوقت، نظرت إليها «عليَّة» نظرةً طويلةً ثم شهقت، لتخرج كلماتها مسرعة:

- الخيانة! من المؤكد أن الأمر فيه خيانة!

ارتبكت «فايزة» من وقْع الكلمات، فأردفت «عليَّة»:

- اسمعي مني، انهيارُها هذا واختفاءُ زوجها، ليس له معنًى آخَر.. كما أنها تُمضي أغلب الأيام وحدها، فما الذي حدث إذًا غيرُ ذلك؟ صدقيني، لا تصِل أيُّ امرأةٍ لهذا الحال البائس إلا لو شعرت بالانكسار الشديد، ولا يَكسر المرأةَ سوى أُخرى مثلها. وما حلَّ بها أكبرُ دليل على غدْر زوجها. فالخيانة كالعلَّة التي ليس لها شِفاء، عِلةٌ خبيثةٌ بفعل الشيطان ولا تستحق أبدًا الفُرص في البحث عن دواءٍ لها، وضحاياها لن يذوقوا طَعمًا للراحة من بعدها، فلا حالٌ يَسرُّ، ولا ثقة في الحياة أو إقبال عليها بعد الخيبات!

رفض عقل «فايزة» تصديقَ ما تقوله «عليَّة»؛ لا تستطيع استيعاب أن الرجال المتزوجين قد يخونون زوجاتهم. فهي تثِق في زوجها ثقةً عمياء، حتى وإن رأته مع امرأةٍ أُخرى عارية، في سريرها، ستظن أنها خيالات! وقالت «فايزة» بثقةٍ إن الرجال لا يخونون سوى في أفلام السينما وفي القصص والروايات..

قاطعتها «عليَّة» معترضة:

- أهو أفلام السينما هذه هي التي جعلتني أفهم الحياة. صدقيني يا «فايزة»، إحساسي يقول لي إن الحكاية بها امرأةٌ أُخرى.

ردَّت «فايزة»:

- خيانة أو غيره.. مهما كانت الأسباب.. المهم وقع المصاب..

أيَّدتها «عليَّة» وقالت:

- على رأيك.. معرفةُ السبب لن تُغيِّر أيَّ شيء! الحياة غريبة جدًّا، وأصعب ما فيها أن المصائب لا تدقُّ الأبواب أو تُرسل تلغرافًا لإعلامنا بالوصول لكي نتحضَّر لها! بل كثيرًا ما تَصفعنا الأقدارُ بلا استئذان، وفي أكثر الأوقات التي لم نكن نتوقَّعها.

تبخَّرت مشاعرُ الغَيرة من قلب «عليَّة» مع مرور الأيام. أدركت أنَّ المِثالية الظاهرةَ قد تحمل في طيَّاتها الكثيرَ من الحقائق المؤسفة ورُبما المخيفة! وأشفقت على «عنايات» كثيرًا، خاصةً بعد رؤيتها في أشدِّ لحظات انكسار الروح. ولم تنسَ ليوم نظرةَ القهر التي احتلَّت عينيها، وملامحَ وجهها التي غلَّفتها العُمة. ولذا انتهزت فرصةَ الحوار الدائر مع «فايزة» لتقول بعد برهةٍ من التفكير:

- أقول لك.. دعينا نُجرب مرةً أُخرى طَرْقَ بابها..

خرجتا بالفعل وطرقتا الباب، الذي اعتاد من قبلُ أن يكون مواربًا، طَرقةً واحدةً خجولةً تحمل القدْرَ القليل من الأمل. مرَّت ثوانٍ لتفتح لهما «عنايات»، ورأتها أعينهم مثلما اعتادوها.. مُشرقةً، بهيةً، وفي قمة أناقتها، ومن خلفها دخان سجائرها يتراقص مع صوت عبد الحليم حافظ وهو يشدو من المذياع أغنية «صافيني مرة»!

***

أراد «حسين» أن يرفع عن كاهله حِمل الذكرى المؤرِّقة، التي أودَت براحته وسلبَت من عينيه النومَ في

Visual Watermark

كثير من الليالي. وقرر أن يبوح لـ «فريد» بما كان يَموج في قلبه من مشاعر تجاه جارتهم المُهاجِرة. فهي لا تزال تسكن عقله لأكثرَ من خمس سنوات مرَّت، بمرحها وصوت ضحكاتها. كانا يجلسان على ثاني درجةٍ من السُّلم بالطابق الأول، ولم يُبدِ «فريد» أيَّ تأثُّر أو اكتراثٍ لكل ما قاله صديقه؛ فتح حقيبة المدرسة وأخرج منها قلمًا، ليَحفر به على الحائط بجانبه!

فاغتاظ «حسين» وقال له مُعاتِبًا:

- أنا غلطان لأني قررتُ البوحَ لك بأسراري! وأنت غير مُبالٍ تنقش كالصِّغار على الحائط!

لم ينظر إليه «فريد»، ظلَّ منهمِكًا يحفر اسمه واسم صديقه بدِقة، وقال وقد وصل لحرف الـ «س»:

- وهل تظنني مغفَّلًا؟ كنتُ أعرف أمرَك وحُبَّك لها. هل تعتقد أنني لم أكن ألمح في عينيك نظرات الإعجاب منذ كُنا صِغارًا، كلما مرَّت من أمامنا أو لو رأيناها في الشارع؟ كان لون وجهك يصير كالطماطم، وتتلعثم الكلمات في فمك! لكنني أتعجب أنه بعد كل تلك السنوات لا زلتَ تُفكر فيها.. والأمر الأغرب أن تُحب فتاةً يهودية!

اشتد غضب «حسين» قائلًا:

- وما الغريب في ذلك! ما علاقة الحُب بديانتها؟ هي مثلنا تمامًا مصرية ومن أبناء الوطن.

ضحك «فريد» وهو يقوم من جلسته ليقول لصديقه وقد وقف أمامه ناظرًا إلى عينيه:

- ديانتها؟ أم انتماءاتها؟ تعلَّم جيدًا أن تلك الفتاة مهما سافرَت ستعود لبلادها.. إسرائيل. وأنا لا أظنك، بالوطنية المعهودة عن أهل بيتك كما في سائر بورسعيد، تُقرر الارتباطَ بفتاة كتلك. ثم لو أنهم من أبناء الوطن، لِمَ رحلوا عنه بعد حرب فلسطين؟ وكأنهم ما صدقوا! وهاتك يا فكيك!

اغتاظ «حسين» وتلاحقت أنفاسه ليرد:

- أعتقد أنك من سذاجتك لا تستطيع حتى أن تُميز بين الصهاينة واليهود! هي وأهلها لو كانوا صهاينةً لرحلوا من هنا إلى إسرائيل، ولكنهم هاجروا إلى أوروبا.

ابتسم «فريد» على الرغم من ضِيقه من نهرِ صديقه له، فقام من جلسته ونفض بنطاله من أتربةِ السُّلم، وصعد بضع درجاتٍ ثم وقف صامتًا لثوانٍ دون أن ينظر إلى «حسين»، ثم قال:

- إيش عرَّفك؟

رفع «حسين» رأسَه ينظر إلى جاره متابعًا صعودَه، وقد أحسَّ بوقْعِ كلمتِه الأخيرةِ كصفعةٍ مُفاجِئةٍ على وجهِه، فانقبض صدرُه، ووجم وجهُه، وأعيتهُ تساؤلاتٌ عقلُه المنهَك من آلام الذكرى: «تُرى هل كذب ناحوم، وهل رحلوا إلى إسرائيل؟» فكَّر قليلًا في ضيقٍ وحَيرة، وندِم ندمًا شديدًا على بَوحه بسِرِّه الوحيد. ثم أشاح بوجهه عائدًا إلى بيته تُلاحقه كلماتُ صديقه، وتُثير عاصفةً من التساؤلات في ذهنه. يعرف «حسين» تمامَ المعرفة أن والده «صابر» هو أكثر الكارهين للفِكر الصهيوني. وليس أبوه فقط، بل كل المصريين كذلك. واشتعل غيظًا من مجرد تخيُّل أن «عديلة» تنحدر من عائلة صهيونية، وانزعج من الاعيب الواقع وغموضه، فما دخل الحُب بأي شيء آخَر سوى النهايات السعيدة؟ كان أبوه وطنيًّا مُخلِصًا منذ نشأتِه، وقد انضمَّ في شبابه للجماعات السِّرِّية التي تُوزِّع المنشورات المُعادية للاحتلال الإنجليزي وتُخطِّطُ للعمليات الفدائية، و«حسين» نفسُه يعشق تراب هذا الوطن، وأورثَه أبوه الانتماءَ إليه بعزةٍ وكرامة، ويعرف أن الأرض تكاد أن تنطق مُناديةً بأسماء رجالها الذين دافعوا عنها. لقد تربَّى على هذه المعاني وآمَن بها، ولكن عقله لا يستطيع أن يتقبَّل أن مَحبته لـ «عديلة» تتناقض مع مَحبة الوطن. يُفكِّر كثيرًا في حالِها، لقد وُلدَت لأسرة يهوديةٍ ولم تختَر ذلك. ويُحدِّث نفسَه: «نحن لا نختار آباءنا ولا نختار ديانتنا، أو لأي أرضٍ ننتمي، نحن لا نختار أسماءَنا ولونَ بَشرتنا ومصائرنا المَجهولة!»

تنهَّد في أسًى بالغٍ وهو يُتابع أفكارَه، إنه يَرى أن «عديلة» ضحيةٌ لأنها وُلدت لـ «ناحوم» و«مارسيل» في عالَمٍ غيرِ مِثالي، ولو أنها وُلدت لأبلة «عنايات» العاقِر -مثلًا- أو كانت أُختًا أُخرى لصديقه «فريد»، لاختلفت الحياة!

***

جاء عام ١٩٥٤، وقد بدأت الأحداث تتوالى منذ بدايته، والجرائد كلَّ يوم تحمل قرارًا جديدًا وأمورًا لا يتوقعها المواطنون. وفاجأ محمد نجيب الجميعَ بإعلان استقالته في الخامس والعشرين من فبراير، لتسود

Visual Watermark

حالةٌ من الغموض والارتباك.. والترقّب. وبدأ البعض يتساءل عن مستقبل مصر في ظل قيادة الجيش لشؤونها. لقد اعتاد الشعب الجمهوريةَ الجديدة، كما بدؤوا يُعبِّرون عن محبتهم للرئيس الجديد، خاصةً بعدما أصبح مُتصدرًا الصحفَ بوجهه. بل انتشر بين رُكّاب القِطارات في أثناء الرحلات بين محافظات مصر، أن يُلقيَ بعضهم صورةَ نجيب على الفلاحين، وقد دبَّس بها «عشرة صاغ»، فيصيح الفلاحون مُعبِّرين عن محبتهم لمحمد نجيب.

إلَّا أن الأمر كان مختلفًا خلف الكواليس وبين قادة الثورة. وازداد الأمر سوءًا لدى نجيب، بعد أن أعلن مجلس قيادة الثورة حظرَ نشاط جماعة الإخوان المسلمين في يناير ١٩٥٤، وهم الذين كانوا في بادئ الأمر من أهم مُسانِدي الثورة، فاعتبر نجيب هذا القرارَ إخلالًا بالديمقراطية التي وعدَت الثورةُ بتحقيقها. ولذا، ومع كثرة اختلافه مع زملائه من مجلس القيادة، قدَّم استقالتَه. فاستمرت المظاهراتُ المؤيِّدةُ له لثلاثة أيامٍ متواصلة، لتتم إعادته إلى الحُكم مرةً أُخرى في السابع والعشرين من فبراير. ولكن الحياةَ لم تهدأ؛ فقد حاصر آلافٌ من المصريين قَصرَ عابدين في الثامن والعشرين من فبراير، ليُطالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته وإجراء انتخاباتٍ مدنية، كما طالبوا بتسريح السجناء السياسيين. لذا، خرج محمد نجيب ليُلقي فيهم خطبةً حاول من خلالها تهدئتَهم.

***

في لقائها المعتاد، قال «صابر» لـ «سيد» إن هذا الشعب تَلزمه قبضةٌ من حديد لتَحكمه، وإن محمد نجيب أضعف من أن يُصبح رئيسًا لمصر. فاعترض جارُه قائلًا إن عودته للحُكم كانت بقرارٍ من الشَّعب، وقد نفَّذ رغبتهم. ذلك لأن الجميع يرى فيه أملًا للحُرية التي فُقدت منذ قديم العهد، وأردف «سيد»:

– هذا الشعب يستحق فرصةَ إدارة شؤونه. لقد عانينا طوال عهد المَلكية من القمع. ألَا نستحق الآن الحرية؟ محمد نجيب كان يسعى لتحقيق هذا، ولنترك الخيار للشعب. ولكن.. من الظاهر أن أعوانه قد صاروا ضدَّه! ويريدون إرجاع مصر إلى عهود المَلكية بغطاءٍ خارجيٍّ مختلِف! ليس من المنطقي أننا كلَّما سِرنا خطوةً إلى الأمام، نعود خطوتين إلى الخلف!

لكن «صابر» خالَفَه رأيَه هذا، وكان يرى أن قِمة الحرية هي أن يتولَّى الجيشُ وحده أمورَ البلاد دون تدخُّلِ الأحزاب وقادتِها، فهُم الأصلح في هذا الوقت بالتحديد. كما أن الديمقراطية المفرِطة تؤدي إلى الخراب، وسيظن كلُّ فرد أنه الرئيس! وأضاف:

– وهل تظن أن الإخوان ينادون ببقاء نجيب حُبًّا فيه؟ هم يعلمون ضَعفه ورغبته في أن تُصبح مصر مدنيةً، ويظنون أنهم أول مَن سيصِل إلى الحُكم إذا ما أُجريَت انتخابات. لا أعرف كيف لا يستطيع محمد نجيب أن يرى ما يراه الجميع! مَن ينادي الآن بالديمقراطية اللامحدودة، سيدفع ثَمن ذلك باهظًا.

وارتشف «صابر» رشفةً من الشاي، ثم أردف:

– حتى إن ظنَّ البعضُ أن أي حاكم من الجيش غير نجيب، سيُصبح ديكتاتوريًّا، فهو مجرد إيهام يمنحه هذا الشعب لقائده، حتى يُقدِّم أفضلَ ما عنده.

لم يفهم «سيد» مقصدَه، وبدا عليه الاستفهام، فأردف «صابر» موضِّحًا:

– لقد كُنا في غفلةٍ لسنوات طوال، ولمَّا استيقظنا قامت الثورة. هل تعتقد أنها نجحت لمجرد خطةٍ نفَّذها مجموعةٌ من الضباط؟ لقد نجحت بيقظتنا، بتأييدنا، ووقوفنا بجانبهم. هل تظن أن حركتهم المبارَكة تلك، كانت لتنجح لو كُنا خرجنا منادين ببقاء المَلكية؟ بتاتًا! لقد كانوا عود كبريت، ولكننا نحن الشعلة يا «سيد». وانتهى دورُنا الآن. يجب أن يَكُفَّ هذا الشعب عن التفلسف الزائد. والشعلة في النهاية إذا ما أرادت أن تُضيء طريقَ الجميع، فيجب أن تَحملها الأكثرُ قوةً وارتفاعًا.

ولم تمرَّ سوى أيامٍ على تلك المحادثة بين الجارَين في القهوة، لتشتعل الأمور السياسية مرةً أُخرى. ففي الخامس من مارس، بدأت المظاهرات تعود بوضوح وحضور أكبر، وتوالت الاضطرابات، ووصلت الخلافاتُ مرةً أُخرى بين قادة الثورة ونجيب إلى ذروتها. وأصبح دورُ الإخوان في إشعال الأمور يأخذ مساحةً أكبر، لتَظهر الصورةُ أكثرَ اتضاحًا، الجميعُ يتناحر على السُّلطة. غير أنه ليس الجميع يَضع مصر نُصب عينه. ولم يكن الإخوان في صفِّ نجيب ولاءً له، فقد اشترطوا في أثناء كل هذا العراك السياسي مساندةَ عبد الناصر وباقي القادة ضدَّ نجيب، إذا ما سمح لهم بممارسة نشاطاتهم السابقة التي حُظرت. في لحظةٍ باعوا محمد نجيب. ولكن عبد الناصر اختار أن يُنهي تلك العلاقة، ورفض عرضهم. هكذا هي

Visual Watermark

السياسة، كلما اتضحت الصورةُ فيها، ازدادت غموضًا وتعقيدًا. تشتتت الآراء بين مؤيدٍ ومعارِض، وصار الوضع شائكًا على كافة الأصعدة.

***

في إحدى ليالي يوليو الصيفية بعام ١٩٥٤، جلست «فيفي» أمام الراديو هائمةً مع أغنية «على قد الشوق» لعبد الحليم حافظ، تستمع إلى الحفل المذاع من حديقة الأندلس. وجاءت «أم عثمان» بخطوات بطيئة بعد أن ألقت نظرةً على «فهمي» وأخيه اللذيْن ناما مبكرًا. وأحضرت غطاءً لتضعه فوق «آمنة» التي غطَّت في نومها بهدوءٍ على الكنبة بالصالة. ثم سحبت كرسيًّا من أمام طاولة الطعام لتجلس مع «فيفي»، وقد أسندت خَدها على قبضة يدها وهي تهز رأسها إعجابًا مع نغمات الأغنية.

كان صوت المذياع قد وصل إلى غُرفة نوم «سيد» و«عليَّة» من بين فتحة الباب الموارب. جلست الزوجةُ على السرير مُسندةً ظَهرها وهي تحيك مفارش صغيرةً من الكروشيه، وبجانبها «سيد» يقرأ الجريدة. وقد زفَّت له خبرَ حملها بالطفل الرابع منذ ثلاثة أشهر. سعد كلُّ أهل البيت آنذاك، وأولهم زوجها، بالمولود القادم، غير أن أحداث البلاد شغلت الجميعَ، فنسوا أمرَ حملها مع الوقت.

ومع كلمات الأغنية المذاعة، شرَد عقل «فيفي» إلى الطابق الأول حيث يسكن «حسين». ذلك الحُب البريء الذي بدأ يَدق قلبُها به فجأةً منذ أشهر قليلة. وكانت الأيام السابقة تحمل الكثيرَ من الوقوف لساعاتٍ أمام المرآة، خاصةً بعد بلوغها، فقد بلغت قبل أن تُتم الثانيةَ عشرةَ من العُمر بيوم واحد. وأصابها حينها الذعرُ للحظاتٍ على الرغم من عِلمها بالأمر من أحاديث الفتيات بالمدرسة. ولكن والدتها احتوت الموضوع بهدوء ودون الكثير من الكلام، وأعطتها قِطعًا من أقمشةٍ لتستخدمها في فترة الدورة الشهرية، مع ضرورة غَسلها بعد كل استخدام، لتَغليها لها «أم عثمان» بعد ذلك في الماء الساخن. غير أن مَن أحيَت إحساسَ الأنوثة بداخلها هي «أم عثمان»، عندما قالت لها بفرحة شديدة:

- أصبحتِ فتاةً راشدةً الآن، والعرسان سيدقون الأبواب، ولن نلاحق عليهم من كثرتهم!

نسيَت «فيفي» رغباتها الجامحة في أن تصير نجمةً سينمائية كـ«فيروز»، وأن ترتدي الطربوش والجلباب! وكانت تشعر بالاشمئزاز من نفسها أنها ذات يوم قد فكَّرت بارتداء شيء غير الفستان. وبدأت تُمضي أوقاتًا أطول أمام المرآة، تنظر إلى التفاف جسدها، وتمر بكفَّيها فوق انحناءاته، تفكُّ ضفائرها وتُمشطها لساعات، وهي تتأمل لون عينيها. وحين يدقُّ باب البيت تركض مسرعةً علَّه يكون «حسين» يسأل عن أخيها. فإن وجدته، تقف لتُحدثه في أي شيء قبل حضور أخيها، ليأتي بدوره آمرًا بدخولها. وقد ظهرت عليه هو أيضًا أمارات البلوغ، ونما خَطٌّ من الشارب الخفيف لشابٍّ صغيرٍ أتم الرابعة عشرة من عمره.

أدركت «فيفي» أنها تحب «حسين» منذ طفولتها دون أن تدري؛ تتذكر المشاعر الغريبة التي كانت تعتريها كلما رأته، وأحاسيسها كلما ذُكر اسمه، فآمنت أن الحُبَّ لا عُمر له، وأن العشق يولَد معنا يوم مَولدنا.

***

جلست أُسرة «سيد» حول الراديو في المساء، في ترقُّبٍ لخطاب عبد الناصر الذي سيلقَى بعد لحظات.

وقف جمال عبد الناصر بميدان المنشية بالإسكندرية في يوم السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٥٤ يُلقي كلماته بمناسبة ذِكرى توقيع اتفاقية الجلاء، وبدأ خِطابه قائلًا:

«أيها المواطنون، يا أهل الإسكندرية الأمجاد، أُحب أن أقول لكم، ونحن نحتفل اليوم بعيد الجلاء، بعيد الحرية، بعيد الاستقلال، أُحب أن أتكلم معكم عن الماضي وعن كفاح الماضي، أحب أن أعود إلى الماضي البعيد. أيها المواطنون، أُحب أن أتكلم معكم كلامًا هادئًا..»

وكانت الهتافات بين الحشد الكبير لها صوتٌ مرتفعٌ للغاية وهي تنادي باسمه، فصاح عبد الناصر بانفعال شديد ليَصمت الجميع في لحظة واحدة، وقال:

«كفانا هتافًا أيها الإخوان، فقد هتفنا في الماضي، فإذا كانت النتيجة؟ هل سنعود إلى التراقص مرةً أُخرى، وإلى التهليل؟ هل سنعود إلى التهريج؟ إنني لا أُريد منكم أن تقرنوا اسمَ جمال بهذه الطريقة. إننا إذا كنا نتكلم معكم اليوم، فإنما نتكلم لنسير إلى الأمام بجدٍّ وبعزم، لا بتهريج ولا بهتاف. ولا أُريد جَمال مطلقًا لتهتفوا باسمه، إنما نريد أن نعمل لنبني هذا الوطن بناءً حُرًّا سليمًا أبيًّا، ولم يُبنَ هذا الوطنُ في الماضي بالهتاف. وإن الهتاف لجمال لن يبني هذا الوطن. ولكنا يا إخواني سنتقدم وسنعمل، سنعمل بالمبادئ،

Visual Watermark

وسنعمل للمبادئ، ونعمل بالمُثل العليا. بهذا سنبني هذا الوطن. وأرجوكم أن تُصغوا إليَّ، وأنا إذا كنتُ أتكلم معكم اليومَ في الاحتفال بهذه الاتفاقية وفي الاحتفال بهذا الجلاء، وفي الاحتفال بهذه الحرية، فإنما أُريد أن أُذكركم بالماضي وبكفاح الماضي، بكفاحكم أنتم وبكفاح آبائكم وبكفاح أجدادكم. أُريد أن أقول لكم لقد بدأتُ كفاحي وأنا شابٌّ صغيرٌ من هذا الميدان. ففي سنة ٣٠، في سنة ١٩٣٠، خرجتُ وأنا شابٌّ صغيرٌ بين أبناء الإسكندرية أُنادي بالحُرية وأُنادي بالكرامة لأول مرة في حياتي، وكان هذا يا إخواني أول ما بدأت الكفاح من هذا الميدان. وأنا إذ أتواجد بينكم اليوم، لا أستطيع أن أُعبر عن سعادتي، ولا أستطيع أن أُعبر عن شُكري لله حينما أتواجد في هذا الميدان وأحتفل معكم أنتم يا أبناء الإسكندرية، يا مَن كافحتم في الماضي، ويا مَن كافح آباؤكم، ويا مَن كافح أجدادكم، ويا مَن استُشهد إخوانٌ لكم في الماضي، ويا مَن استُشهد آباؤكم. أحتفل معكم اليوم بعيد الجلاء، بعيد الحرية، بعيد العزة وبعيد الكرامة».

دوَّت الطلقات النارية ما إن أنهى تلك الكلمة، ثماني طلقاتٍ وُجِّهت إليه، وثارَ الحشد الذي تعدَّى مئات الآلاف، بينما صرخ عبد الناصر بأعلى صوته بعد لحظات قليلة: «فليبقَ كلٌّ في مكانه أيها الرجال! فليبقَ كلٌّ في مكانه أيها الأحرار!» وظلَّ يكرر تلك الجملة حتى بُحَّ صوتُه.

هاج وماج المستمعون في أنحاء البلاد، وقد اخترق صوتُ الرصاص آذانهم عبر أثير المذياع، وانفعل الجالسون على المقاهي، وفي الأراضي الزراعية، في البيوت والعمائر والقصور. كما انزعج «سيد» وبدأ يَخبط بيده على رأسه، وتحاول أُسرته تهدئته، وهو يقول: «الخونة! لا يريدون لبلادنا السلام!»

وسمع الجميع صوت الأقدام المسرعة على درجات السُّلم، ومن بَعدها طُرِق البابُ بعنفٍ، فوثب «سيد» ليفتح، وقابله صياح «صابر»:

- سمعت يا «سيد» المهزلة؟ أقطع دراعي إن لم يكن الإخوان خلف هذا العمل الخبيث.

وكان الخطاب لا يزال يُبث، فسحب «سيد» كرسيًّا من أمام الطاولة وأشار لجارِه بالجلوس، ليسمع صوت عبد الناصر وقد ظهر أكثر قوةً على الرغم من بَحته من كثرة الصياح، حتى بهدأ الجمع، وهو يقول: «دمي فداءٌ لكم.. حياتي فداءٌ لكم.. دمي فداءٌ لمصر.. حياتي فداءٌ لمصر».

استيقظَ الشعبُ صباح اليوم التالي على الخبر المنتشر في الجرائد أن الإخوان المسلمين هم مَن دبَّروا لهذه المحاولة الآثمة. وقد نجحت التحرياتُ في معرفة الخائن الذي كان واقفًا بين الجموع ليُطلق الرصاص، وقُبض عليه وعلى آخرين من الجماعة. وحاول الإخوان أن يُصدروا للشعب أن حادث المنشية كان تمثيليةً، ظنًّا منهم أن مَن قُبض عليهم لن يبوحوا بشيء. غير أن الجاني اعترف.

ولم يكن من الغريب أن تتم إقالة الرئيس محمد نجيب عن منصبه بعد أسابيع قليلة من حادث المنشية، خاصةً بعد أن ارتبط اسمُه في الفترة الأخيرة بدفاعه عن الإخوان وموالاته لهم. ونُشر قرارُ عزله في كل الجرائد، وقد كُتب تحت هذا القرار: «يَظلُّ مَنصب رئيس الجمهورية شاغرًا». نُفي محمد نجيب إلى قَصر زينب، واختفت آثاره مع الأيام من ذاكرة الصحف.

***

اتَّشح البيت بالسواد دون إنذار؛ فقد فارق السيد «حافظ» الحياةَ على إثرِ أزمةٍ قلبيةٍ باغتته فاستسلم لها. وحزن الجميع، وخاصةً «فريد». ذلك لأنه لم يكن ليتخيل الحياةَ ولو للحظة بلا جده، وبكى خلسةً على فقيده دون أن يراه أحد. وعلى الرغم من الحزن العارم الذي شعر به الجميع، إلا أن اللهَ ألهمهم الصبرَ والسكينة، وخفَّف من وطأة الفقد، فجاء رحيلُه هادئًا مثله تمامًا. وقدِم «عادل» وأُسرته من دمياط ليأخذ عزاء والده، وقد بدا شديدَ التأثُّر لفقدان أبيه. وعلى عكس الجميع، ضلَّت السكينةُ طريقَها إلى قلبه، فاكفهرَّ وجهُه، واعتراه الهم، ونحف جسدُه فجأةً وكأنما الفاجعة قد التهمته، وظهر الشَّيب المفاجئ في خصلات شَعره دون أن يدري! تذكَّر كلَّ كلمات أبيه ونصائحه، وودَّ لو يعود إلى الحياة لكي يعتذر له عن أنه كان دائمًا ما يُخيِّب ظنَّه. وحينما وصل، اندهشت «عليَّة» من ملامح أخيها التي كبرت، عانقته تواسيه، وارتمى بعدها في حضن والدته فور أن رآها، ليبكي بحُرقةٍ كالأطفال، واعتذر لها عن غيابه الذي يطول وأنه لم يكُن يزورهما كثيرًا. قالت له «كوثر» بنبرة هادئة، وقد جفَّت عيناها من كثرة البكاء:

- لا تقلق.. أبوك مات وهو راضٍ عنك.

اقترب «فريد» ليُحَيي ابنَ خاله، «سمير»، الذي وقف بعجرفةٍ متأفِّفًا من الجمع العائلي، فمدَّ يده بتعالٍ ليقول كلمةً واحدةً:

Visual Watermark

- أهلًا.

ثم عاد ليضع يديه في جيبه، ينظر حوله ولا يَظهر عليه أيُّ تأثُّر لرحيل الجد. وابتعد عنه «فريد» ثم جلس يراقبه، وكره أفكارَه القديمة بالحصول على الأموال الطائلة وامتلاك صيدناوي، اشمئز وامتعضَ وجهه وقد تخيَّل نفسَه كابن خاله المتعجرف هذا بفعل الغِنى الفاحش، فتحول إلى شخصية متغطرسة متعاظمة على الرغم من سفاهتها في نظره. وأدار رأسه ينظر إلى خاله الذي لم يُعره ابنُه البِكر أيَّ اهتمام يُذكَر. اشتد بكاء «عادل» رغمًا عنه، وحاولت زوجتُه وأختُه تهدئته، ولكنه لم يهدأ، ولم تسكن روحه.

لقد مضت الأيام عليه ثقيلةً مؤخَّرًا، خاصةً بعد إصدار قرار الإصلاح الزراعي وما نتج عنه، فتأثر به «محسن»، وقد حلَّ عليه هذا القرار كالصاعقة، وظلَّ مُترقِّبًا تبعاته. وقال له «محسن» بعد توالي الخسارات إنه من الأفضل أن يبحث عن عمل، فلن يستطيع مساندته من الآن فصاعدًا. فانقلب حالُ «عادل» رأسًا على عقِب، واسودَّت أيامُه. كما أصبحت الحياةُ مع زوجته كئيبةً يملؤها الكثيرُ من الخلافات. وأمضى أيامًا طوالًا يُفكر مهمومًا: أي عمل هذا الذي سيبحث عنه بعد هذا العُمر!

❋❋❋

على الرغم من تعلُّق «فريد» بجده الراحل وتأثره الشديد به، إلا إنه لم يأخذ أيَّ شيء من ملامحه، سوى نظارته، فقد ارتدى النظَّارةَ الطبيَّةَ مثل جده «حافظ»، وفرِح يومها فرحًا عجيبًا، على خِلاف ما توقَّعه «سيد»، فقد كان حينها لا يزال صغيرًا، وخشي والده أن يتعرَّض للاستهزاء من زملائه في المدرسة، فقد كان نادرًا ما يرتدي أحدٌ نظَّارةً في هذا العُمر، لكن «فريد» كان فخورًا يزهو بها ويتباهى، مُتيقنًا ان النُبهاء فقط مثله ومثل جده «حافظ» هم من يضعُف نظرهم لكَثرة القراءة والاطِّلاع، في حين أن ملامحه كانت نسخةً طِبقَ الأصل من جده لوالده، «حمودة». فقد ورِثَ لونَ بَشرته المصرية الأصيلة، على خلاف أبيه الذي ورث جينات أُمه الأرمينية وملامحها. كما ورِثَ طولَ جده «حمودة» الفارع وجسدَه قويَّ البِنية.

وعرفت مؤخَّرًا ماكينة الحلاقة طريقها إلى شاربه الذي بدأ ينمو قليلًا، كما برزت نظرةُ عينيه شديدتي السواد من خلف زجاج نظَّارته، ومن فوقهما حاجباه الكثيفان. وأصبحت نبرةُ صوته أكثرَ خشونةً ووضوحًا. وكانت جدته «آمنة» عندما تسمع صوتَه في البيت، تنهلل أساريرها كأنها تسمع صوتَ زوجها الراحل. وأحيانًا ما تناديه ليجلس بجانبها، ثم تتحسس ملامح وجهه بأناملها، كأنها تحاول أن تسترجع معها ملامح زوجها الذي لم ترَه سوى في أحلامها. وكان «فريد» هو الأقرب إلى قلبها من بين أحفادها، ليس فقط لإدراكها تشابهه مع زوجها، ولكنها مَحبة الحفيد الأول التي غمرتها لحظةَ ولادته. فشاركته دون الآخرين الرؤى التي تراها كلَّ يوم.

كانت الأحلام هي الوسيلة الوحيدة لـ «آمنة» لرؤية العالَم الواقعي، ولكنها لم تكُن ضربًا من الخيال، فقد توقعت ما حدث في مصر قبل أن يحدث بعام كامل، وقالت لحفيدها ذات يوم بعد الثورة:

- لقد رأيتُ الملك فاروق وهو يركض بين الناس عاريًا باللباس!

ضحك حفيدها بشدة، وشعر بالخجل مما قالته الجدة، ثم علَّق قائلًا:

- ياه يا نينه! عريان مرة واحدة! طيب وكيف بدت ملامحه؟

وصفته حينها الجدةُ بدقةٍ لا مثيلَ لها، بشاربه وتقاسيم وجهه، وبوزنه الزائد! وانبهر الحفيد إلى حدِّ دفعه إلى تمرير كفِّ يده أمام عينيها، علَّها ترى!

كما أخبرته أول أحلامها التي تحققت بعد قدومها إلى مصر. وقالت لحفيدها آنذاك وقد جلس أمامها منصتًا في انبهار:

- كنتُ أعرف أن جدك سيُستشهد في أحداث ثورة ١٩، توسلتُ إليه بدموعي في صباح يوم خروجه أن يظلَّ معي. وكان أبوك صغيرًا، ضممته إلى صدري وبكيتُ بشدة، لأنني عرفتُ أنه سيصبح يتيمًا. أذكر أنني تظاهرت بالمرض حتى لا يخرج من البيت، وجثوتُ على ركبتيَّ آملةً أن يُشفق على حالي. إلا أنه كان عنيدًا، مثلك ومثل أبيك! ورفض قائلًا لي إنه سيعود مُبكرًا. ولم يعد.. مثلما رأيتُ في حُلمي.

سكتت لبرهة وهي تحكي له، ثم قالت ووجها مبتسم بارتياح:

- أتعرف يا «فريد»؟ لقد رأيتُك أيضًا قبل ولادتك، وبشَّرتُ أباك عندما علمنا بحمل «عليَّة» أن المولود القادم سيكون صبيًّا، وليست فتاة، وستُصبح ملامحه عندما يكبر تمامًا كملامح «حمودة». وتأكد حُلمي

Visual Watermark

بولادتك يا نور العين.

تأثر «فريد» بأحلام جدته وحكاياتها لأشهر عديدة. غير أنه بعد عدة أيام من وفاة جده «حافظ»، عاد من المدرسة مغلَّفًا بالكآبة حزنًا على رحيله، وجلس إلى جانبها في استكانة، وقد بدا البيتُ هادئًا لا أحد فيه غيرهما. ثم سألها بعد لحظاتٍ طويلةٍ من التردد المريك الذي تخلَّله الصمت:

- كنتِ تعلمين يا نينه أن جدي «حافظ» سيموت؟

تحسَّست الجدة المسافةَ القصيرة بينها وبين حفيدها، لتُربت عليه، ثم قالت:

- ربما من الأفضل لنا يا بُني ألَّا نعلم ما سيأتي به الغد. إنني أعرف مدى ارتباطك بجدك، رحمةُ الله عليه. ولو أنني قلتُ لك لأصابك الحزنُ قبل ميعاده.

قبَّل «فريد» يدَها، ثم سرح في بؤبؤ عينيها الخضراوين يحاول قراءةَ المستقبل فيهما. وسكت لبرهة يفكر في إعجازها، وحاول تذكُّر أحلامه. لقد حلم في المرة الأخيرة منذ عدة أسابيع، وقد تأثر حينها برواية «القصر المسحور» لطه حسين وتوفيق الحكيم، وكانت من الروايات التي استولى عليها «فريد» من مكتبة جده بعد وفاته. أغمض عينيه للحظات يُحاول تذكُّر حُلمه. وقد رأى نفسَه بقصر شهرزاد، وزُجَّ به في السجن ليجِد نفسَه مرافقًا لتوفيق الحكيم، ثم ظهر فجأةً بائعُ عِرق سوس يناديهما من بين قضبان السجن، وصبَّ لهما كوبين من المشروب، ثم رحل..

اتسعت عيناه فجأةً ليسأل جدته في حَيرة:

- تُرى ما معنى العِرق سوس في المنام يا نينه؟

فضحكت «آمنة» لتقول:

- الظاهر إنك نسيت أن تتغطى يومها يا واد..

عُرف عن «آمنة» منذ طفولتها أن أحلامها تكون عادةً بمثابة الرؤى، منذ أن استيقظت وقد رحل عنها البصرُ بلا إنذارٍ مسبَق، ولم تكن قد بلغت خمسَ سنوات بَعدُ! ولكنها استقبلت الأمر بتقبُّل بالغ. وبغياب البصر، حلَّت الأحلام، وأخذتها لبضع سنوات إلى والديها اللذيْن لم ترهُما في الحقيقة، فقد نشأت في أحد الملاجئ. لذا كانت تنتظر حلولَ الليل بفارغ الصبر حتى تُمضي ساعات نومِها معهما. غيرَ أن أحلامها تجاوزَت رؤيةَ أبويْها، وصارت ترى أشياءَ لم تكن تفهمُها لصغر عمرها. ورويدًا رويدًا أدركت أن تلك الرؤى تتحقَّق، مهما مرَّ من الزمان.

وحينما قررت البوح لحفيدها بأمرِها هذا، أصبحت تجلس معه كثيرًا لتحكي له أحلامها القديمة وما تحقَّق منها. وحدَّثته كثيرًا عن أهل قريتها الصغيرة قبل أن يتم تهجيرُهم، وكيف أنهم كانوا يعلمون أمرَ أحلامها منذ صِغرها. وكانت قد تنبأت بما سيحدث لهم على يد الأتراك، قبل الإبادة بسنوات. ولكنها فضَّلت ألَّا تحكي لحفيدها التفاصيل التي رَوتها لأهل القرية. حاولت أن تنسى لسنواتٍ طوالٍ فاجعةَ الإبادة التي رأتها بصورةٍ أسوأ في حُلمها. فقد رأت الدماء تُغطِّيها وتجري كالنهر في قريتها، الجثث عائمةً كالأسماك النافقة، والشمس في حُلمها سوداء اللون! الضوء يشع من لهب النيران التي كانت تتساقط من السماء فوق الرؤوس، الأطفال عَجزةٌ بشعور بيضاء، والنساء عرايا تخرج الدماء من أفواههن ومن بين أرجلهن، والرجال بلا أعين، تخرج أمعاؤهم متدليةً منهم، ويحاولون حملها بين أيديهم وهم يصرخون بلا صوت!

سألها «فريد»:

- يعني كل أحلامك يا نينه تتحقق؟ هذا إعجاز!

فأجابته:

- بل لعنة يا بُني.. قُدِّر لنا ألَّا نعرف ما سينتظرنا في الغد.. الغموض هو قدَر المستقبل.. فإذا زال الغموض حلَّت الرهبة والمخاوف.. فلا متعة المفاجأة بالأخبار السعيدة ولا راحة في التنبؤ بالأمور التعيسة. والأسوأ من كل هذا هو الانتظار يا بني.. الترقُّب ثقيلٌ على الروح يا حبيبي.. أحيانًا أرى منامًا ويتحقق بعد يوم، وربما بعد سنوات. كل شيء يحدث بلا ترتيب، ودون منحِ الفرص للتأمُّل له، ولكن.. ربما لمنحي فرصةً أخيرةً للنسيان.

فقال «فريد»:

Visual Watermark

- خلاص أنا هساعدك.. من هنا ورايح سأحضر كراسًا وأكتب به أحلامك، فإذا مرَّت السنوات وتحققت، سنعرف.

أخذت الجدة نفسًا عميقًا ثم ابتسمت وهي تقول:

- ياه يا «فريد»! ستساعدني على التذكر، وأنا كلُّ ما أتمناه هو النسيان!

ولم يكن مجرد اقتراح.. فمعرفته بأن الجدة كانت تعلم وفاة «حافظ» قبيل حدوثها دفعه لشراء كراس جديد، وطلب من جدته أن تحكي له حُلم وفاة الجد، ولكنها رفضت قائلة:

- لا تبحث يا بنُي عن التفاصيل المؤلمة من الماضي..

تأفف «فريد» ثم قال لها:

- حسنًا، ولكن من هنا ورايح ستحكي لي التفاصيل.. كل التفاصيل يا نينه..

وأحضر كراسه ثم كتب في صفحته الأولى: «أحلام جدتي آمنة»، وكتب في الصفحة التالية: «الحلم الأول، وفاة جدي «حافظ».. بلا تفاصيل».

***

كادت «عليَّة» أن تفقد حياتها في أثناء ولادتها، وظهرت علاماتُ المَخاض عليها منذ ساعات الفَجر الأولى. نزفت نزفًا حادًّا غطَّى السرير وبدأت قطراتُه تتساقط على الأرض! وكان لرحيل أبيها التأثير الأقوى على سوء حالتها الصحية والنفسية. جلست «كوثر» بجانبها تمسح بيدٍ مرتعشةٍ العَرق الذي غطَّى جبين ابنتها، تحاول تهدئة روعها وصراخها. وكان الأبناء في تلك اللحظات ومعهم «أم عثمان» يقفون خارج الغرفة، يبكون على صوت صراخ أُمهم، خاصةً «فهمي» الصغير. أمَّا «سيد» فقد ظلَّ يذرَعُ صالةَ البيت وممرَّه ذهابًا وإيابًا وهو يَحرق سجائرَه، وتحاول أُمه تهدئته. وسمع الأبناء طَرق الباب الذي تجاهله الأب، فركض «فهمي» بوجهه الباكي وفتح ليجد «عنايات»، ربتت عليه في محاولةٍ لتهدئة خوفِه، لكنها لم تُفلح، فنظرت إلى الجميع وهي تقول:

- ها؟ لم تلِد بعد؟

جلس «سيد» على الكنبة بجانب والدته، وتنهَّد في قلقٍ واضحٍ وهو يقول:

- لسه.. الله يستر..

وفي تلك اللحظة سمع الجميع صراخ المولود.. وهرعت «عنايات» تدخل الغرفة وهي تزغرد، لتطمئن على «عليَّة». ومرت لحظاتٌ كالدهر على «سيد» قبل أن تخرج «عنايات» قائلةً بسعادة:

- مبروك يا «سيد»! جالك ولد.. جميل كالبدر.

قفز الأبناء فرحين يقولون بصوت مرتفع: «هيه!» ودخل «سيد» بعد خروج الداية التي أوصتهم بضرورة راحة «عليَّة»، ليُقبِّل يدَ زوجته وجبينها، ثم حمل الصغير وهو ينظر إلى وجهه بسعادة، وقال لزوجته:

- جَمال.. سنسميه جمال..

أومأت زوجتُه برأسها موافقةً وقد بدا عليها الإرهاق الشديد. ودخل الأبناءُ يتبارون لحمل الصغير، عدا «فريد» الذي هرع ليهمس في أُذن جدته:

- تحقق حُلمك الثاني في كراسي يا نينه! وأنجبت ماما ولدًا! أنتِ ما حصلتيش يا نينه!

ضحكت الجدة، ثم خبطته خبطةً خفيفةً وهي تقول:

- اسكُت يا ولد!

***

وُلد «جَمال» في يوم الجمعة الموافق الثالث من ديسمبر لعام ١٩٥٤، سعِدَ به «سيد» سعادةً بالغة، وزفَّ الخبرَ لكل مَن قابلهم في المسجد بعد الصلاة، قائلًا بابتسامة واسعة لمَن يعرفه ومَن لا يعرفه:

- حلَّت بركاتُ الجمعة، ورَزقنا اللهُ اليومَ بـ «جَمال»!

هنأه الرجالُ واحتضنوه مباركةً له. وفي البيت، وبعد أن أعدت «أم عثمان» الشوربة والدجاج المسلوق لـ «عليَّة»، وغيرها من الأصناف تحت إشراف «كوثر»، تناول أهلُ البيت الغداء. ونام المولود الجديد بجانب

Visual Watermark

والدته المنهَكة، فبدا البيت هادئًا للغاية. وغطّت «آمنة» في قيلولةٍ عميقةٍ فوق الكنبة فصعد منها صوتُ شَخيرٍ متقطع، ولم توقِظها رائحةُ المُعات القوية، الذي وقفت تُعده «كوثر» بالمطبخ. قرَّر «سيد» أن يتجاهل قيلولته المعتادة، وألقى نظرةً طويلةً امتلأت بالبهجة على زوجته النائمة والمولود المبارَك. وخرج مرةً أُخرى بعد الظهيرة في سعادةٍ ليقوم بتوزيع زجاجات الكازوزة على كل رجال القهوة. وكان هذا اليوم هو الأول الذي يُقرر فيه الخروج دون طربوشه؛ ولّت الأيام التي كان يهتم فيها بطرابيشه ولا يطأ الشارع دونها. اختلفت ملامح البلاد بعد الثورة وخلعت مع المَلك طرابيش المصريين، فتفتحت العقول لتُواجه السماء بلا حجاب. وكان ابتهاجه بمولوده مختلفًا عن كل المرات السابقة، كأن «جمال» مولوده الأول! نسي «سيد» مع مرور السنوات ملامح الأطفال الصغار وتفاصيلهم. فقد بلغ ابنه «فهمي» الحاديةَ عشرةَ من عمره، بينما بدا الكبيران «فريد» و«فيفي» كأنهما في ريعان شبابهما. فأحس كأن «جمال» قد جلب معه شيئًا من عنفوان الماضي وشبابه. ولكن من ناحية أُخرى، أخذ المولود الجديد كلَّ ما تبقى من حيوية «عليَّة» وبقايا شبابها. ظلَّت لشهر كامل تبكي كلَّ ليلة دون سبب واضح، وملَّ زوجُها بكاءَها، كما انشغل الجميعُ بالرضيع، حتى إنهم أصبحوا لا يُبدون اهتمامًا كبيرًا لحالها التعيس!

لكن «أم عثمان» كانت أكثر سكان هذا البيت تأثُّرًا بحال سيدته، واعتقدت أن «عليَّة» قد أصابتها العين، لأن نساء تلك العمارة لم تُنجب أيٌّ واحدة منهن منذ سنوات عديدة. فأحضرت مَبخرةً لتُمرر «عليَّة» من فوقها سبعَ مرات، واقتطعَت ورقةً على شكل عروس وبدأت بتخريمها بالإبرة، وهي تذكُر مع كلِّ ثقبٍ تصنعه اسمَ فردٍ من الأُسرة والجيران وكلِّ مَن يعرفونهم!

ونامت «عليَّة» ليلتها مقبوضةَ النفْس، حزينةَ القلب، لا تدري ما حلَّ بها. تدَّعي النوم، وتُطبق عينيها سريعًا فوقَ دموعها إذا ما استيقظ الصغيرُ النائم بينها وبين أبيه، فيستيقظ «سيد» ويَحمله ليلاعبه ثم يُهدهده بسعادة، وعندما يفشل في إيقاظ «عليَّة» من سُباتها الزائف، يأخذ الصغيرَ إلى أخته «فيفي» لتحمله وتُحضِّر له رضعته، فلم تستطع «عليَّة» إرضاعَ الصغير من ثديها كما فعلت مع إخوته.

مرَّ شهرٌ وبضعة أيام، لتستيقظ «عليَّة» كأنها امرأةٌ أُخرى وقد دَب فيها النشاط وبدأت الدماء تعود إلى وجنتيها رويدًا رويدًا، وكأنها عادت ابنةَ السابعةَ عشرةَ من جديد.

لم تكن «عليَّة» مُتعلِّقةً بابنها الأخير كما كانت مع باقي أبنائها، فتولَّت ابنتُها مسؤوليتَه كأنه دُميتها المفضَّلة! وأصبحت بمثابة الأُم الفعلية لـ «جمال». ولم يكن يُبعدها عنه سوى ذهابها إلى المدرسة.

ولاحظ «سيد» هذا الاختلافَ المفاجئ الذي حلَّ بزوجته، ونضارةَ وجهها وإشراقَه الذي بدأ يعود، نظر إليها وقد تجلَّى جمالها كأنها تلك التي رآها للمرة الأولى في طريقها إلى مدرستها، فاشتعل الحُبُّ في قلبه ليُباغته برغبةٍ شديدةٍ كتلك التي اعترته في ليلة زواجه الأولى.

دخل عليها غرفةَ نومها ليجدَها جالسةً أمام المرآة تُمشط شَعرها، سحبها من يدها وعانقها وهو يقول:

- أعلم أنكِ تُحبين أغاني عبد الحليم، سيُعرض فيلمه الأول «لحن الوفاء» مع شادية، ما رأيكِ أن نذهب لمشاهدته في السينما غدًا؟

ابتسمت «عليَّة» في خجلٍ شديد، ثم أومأت برأسها موافقةً.

***

كان «فريد» شديد الاختلاف عن زملائه الذين انقسموا ما بين الحديث عن السياسة أو قِصص الحب التي أشعلت قلوبهم. انهمك في دراسته للغاية واستمر في نجاحه كلَّ عام بتفوُّق لافت للنظر. ويَظن مَن لا يعرفه أن لديه شخصيةً باردةً لا تُبدي مشاعر محددة، فهو لا يُظهر الكثيرَ من أحاسيسه، ولا يضحك على النكات بصوتٍ مرتفع كباقي رفقائه، ثابتٌ في انفعالاته، يقف دائمًا بينهم ضامًّا ذراعيه حول صدره. يعرفه الجميع من وقفته تلك، والتي تجعله يبدو كأنه عمودٌ خرساني ثُبِّت بين الأرض والسماء! كما كان لا يُفضل الخروج كثيرًا. وقلَّت أحاديثه مع «حسين» بعد أن أصبح الأخيرُ منهمكًا في شؤون البلاد وما حدث بالأمس. بينما لم يكترث «فريد» سوى بالتفكير فيما سيحدث له في الغد؛ يُفكر في الجامعة التي سيلتحق بها، والمكانة التي سيحظى بها. وقد تمردت أفكاره على كل مَن حوله، مُحدِّثًا نفسَه بأنه لا يُهمه ما سيعرفه عن الجميع، إذ كان همه الأكبر ما سيعرفه الناس عنه. يرى «فريد» أنه ليس من العدل أن ينشغل الشبابُ بحُكَّام الدول دون أن يُفكروا في أنفسهم، وأنه من الجهل أن يُمجدوهم ويَسعَوا لإرضائهم، وأنه من الأولى أن ينشغل الحُكام بمصالح الشعوب وجيلها الصاعد، وليس أن تنشغل الشعوبُ بمصائر حُكامها!

Visual Watermark

ولا يُعبر «فريد» كثيرًا عن رأيه هذا، بعدما احتدم الحديثُ بينه وبين والده ذات ليلة، عندما قرر «سيد» تعليق صورة جمال عبد الناصر في صالة البيت تمجيدًا له، وقال حينها «لولا هذا البطل، لكان من المستحيل أن تُفلتنا مخالب المَلكية»! اختلف معه ابنُه وقال إن عبد الناصر لم يكن ليفعل شيئًا بلا مساندة الشعب، إن الأبطال الحقيقيين هُم الشعوب وليس القادة، وإنه كان من الأفضل أن تُزيَّن الشوارعَ والواجهات صورُ المصريين الذين سالت دماؤهم بدلًا من صورِ قائد واحد!

وبدا «فريد» دائمَ الانتقاد لكل الآراء ومعارِضًا لها. وكان انتقاده هذا نابعًا من إحساسه بأنه أفضل وأكثر معرفةً من كل مَن حوله. ولأنه أصبح يُعبِّر بثقةٍ عما يدور في وجدانه، قلَّت لقاءاته مع «حسين» بعد أن وصفه بأنه مغرور، وحينما قال له «فريد» بثقةٍ إنه يتحدَّى إن كان عبد الناصر قد قرأ ما قرأه هو في كل مجالات الحياة، وأن انتصاره هذا ما هو إلا حظٌّ حالفَه، نظر له «حسين» بامتعاض، وتأكَّد أنه بَعيدٌ عن الوطنية وأن أفكاره لا تختلف شيئًا عن المَلكية وغرور المَلك! فتوتَّرت علاقتُهما وما عادا صديقيْن كما كانا، ولكن «فريد» لا يُبالي، هو يؤمن أنه على صواب. بل يعتقد أنه لو صار رئيسًا لهذه البلاد لغيَّر أحوالَها أفضل بكثيرٍ من حالها الآن، خاصةً وأن معه «مصباح علاء الدين»، أحلام جدته التي ستنبئُه بما سوف يحدث في الغد البعيد، وحينها لن يُمانع أن توضَع صورته في كلِّ أنحاء البلاد!

***

جلست «فيفي» في ملل ونفادِ صبر، تنتظر عودة جارها، فقد رأته منذ العصر واقفًا بين أصدقائه في الشارع، ليُقرروا بعدها الرحيل. وظلَّت تراقبهم وهم يسيرون مبتعدين حتى اختفوا من أمام عينيها. ومرت الساعات وبدأت الشمس في المَغيب. تحرك الكون من حولها ولكنها لم تتحرك من مقعدها خوفًا أن يعود دون أن تراه، حتى إنها تجاهلت رغبةً مُلحة لدخول الحمَّام! وكل هذا سببته نظرةٌ واحدةٌ تبادلاها منذ أشهر قليلة، فتبخَّر على إثرِها حُبُّ «حسين» الأول لجارته اليهودية مع الأيام، وشعر بما تشعر به «فيفي». غير أنه لم يكن يجرؤ أن يُحدِّثها عمَّا يعتلج في قلبه. وكان حين يصادفُها في مدخل العمارة، يُدير وجهَه في اتجاه آخَر وهو يسألها عن أحوالها في دراستها باقتضاب، فتُجيب بكلمةٍ أو اثنتين مرتعشتيْن من فرط مشاعرِها المُحبةِ له، فيذوب في صوتها الرقيق، ويلتفتُ لينظر إلى عينيها نظرةً سريعةً خاطفةً، ولكنها كافيةٌ لإشعال العاطفة في وجدانهما معًا!

دخلت «أُم عثمان» الشُّرفةَ لتُصاحب الفتاةَ في جلستها، وقد علمت بما يموج في قلبها، فربتت على كتفها وهي تقول:

- هل ستظلين هكذا طوال اليوم يا «فيفي»؟ مصير الغائب يحضر..

تأففت «فيفي» لترد على «أُم عثمان» وقد شردت عيناها في آخِر الطريق:

- قلقانة عليه.. لقد تأخَّر عن العادة..

ضحكت «أم عثمان»، ثم قالت بصوت منخفض:

- قلقانة! هيصحل له إيه؟ لن تأكله الحداية يا «فيفي».. آهٍ لو يعلم أخوكِ أو واحدٌ من أهل البيت! لن تسلمي منهم! الكلُّ بدأ يلاحظ جلوسَك الدائمَ هنا..

أشاحت «فيفي» بوجهها، ولوَّحت بيدها بغير اكتراثٍ لكلمات «أُم عثمان» المحذِّرة لها. وظلَّتا معًا جالستيْن في صمتٍ، كلُّ واحدةٍ منهما هائمةٌ في خيالاتها!

سرحت «أُم عثمان» بعيدًا.. حاولت أن تتذكر بصعوبة أيامَ طفولتها في النوبة. لقد لعِب السنُّ دورَه في طمس بعض الذكريات، وبدَت صورُ أهلِها ضبابيةً غيرَ واضحةً مثلما كانت. لم تحظَ كباقي البنات بقِصة حُب تُبقيها مستيقظةً طوال الليل، وتُشعل أحاسيسها، كتلك التي تشعر بها «فيفي» الآن، ومن قَبلها أُمُّها حينما تعرَّفت على «سيد». لقد حضرت «أُم عثمان» ثلاثةَ أجيال في حياة هذه العائلة. تتذكَّر يومَ زواج «كوثر» وقد كانت حينها شابةً يافعةً، وترحل مع الذكرى إلى سنوات إقامتها معها، وحضورها لحظةَ ولادةِ «عادل» ومن بعدِه «عليَّة». تمرُّ ذكرياتُها لتأخذها إلى حماس «عليَّة» الذي عادت به من المدرسة لتحكي لها عن ذلك الشاب الوسيم الذي أرسل إليها رسالةً. ثم تعود بعد كلِّ هذا إلى اللحظة التي تتأمل فيها قسمات وجه «فيفي» الجميل، وقد اختلج قلبُها بحُب «حسين». وبشَّ وجه «أُم عثمان» في سكينة، وقد ارتضَت بالقدَر وما رسمه لها. لقد رأت نفسَها في كلِّ قِصص هذا البيت، وقد شعرت بكل ما شعروا به، عاشت مآسيهم وأفراحَهم، وانصهرت روحُها لتصير جزءًا منهم. ولم تعُد ترغب في البحث عن أهلها

Visual Watermark

مثلما كانت في السنوات الماضية، فلا أهلَ لها الآن سوى هؤلاء. لقد اختار لها القدَرُ هذا البيتَ لتَسكنه، وأهلَه ليسكنوا في قلبها إلى الأبد.

وبينما هما جالستان، باغتتهما الأصواتُ في الشوارع ومن خلف النوافذ بصيحات الانتصار والهتافات، وصاح «سيد» في صالة البيت بسعادةٍ ظاهرة، كما هرع «فريد» من غرفته إلى الشُّرفة ينظر يمينًا ويسارًا إلى الشارع وتُتابع أُذناه الأصواتَ المتصاعدة من المقاهي القريبة. وبعد برهة قصيرة خرجوا جميعًا إلى الصالة، ليَجدوا والدهم يجلس بعينٍ دامعةٍ وقسماتُ وجهه متأثِّرةٌ، وفي الخلفية صوتُ عبد الناصر بالراديو وقد أعلن لتوِّه تأميمَ قناة السويس!

***

وقف «فريد» أمام جدته يُحدِّثها مُمازِحًا:

- ها يا نينه.. لم تَرَيْ أيَّ حُلمٍ جديد؟ مرت أيام كثيرة، ولم أكتب سوى أربعة أحلام!

تنهدت الجدة قائلة:

- بلى يا بني، لقد رأيتُ الحُلم الخامس منذ يومين.. لكن، تردَّدت مليًّا في قوله..

فقاطعها قائلًا:

- لا يا نينه.. إحنا بيننا اتفاق..

سحبت «آمنة» نفَسًا طويلًا متقطِّعًا إلى صدرها، وبدأت تحكي، ففتح «فريد» كراسه، وجلس جانبها بحماس ليكتب ما تقوله:

- سيشهد واحدٌ من إخوانك الصبيان لحظةً مريرةً يا بني، لحظةً مخيفةً ومفزِعة! ستُدمي قلبَه وستحفر ببراثنها لوحةً مشوهةً بداخل عقله لا تغيب. غير أن رحمة القدَر به أعظم من أحزانه. فلو أدرك الحقيقة لعرف أنه كان سيصبح بطل هذا الحدث، غير أن اللهَ اختار غيره.. ليبتلعه المجهول!

ظلَّ سِنُّ القلم مثبَّتًا بين أصابع «فريد» فوق الكلمة الأخيرة، انقبض قلبُه، وسرح يُفكر في حَيرة. ثم نظر لـ «آمنة» وهو يقول:

- مَن مِن إخواني؟ «فهمي» أم «جمال»؟

- لن تصدقني إن قلتُ لك إنني استيقظتُ قبل أن أعرف! كله من صراخ أخيك المفعوص «جمال»!

أغلق «فريد» كراسه دون أن تُغلَق أبوابُ الفضول في عقله، وظلَّ لأيام طويلة يُفكر ويتساءل: تُرى مَن سيصبح بطلَ حُلم جدته «آمنة» من أخوَيْه!

***

نُقِشَ صوت عبد الناصر في أفئدة المصريين، وأصبح منذ توليه رئاسةَ مصر في يونيو ١٩٥٦، ينسج بقراراته وخُطبه كرامةَ المواطن وعزةَ نفسه. لقد أراد هذا الشعب ألَّا يكون ماضيه من المآسي هو مستقبل أبنائه. ونشرت الجرائد في اليوم التالي كواليس اتخاذ قرار التأميم.

اشترى «سيد» في صباح السابع والعشرين من يوليو من العام نفسه جريدتي الأهرام والأخبار، وقد تصدَّر التأميمُ عناوينَ الصحف المصرية والأجنبية، وكُتب في صفحة الأخبار الأولى بالبنط العريض: «تأميم شركة القناة». حكت سطور البيان كواليس القرار، والخيرات المنتظرة التي ستعود على المصريين، وأنهم منذ تلك اللحظة لن تعود بهم حاجة إلى الغرب وصندوق نقْدِهم الدولي لكي يَفرض عليهم الذلةَ بالأموال الممنوحة. وأُعيد بثُّ البيان في الأيام التالية بالمذياع، وكلما سمع الناسُ مقولةَ عبد الناصر: «قرارٌ من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، شركة مساهمة مصرية»، هتفوا بحماسٍ منقطع النظير كأنها المرةُ الأولى التي يستمعون فيها إلى هذا القرار العظيم! وبات هذا الحدث الجلل أهمَّ ما يحكي ويتحاكى به الشعب المصري. وسر كلمة «ديليسبس» التي كانت شرارة انطلاق القادة المصريين إلى القنال لإخراج العاملين بها من الأجانب والسيطرة على مقرِّها. ولقد جاء القرار مفاجِئًا للجميع، ولم يكن متوقَّعًا أن يقوم جمال عبد الناصر بخطوة شديدة الاستفزاز للغرب كتلك. وأصبح يوم السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ هو يوم ردِّ الكرامة لمصر وشَعبها، وتغنَّى لأجله عبد الحليم حافظ:

«يـا فـاتح بـاب الحريّـة يـا ريس يا كبير القلب

يـا حـلاوة الشعـب وهـو بيهتف بـاسم حبيبـه

Visual Watermark

مبروك ع الشعب خلاص السعد هيبقى نصيبه».

•••

أصبح وجه «آمنة» شاحبًا للغاية، خاصةً مع حالة فقدان الشهية التي أصابتها منذ شهر. وفشلت كل محاولات أهل البيت في حثّها على تناول الطعام. فانقبض قلب «سيد» لحال أمه المفاجئ، فذهب إلى الأجزاخانة القريبة من بيته متوسلًا إلى البائع أن يأتيه بأي شربة يُمكنها أن تفتح شهية امرأةٍ عجوز يأبى لسانُها لمس الطعام والشراب!

بلغت الجدة تسعةً وستين عامًا، ولكن وجهها بدا كأنه تجاوز المئة بعام! انكمشت تقاسيمه، ذبلت عيناها، ترهّلت شفتاها وأصبحتا كمقبرة جماعية لكل الكلمات التي لم تتفوّه بها! وبرزت التجاعيد التي بدا حالُها كحال صاحبتها، تجاعيدُ ضريرةٌ لها خيالُها الخاص، حفرتها الأيام على مدار السنوات من ذكرياتِ كل الأحداث التي مرّت بها، دون أن تراها في الواقع.

صَغُر حجم وجهها وصار كأنه بحجم كفّ حفيدها الصغير. وزادت من حالتها سوءًا أحلامُها التي تراها مؤخرًا، وكانت قد اعتادت من بعد اتفاقها مع «فريد»، أن تحكي له كلّ ما تراه من الرؤى. فحكت له حُلمَها الأخير، الذي ظلّ يراودُها مرةً بعد أخرى كأنه اختار أن يكون هو الأخير إلى الأبد! كأن جُعبتها من الرؤى قد نفدت، أو أنها كلَّها قد تجمّعت في طيّات ذلك الحُلم العاصف! حين روته على مسامع حفيدها، ضاقت عيناه تأثرًا، وانكمش أنفُه، وتقلّصت قسماتُ وجهه من هول أحداثه! وكان كلما ذهب إليها وهو يسألها بحماس متّقد:

- ها يا تيته؟ ماذا رأيتِ في منامكِ اليوم؟

فتجيبه في شرود:

- مثل امبارح، وقبل امبارح، وقبله..

فيعود إلى غرفته ممتعضًا، وهو يجرُّ ذيول الخيبة ويتمتم: «يوه يا تيته!» ولم يلاحظ حال الجدة وذبولها مع الأيام، وكأن روحها تتركها ببطء.

ظلّت «آمنة» لا تبرح مكانها، ممدّدة على الكنبة في صمتٍ وهدوء، كريشةٍ خفيفةٍ استكانت على الأرض، ستأخذها أعدا نسمة هواء لتهيم بها إلى المجهول. وقبل صمتها هذا أوصت حفيدها ألا يُخبر أحدًا عن رؤياها، وأن تظل سِرّهما الأبدي!

•••

كانت «عليّة» أقلّ اكتراثًا بحال الجدة، لانشغالها بأولادها وتربيتهم ومتطلّبات البيت. وفضّلت أن تقضي أوقات فراغها مع «صاباتها»، لتدخن معها سجائرها خلسةً، ويتحدثان عن آخر الصيحات في الموضة، والأفلام في السينما. إلا أن «أم عثمان» بثّت القلق في قلبها حينما قالت لها: «أظن أنّ بنتي «آمنة» بتودّع..»

جزعت حينها «عليّة» من كلمات «أم عثمان»، وشعرت بتأنيب ضمير بالغ لأنها كانت تُسفّه دائمًا من قلق زوجها في الأيام الأخيرة. وتساءلت: كيف لاحظ كلّ من حولها حال الجدة إلا هي! فبدأت تجلس معها أكثر، وتجمع أبناءها ليلتفّوا حولها، تُمازحها كثيرًا، وتحاول أن تُطعمها الشوربة في فمها بالملعقة كطفلة صغيرة.

ساءت الحالةُ أكثر، وازداد قلقُ الجميع، عندما بدأت الجدةُ في العزوف عن الكلام، وتدهورت قُدرتُها على المشي، فلا تستطيعه إلا بالمساعدة.

أدفأت «أم عثمان» الماء على الوابور في قدرٍ كبير، لتساعدة «آمنة» على الاستحمام. أجلستها على مقعدٍ بلاستيكيٍّ صغير، وبدأت تغرف الماء الدافئ بالكوب، وتصبُّه برفقٍ عليها. وبكت حينها «أم عثمان» دموعًا، ربما أكثر غزارةً وسخونةً من الماء الذي تسكبه فوق رأس الجدة وهي تُحمّمها، وقد بدت ضعيفة للغاية، كالعظام التي يكسوها الجلد، مُغمَضةُ العينين، مطأطئة الرأس في استسلام وصمتٍ مرهق. وتساءلت «أم عثمان»: كيف يمكن أن يَشيخ المرء فجأةً وبلا إنذار! كيف ذبلت يومًا وراء يوم دون أن يلتفت إليها أحد! وكيف يمكن للحياة أن تنتهي بهذا الضَّعف؟ نولد صغارًا بلا حيلة، ونموت عَجَزة،

Visual Watermark

أضعفَ من مولودٍ يَستطيع الصراخ! فحمدت اللهَ أنها لا تَحسِب عُمرها ولا تدري بأي شهرٍ أو يومٍ قد وُلدت! فتخطَّت السابعةَ والخمسين دون أن تُدرك. واستعاذَت بالله في سرِّها أن تموت في أرذَل العُمر.

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الخامس

«الرجال فقط مَن يَحفظون الأسرار، وأنتَ سيد الرجال يا حبيبي..»

همست بها «آمنة» بصوتٍ مرتعِش في أُذن «فريد»، وهي تُربِّتُ على كتفه ربتاتٍ بطيئةٍ بيدٍ مرتجفةٍ..

كانت قد طلبت التحدثَ إلى حفيدها، أخيرًا بعد أيامٍ طويلةٍ من الصمت، ففرح الجميعُ واستبشروا، وجاءها «فريد» يجلس بجانبها وقد دمعَت عيناه على الرغم من محاولاته إظهارَ التماسُك، قرَّبته منها، وبصوتٍ مُتقطِّعٍ مُنهَكٍ أوصته ألَّا يترك والده، وأن يَظلَّ سندًا له مهما حدث..

ارتخت يدُها تمامًا على كتف «فريد»، ثم هوَت إلى جانبه! فارقتها روحُها مُتحرِّرةً من كل شيء، صاعدةً إلى حيثُ تنتمي..

رحلت «آمنة»..

ذُهِل «فريد» للحظاتٍ ثم صرخ صراخًا هستيريًّا! احتضن جسدَها الواهن، وبدأ يهزُّها لعلَّه يرى فيه الحياةَ مرةً أُخرَى! غيرَ مُصدِّقٍ أنَّ حياةَ «آمنة» قد انتهت! سحَبته أُمه بعيدًا وهي ذاهلةٌ لم تُدرِك بعدُ ما حدث!

قبع على الأرض، ضمَّ رُكبتيه بذراعيه ودسَّ بينهما رأسه، يُحبِّبُها، وانهمرت دموعه فيضانًا جارفًا، وعقله يصرخ غير مُصدِّقٍ: «يا نينه! ألم يكُن بيننا اتفاق؟! لم يتسنَّ لي الوقتُ لتسجيل الكثيرِ من أحلامكِ.. ليس سوى أحدَ عشرَ حُلمًا.. تحقَّق منها اثنان.. وبقيَ الكثيرُ من الصفحات الفارغة في كُرَّاسي.. يا نينه! أترحلين هكذا! لقد اعتبرتُكِ مُعجزتي الوحيدة.. وظننتُ أن المعجزات أبدية، حيةٌ لا تموت! أنتِ تسمعينني؟ أعرف ذلك.. أنا حزين.. وغاضب.. ورافضٌ لرحيلك..»

منذ ذلك الصباح القاتِم، في الأول من أكتوبر عام ١٩٥٦، والحُزن قد حلَّ في البيت ضيفًا لا يرحل! دُفنت حماسةُ «سيد» وعُنفوانه منذ لحظة دَفن والدته. وأصبح لا يعبأ بما يَحدث في الكون من حوله، لا يُفكر سوى في أُمه التي رحلت ورحلَ معها أمنُه، كأنها ألقته في اليمِّ، ولن يتلقَّفه أحدٌ من بعدِها، وصار مُعتكِفًا في غرفته، بائسًا، مُختنِقًا، حول رقبته طَوقٌ من الأسَى. ولا يعلم كيف استطاع أن يتذكر بدِقةٍ تفاصيلَ أيامه معها، منذ لحظة قدومه إلى الحياة، تذكَّر «سيد» كيف رآها يومَ ولادته، وكيف أحسَّ بدفء راحتِها وهي تتحسَّس ملامحه للمرة الأولى، تذكَّر ما كانت ترتديه، وكيف كانت تضمه إلى صدرها لتُرضعه، وخُصلةَ شَعرها التي داعبت وجهه الصغير، وكيف كانت تُربت عليه حينما يبكي لتهدئته! وشعر بأن كل تلك الذكريات حقيقية، لقد وُلدت يوم موتها وظهرَت فجأةً كأنها كانت مُحبأةً طوال كل تلك السنوات في مكان لا يعلمه داخل ذاكرته!

تلقَّت «عليَّة» حكايات زوجها تلك بارتياب وقلق، وظنَّت أنه قد جُنَّ! تبدَّلت حالُه وصار ممتلئًا بالذكريات يراها نُصب عينيه في صَحوه ونومه. تظاهرت باقتناعها بما يقوله، غيرَ أنها حدثت «أم عثمان» بأن ما يَحدث له حتمًا هو ضربٌ من الجنون! وخافت أن يظلَّ هكذا هائمًا في ذكرياته البعيدة!

لكن سطوةَ تلك الذكريات على «سيد» لم تستمرَّ طويلًا، فقد أيقظه حالُ البلاد من كلِّ هذا. فلم يكن قرار التأميم ليمرَّ مرور الكِرام، وأصبح الجميع يترقَّب قيام الحرب! لذا، عاد «سيد» لينكبَّ على متابعة الأحداث السياسية. ولكنه هجَر الصالةَ وتجنَّب الاقترابَ من كتبة الجدة، فاعتكف في غرفته يقرأ الجرائد.

أُضرمت النيران في أفئدة المصريين بالعدوان الثلاثي، واشتعل قلب «فيفي» كالجمرة خوفًا على حبيبها، لعلمها بانضمامه سِرًّا للمقاوَمة الشعبية. وحدَّثت أخاها بنبرة استهزاءٍ قائلةً إنه من الأجدر به أن ينضم للرجال الذين يَسعون للدفاع عن بلادهم، بدلًا من جلوسه وسط المئات من الكتب! فاحتد بينهما الحديثُ وكاد أن يَصفعها لولا تدخُّل الأم في اللحظة الحاسمة. وبكت «عليَّة» على حال أهل البيت الذي اختلف كثيرًا منذ رحيل «آمنة»!

***

بدأت القوات الأجنبية في الهبوط بمنطقة السويس، والجميع ينظر إلى السماء في انتظار القصفات الجوية من العدو. وظل «سيد» وحيدًا بغرفته مغلِقًا بابها أغلب الوقت، وهو يُفكر بقلقٍ بالغٍ وقد وصل إليه خبرُ

Visual Watermark

بدءُ إنزال القوات على شواطئ بورسعيد، وتساءل عمَّا سيحمله القدَر لهم. وخرج من غرفته ليُفاجئ الجميعَ قائلًا: «سنرحلون في صباح الغد إلى دمياط».

قرارٌ لا يَحتمل النقاش، أعلنه دون أن يمنح أيَّ فرصةٍ لأيِّ فردٍ من أُسرته للاعتراض، خاصةً بعدما ذيع في الراديو أنه من الأفضل أن يرحل النساء والأطفال عن بورسعيد حتى ينتهي العدوان.

وكانت «عليَّة» قد فاجأته منذ أسبوع واحد بحَملها للمرة الخامسة، وظنَّت حينها بأن هذا النبأ ربما يُخفف من وطأة حُزنه على رحيل والدته، إلَّا إنه لم يُبدِ أيَّ مشاعر واضحة، وبدا وجهه ثابتًا لا سعادةَ تبدو عليه، بل الحزن قد خيَّم على عينيه، وبدَت نظراتُه منكسرة. وتوجَّس خِيفةً عندما واجه عينَي زوجته ولَمح الإرهاقَ الذي بدا عليها جليًّا، والسوادَ الذي افترش أسفلَ جفنَيْها، فازداد قلقُه عليها، وقد صار مؤخَّرًا آلةً للتوتُّر والقلق، بعقلٍ يُصور له أسوأ التوقُّعات بلا إرادة منه. وشعر أنه من الأفضل والأكثر أمنًا أن تسافر في تلك الفترة لأخيها في دمياط، حتى تهدأ الأوضاع بالمدينة.

قالت «عليَّة» بخوف شديد وكلمات مُرتعدة:

- وأنت يا «سيد»؟

- سأبقى هنا.. تحتاج بورسعيد إلينا.. الأمر يحتدم والقصف سيزيد. سأطمئن عليكم عند أخيكِ.

- ولكن أمي هنا..

فأجابها بلا تفكير:

- لا تقلقي، سأُخبرها، وسترحل معكم. هذا هو القرار الصائب يا «عليَّة».

خارت قواها وبدأت تبكي بلا انقطاع، وبجانبها ابنتها و«أم عثمان»، التي شعرت أن ما يحدث يفوق قدرةَ الجميع على التحمُّل. وركض «فهمي» -الذي لم يبلغ العاشرةَ بعدُ- ليحتضن أباه وهو يقول:

- سأظل معك هنا يا بابا، وأُحارِب الأشرار.

وركض من بعده «جمال» الصغير، ليتشبَّث بساق أبيه رافضًا إفلاتها. نظر إليهما «سيد» وهو يربت على رأسيهما، ثم وجَّه نظرةً طويلةً لابنه «فريد» وقد وقف في زاويةٍ من الصالة مشدوهًا لا ينطق. أخذ نفَسًا طويلًا بصعوبة قائلًا له:

- سترحل أنت أيضًا معهم يا «فريد».. كُن مع أمك وإخوانك، وخذ بالك منهم..

فاحتجَّت «فيفي» لتقول بتوتُّرٍ زاد من بكائها:

- ولكن يا بابا..

قاطعها بحزم:

- لا وقت للكلام!

***

كيف لنا أن نُلملم كلَّ الذكريات الجميلة مع أمتعتنا، لترحل معنا أينما ذهبنا؟ ألم يكُن من العدل أن نحتفظ بالأوقات الثمينة داخلَ الحقائب؟ لمَ لا نستطيع أن نأخذ جدران البيت، والضحكات التي سكنته، ونقبض عنه كل الآلام، فلا يبقى لنا إلا ما يَجلب لنا الهناء عندما يجتاحُنا الحزن؟ كل القُبلات والابتسامات واللحظات السعيدة ستبقى هنا لترحل نحن؟ وربما ستُقصَف! لتتبخر إلى السماء مع أدخنة القنابل المتصاعدة.. فلا يُصبح لنا شيءٌ باقٍ البتة!

جلس كلٌّ في غرفته يُفكر في كلِّ ما سيتركه خلفَه بعد الرحيل. انقبض قلبُ «فيفي» وحاولت مرارًا أن تنفض عن رأسها مخاوفها من أن يُصيب حبيبَها أيُّ مكروه. تخيَّلت فقدانه فبكت دموعًا حارقة! وفكَّرت في أمها وإخوتها و«أم عثمان»، ثم سرحت في أبيها، أبوها الذي ظلَّ في الصالة قابعًا فوق كرسيِّه للمرة الأولى منذ وفاة «آمنة»، ليُواجه مكانَ جلستها المعتاد، وينقبض صدره بألم الذكرى. أحسَّ بأن الحوائط من فوقه ومن أمامه وخلفه تَضيق عليه وتُحكِم الخِناقَ حتى تكتمَ أنفاسَه! تطلَّع إلى مكان أُمه المفضَّل، أغمض عينيه يسترجع صوتَها، وهمس لها متوسِّلًا أن تدعوَ له كي يرتاح قلبه..

ومرَّ الوقتُ ثقيلًا ليخرج الجميع استعدادًا للرحيل، واحتضنت «عليَّة» زوجَها وانهارت بين ذراعيه. خرجوا من البيت، وصوتُ نحيبهم يَصِل إلى كلِّ مَن كانوا خلف الأبواب في بيوتهم. فتحت «عنايات»

Visual Watermark

البابَ وعانقت «عليَّة» وهي تقول:

- لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام..

كفكفت «عليَّة» دموعها وهي تسألها:

- ستَبقين هنا؟

أومأت «عنايات» برأسها، فصرخت «عليَّة» في زوجها الذي سبقهم على درجات السُّلم:

- ستظل أبلة «عنايات» هنا يا «سيد».. كلُّ مَن في العمارة باقٍ.. لم نرحل نحن؟!

رد عليها باقتضابٍ وجِدَّة:

- لا وقت لهذا الكلام.. اهبطوا سريعًا حتى نجد حنطور يُوصِلُكم لركوب اللانشات..

نظرت «عليَّة» إلى جارتها بقلة حِيلة، وقالت وقد انفجرت في البكاء:

- خذي بالك على «سيد» يا أبلة «عنايات».

***

استعد جميعُ الرجال والشباب ببورسعيد استعدادًا تامًّا للقاء العدو، وتم توزيع أكثر من خمسين ألف سلاحٍ على رجال المقاومة. أقام الاحتلال نِقاط تفتيش عند مدخل كلِّ حي، بحيث يتم وضع ختم على معصم كلِّ فردٍ بعدَ تفتيشه، فإذا مرَّ من نقطة تفتيش أُخرى تأكدوا أنه شخصٌ غيرُ مُشتبَهٍ فيه. كما قاموا أيضًا بمحاصرة العديد من المنازل، بل وقطع الماء والكهرباء عن سكانها، وقد أوقفوا إمداد بورسعيد بالمواد الأساسية والكيروسين.

ولأن «سيد» أصبح وحده في البيت، قرر في ليلة سَفر أُسرته أن تتم عنده الاجتماعات التي تخصُّ التخطيط لمواجهة العدو الغاشم. واجتمع كلُّ رجال العمارة بشقته، عدا ابن «ناحوم» الذي قرر أن يهرب مسافرًا دون أن يعلم أحدٌ وِجهته؛ ترك بيته وسحَب حقائبه وزوجتَه ليرحل.

اتسعت حلقةُ أدخنة السجائر كغيمة فوق رؤوس «سيد» وجارَيْه «عيد» و«صابر» في صالة البيت، وانضم إليهم «حسين» ومعه ثلاثةٌ من الشبان، ثم وقفوا يتابعون أحاديث الكبار في إنصاتٍ تام. قال «صابر» بصوت مرتفع دون أن يوجه نظره إلى أحد، كأنه يُحدث نفسه:

- أشعر أنني على وشك الجنون.. وساخة العدو تخطَّت الحدود! أولاد الكلاب رفضوا إعطاءنا القَرض لبناء السد العالي! حِلو. نأمم إحنا القنال.. أموالنا لنا وتنتهي الحوجة لهؤلاء الأنجاس.. لكن يهاجموننا الآن لأننا قررنا أن نتحكَّم في أملاكنا! هو القنال كان مِلك أبوهم! أمَّا كلاب أولاد كلاب بصحيح!

فقال «عيد» معلِّقًا على كلمات «صابر»:

- لا تستهِن بالأمر، قرار الرئيس بالتأميم قرار قوي، ضربهم في مَقتَل. غير أن ما أشعل نيرانهم هو وقوف الروس في صفِّنا.

علق «حسين»:

- سنحاربهم وسنهزمهم. كلُّ بيت في بورسعيد يتوعَّد لصَفعهم بهزيمة لن ينسَوها أبدًا.

فقاطعه واحدٌ من زملائه مُتحمِّسًا بصوتٍ ضاحِك:

- تخيلوا؟ أُمي تقف في الشُّرفة منذ الصباح تحمل في يدِها سِكِّينًا، وفي الأُخرى مَغرفة، وهي تنظر إلى السماء في انتظار لحظةِ هبوط أيِّ جنديٍّ منهم بالمظلات!

فقال «سيد» بلهجةٍ جادة:

- طب السكين وعرفناه، لِمَ المَغرفة؟

فضحك «حسين» ليرد بدلًا عن صديقه قائلًا:

- أكيد لتَضربه بها على رأسه يا عمي «سيد»!

قاطعه أبوه ضاحكًا:

- أو ربما ستعمل منهم شوربة!

ضحك الجميع على كلمات «صابر» ضحكات من القلب. وسمعوا في تلك اللحظة طَرقاتٍ على الباب،

Visual Watermark

ففتح «سيد» ليجد «عنايات» وقد أحضرت لهم صينية رصَّت فوقها أكواب الشاي والسندوتشات. باغتهم صوتُ الغارة، ودوَّى صوتُ إطلاق القذائف في تلك اللحظة! فسقطت الصينية بما فوقها من يدها أمام باب البيت، انحنى «سيد» ليُساعدها في لمِّ الزجاج المكسور، قائلًا لها أن تطمئن. نظرت «عنايات» إليه وإلى الجالسين بالداخل، ثم قالت: «ربنا معاكم».

وعادت بعدها إلى بيتها. فأغلق «سيد» الباب خلفها، ثم نظر بجدية شديدة ووجهٍ قلِقٍ إلى ضيوفه، وقد تبخرت الضحكات.

***

وُضعت خطط الاختباء والتربص لمداهمة العدو، وأصبح الجميع يحمل سلاحه في انتظار أي لحظةٍ لإطلاق الرصاص. وانقسم رجال المقاومة بشارع فؤاد ما بين مُواجِهٍ وآخر خلفه ليؤمِّن ظهره. وتعرَّق وجه «سيد» من شدة الموقف، ثم باغته صوتُ والدته في أذنيه يشدُّ من أزره ويبث فيه الطمأنينة، فأخذ نفسًا طويلًا، ونظر أمامه ليجد أحد الرجال يُشير إليه بالعبور وتغيير موقعه، فركض مسرعًا في الاتجاه الآخر من الشارع ليختبئ عند زاوية البناية في استعدادٍ لمواجهة الجنود القادمين من بعيد، ومِن خلفهم واحدة من الدبابات. وعلا صدر «سيد» بالأنفاس المتلاحقة، تذكَّر أباه الراحل برصاص الاحتلال البريطاني الغادر، فاشتدت عزيمته وتمنَّى لو ينتقم لوالده. تبخَّر الخوفُ من الموت، واجتاحته الرغبة الشديدة في المواجهة، أراد بشدة أن ينظر في عيني أي جندي محتلٍّ قبل قتله نظرةَ تحدٍّ تشتعل بالثأر، تحمل كلَّ الغضب وتُعلن الانتقام، فركض ليقف في منتصف الشارع يحمل سلاحه في مواجهة الجنود، فصاح فيه «عبد» الذي اختبأ في مدخل إحدى البنايات أن يبتعد عن الطريق حتى لا يُصاب بأي رصاص طائش، ولكنه لم يسمع، رفع سلاحه وصوَّبه تجاه أحد الجنود وضغط زناده دون توقُّف، فانطلق من ورائه باقي رجال المقاومة ليُداهموا مجموعةً من جنود العدوان بالطلقات النارية بلا هوادة، وبخطوات متقدِّمة تسير نحوهم، ففاجأهم صوتُ طلقاتٍ أتى من خلفهم، أسرعوا للاحتماء في المداخل وخلف الصناديق، وكاد «سيد» أن يَلحق بهم، غير أن رصاصةً غادرةً أصابت كتِفه فسقطَ متألمًا رغمًا عنه، وصرخ الجميعُ فيه بأصواتٍ تعالَت تُناديه أن يُسرع بالتحرُّك، لكنه لا يعلم لماذا جثا على ركبتيه ينظر إلى أعلى، حلَّقت عيناه في السماء وبدا كلُّ شيء حولَه غيرَ حقيقي! أحسَّ بأن الأرض من تحته غير ثابتة، تتحرك كالموج، اختفى ضوءُ النهار فجأةً واسودَّ كلُّ شيء!

***

مرت الأيام ثقالًا على «سيد»، يستيقظ كلَّ ليلةٍ فزِعًا من هول ما مرَّ به، وما أتت به صروف الدهر. تتسلَّل يدُه لتلامس فخذيه، ثم تعود لتستقرَّ فوق صدره بيأس. إصابةُ كتفه جعلته يسقط رغمًا عنه في منتصف الشارع، لتمرَّ دبابةُ العدو من فوقه وتُفتِّت عِظامَ ساقَيه، وقد ساوتها بالأرض! ثم رحلت مبتعدةً جائعةً تبحث عن دماء الأبطال. ركض حينها جارُه وهو يستنجد بباقي رجال المقاوَمة الذين كانوا بالقُرب منه، سحبوا « سيد» من ذراعيه بعيدًا عن الطريق، وقد بدا كأن ساقيْه قد التصقتا بالأسفلت! حملوه ليَضعوه فوق عربةِ يدٍ وجدُوها عند ناصية الشارع، ليأخذوه إلى أقرب مستشفى. لم يشعر آنذاك بأي ألم، وحاول أن يرفع رأسَه الذي أصابه الخدَر من هَول الأحداث المتلاحقة قبل لحظاتٍ من إصابته. ألقى حينها نظرةً أخيرةً على الدماء الغزيرة التي سالت منه على امتداد الشارع، تمحو آثارَ الدبابات والبيادات العسكرية! ولم يستوعب عقلُه ما حدث له. وبعد يومٍ من محاولةِ علاجه بمستشفى بورسعيد تطلَّب الأمرُ نقلَه سريعًا إلى مستشفى قصر العيني بالقاهرة، فحالتُه حالةٍ حرِجةٌ، وظنَّ الأطباء أنه لن يبقى على قيد الحياة جرَّاء ما فقده من الدماء لنزفه الشديد.

أمضى في المستشفى أيامًا طويلةً في غيبوبة، وكان إذا أفاق منها يَهذي بكلماتٍ غير مفهومة، يحاول مَن حوله فكَّ طلاسمها آملين بالمعاني المطمئنة لبقاء الحياة. حتى حانت لحظةُ خروجه من المستشفى، وقد صار رفيعًا كإبرة، قد برزَت عِظامُ وجهه! وذُهل «فريد» -عندما حمل أباه ليضعه فوق كرسيٍّ متحرِّك- من خفَّةِ وزنه. وفور خروجه أغمض «سيد» عينيه ورفع ذراعَه يُجنِّبها رافضًا ضوءَ الشمس.

وعلِمَ بعد ذلك انتهاءَ أصعب الأحداث، وما فعله أبطالُ بورسعيد بعد غيابه، فقد استطاعوا التفوقَ على الأعداء بالرغم من أسلحتهم الحديثة ودباباتهم التي كانوا يتفاخرون بها. بل لم يتحمل الأهالي رؤيةَ الأعلام الإنجليزية والفرنسية التي علَّقها جنودُ الاحتلال على يدِ تمثال ديليسبس، فقام أحد الفدائيين

Visual Watermark

بتفجير التمثال، وفور سقوطه سحب الرجالُ الأعلام ليحرقوها! وخرج جنودُ الاحتلال يَجُرُّون ذيولَ الخَيبة وقد تحطمت آمالهم الواهية. فخرج أهالي المدينة مهللين بانتصارهم غير المسبوق.

أصبحت بورسعيد مدينة الأبطال، المدينة الباسلة التي حارب أهلُها المعتدين بلا خوف، وتحدثت عن بسالتها جرائدُ العالم. وكيف أن أهلها واجهوا العدوان بمنتهى الهمة والشجاعة. كل الأهالي قد اشتركوا في هذا النصر، الأطفال والشباب والرجال والنساء، وحتى كبار السن. فعلى الرغم من النداءات التي بثَّها الراديو لإخلاء بورسعيد من النساء والأطفال لحظةَ إعلان الهجوم، إلَّا إن الكثير من أهلِها فضَّلوا البقاء، ولم يرحل من بورسعيد سوى عدد قليل من الأُسَر كأُسرة «سيد»، وقد انتظرتهم اللانشات لنقلهم إلى المحافظات المجاورة. ثمانيةٌ وأربعون يومًا في صمودٍ وقوة، بلا استسلام أمام الهجمات التي شنَّها العدو بلا هوادة برًّا وبحرًا وجوًّا. وانتصرت المدينة الباسلة، بل وقتلت المقاومةُ الكثيرَ من جنود الاحتلال، وأسرُوا الضابط أنتوني مورهاس، ابن عمة ملكة إنجلترا، وهو ما مثَّل وصمةَ عارٍ للإنجليز، ومدعاةً للفخر في شوارع بورسعيد وأزقتها.

***

رأى «سيد» بأُم عينيه بيوتًا تسقط على رؤوس أصحابها في حيِّ العرب، وغيره من الأحياء البورسعيدية، ليخرج بعدها كلُّ قاطنيها من تحت الركام كأنهم يخرجون من رحِم الحطام إلى الحياة، بلا إصابات شديدة، ولا ضحايا، ولا أرجل مبتورة، صارخين في وجوه العدو، رافعين رؤوسهم بنظراتٍ تقذف بقنابل مضادة إلى السماء في مواجهة طائرات المُحتلين ومظلاتهم! ومع نجاح المقاومة الشعبية في الحفاظ على بورسعيد وانسحاب الأعداء منها، إلا أن حالةً من الاكتئاب الحادِّ أصابت «سيد»، فلم يكد يُفيق من فقدان والدته، ليجد نفسَه فاقدًا ساقَيْه، عاجزًا، فوق كرسي متحرك كَريه. وكانت الأُسرة قد قررت الانتقال إلى القاهرة فورَ عِلمهم بما حدث لـ «سيد» وانتقاله إلى قَصر العَيني. وقبل خروجه من المستشفى، قالت «كوثر» إنه من الأفضل لهم الاستمرار في الإقامة بشقة أُمها في حي باب اللوق لبعض الوقت حتى تستقر الأمور، خاصةً أن «عليَّة» فقدت جنينها بعد فاجعتها بما حدث لزوجها، فقدانًا سريعًا خاطفًا، لم تحصل على فرصة الحزن لأجله!

ويوم خروج «سيد» من المستشفى، أخبرته «كوثر» باقتراح بقائهم في القاهرة، ولم يرفض أو يوافق، فقد أصابه ما أصاب والدته قُبيل رحيلها؛ ظلَّ صامتًا لا يتحدث، تتكلم عيناه نيابةً عنه. وجَّه نظرةً إلى بطن «عليَّة» ففهمت معناها، وأخبرته أنها فقدت جنينها، فبكى بشدة وساءت حالتُه أكثر، وحزِن نيابةً عن زوجته على نُطفته التي ماتت! وحاول أهلُ البيت كلَّ المحاولات أن يساعدوه على الكلام مرةً أُخرى، وقررت «عليَّة» إحضارَ الطبيب لرؤية زوجها الذي هجرته الكلمات، واشتاقت لسماع صوته. وبعد أن كشف عليه، أخبر أهلَ البيت أن «سيد» يعاني من صدمةٍ عصبيةٍ حادة، وأنه من الأفضل أن يبقوا مدةً أطول في القاهرة حتى تتحسَّن أحواله، فانصاع الجميع لِما قاله الطبيب. ومرت الأسابيع بطيئةً عليهم دون أن يُدركوا الأيام، وقالت «كوثر» لابنتها بعد تفكير طويل:

- أعتقد أنه من الأفضل لنا البقاء هنا يا «عليَّة»..

عارضتها «عليَّة» بشدة:

- تريدينا أن نترك بيتنا في بورسعيد يا ماما؟ كل حياتنا وكل شيء هناك، ومدارس الأولاد.. الجيران والناس.. «سيد» نفسه، روحه ببورسعيد.

قاطعتها «كوثر» لتقول:

- اسمعيني يا «عليَّة»، أنا أُمك وأعرف أكثر منك.. ما حدث لزوجك ليس بالأمر الهيِّن. فلم يكد يُفيق من موت أمه ليَصفعه القدَر بما حلَّ به. ثم إن أمر المدارس يَسير، ننقل الأبناء الصغار، و«فيفي» لن تلتحق بالجامعة، و«فريد» في كل الأحوال سيلتحق بجامعته في القاهرة.. من الأفضل البقاء هنا لمصلحة الجميع.

استمعت «عليَّة» لكلمات أُمها وهي تشعر بقِلة حِيلتها أمام كلِّ ما يحدث! وكان همها الأعظم أن تسمع صوت زوجها مرةً أُخرى. حاولت أن تعتاد بيت باب اللوق دون رغبةٍ منها في ذلك، ولكن الأمر الوحيد الذي بدأ في إدخال السرور على قلبها هو تحسُّن «سيد»، وإن كان بدأ ببطء شديد.

***

قرر «صابر» أن يأتي إلى القاهرة في زيارةٍ خاطفةٍ لجاره، وكان قد حاولَ عدة مرات رؤيته قبل هذه المرة.

Visual Watermark

خاصةً بعد أن قابل «عليَّة» في زيارتها السريعة إلى بورسعيد لإحضار بعض الأغراض. ولكن «سيد» كان يرفض بشدة مقابلةَ أي إنسان. وحينما تحسنت أحواله، أخبرت الزوجةُ «صابر» بأنه يستطيع القدوم.

بكى «سيد» رغمًا عنه فورَ أن رأى جارَه، فجثا «صابر» على ركبتيه واحتضن «سيد» ليبكي معه. وبعد أن هدأ، ظلَّ يحكي ما لم يتسنَّ لـ «سيد» رؤيته من لحظات النصر، فتهللت أساريره على الرغم من كآبته، وسأله «صابر» عن موعد عودتهم إلى بورسعيد، فردَّ «سيد»:

- لا أستطيع التفكير في أي شيء في الوقت الحالي يا جاري العزيز. ترى حماتي أنه من الأفضل أن نبقى هنا هذه الفترة. وأنت تعلم هذه شقة جدة «عليَّة»، وكما ترى تسعنا جميعًا، خاصةً وأن حماتي قررت هي الأخرى ألَّا تعود إلى بورسعيد الآن.

تنهَّد عن كبدٍ حرَّى، ثم أردف:

- بيني وبينك، أنا أشتاق لبورسعيد يا «صابر».. أشتاق لها كاشتياقي لأمي.. أرى شوارعها في منامي كلَّ ليلة.. وأفتقد نسيمها العليل. ولكن.. لقد حلَّت المصائب فوق رؤوسنا مرةً واحدة، ولا أستطيع تخيُّل نفسي حبيسَ البيت فيها، سأشعر أنني كالمسجون! كما لا أُريد أن يراني أيُّ أحد من معارفنا هناك بهذا الحال. أنا آسفٌ على رفض زياراتك في الفترة السابقة؛ اللهُ وحده يعلم ما عانيتُه! ثم يا أخي، لقد اطمأننتُ على بورسعيد، ولا تحتاج إليَّ في الوقت الحالي..

وسرح في فخذيه اللذيْن وضع فوقهما الغطاء الصوفي، ثم قال:

- حتى لو احتاجت إليَّ..

زفَرَ في أسًى وأكمل عبارته بصوتٍ مُختنِق:

- .. سأكون عاجزًا عن الوقوف في صفوفِ حُماتِها.. ولَّت أيامُ الوقوف يا «صابر»!

اقترب «صابر» منه، وربت على كتفه، ثم قال:

- آهٍ يا «سيد»! لو تسمع ما يقوله عنك الجيران والأهالي في كل مكان وفي كل شوارع بورسعيد ومقاهيها، لبكيتَ من فرط السعادة!

وأردف مبتسمًا ليُخفِّفَ عن صديقه:

- إنني أحسدك يا أخي على شَعبيَّتك الآن!

تنهد «سيد»:

- ربما لن تصدقني لو قلتُ لك إن حُزني الأعظم هو على أُمي! لم يترك لي العدوان وقتًا لاستيعاب رحيلها.. أشعر أن الشيء الوحيد الذي كان سيجعلني أقبل البقاءَ حبيس البيت ببورسعيد، هو وجودُها. ولكنها رحلَت «صابر»!

ونزلت دموعُه منهمرةً وهو يقول:

- والله إن قلبي يُخبرني أنني سبب رحيلها! ملامحها كانت تُخبرني بخوفها وهلَعها الشديد! كلَّما تذكرتُ وجهها الذي انطفأ بين ليلةٍ وضُحاها، حتى عينيها يا «صابر»! والله إنني كنتُ دائمًا أشعر انها تراني، وحين مرضت، رأيتُها عمياء لأول مرة! والآن أشعر أنني من سببتُ لها مرضها.. أنا على يقينٍ بأن قلبها قد أحسَّ بما سيحدث لي!

حلَّ الصمت لبرهةٍ بين الجاريْن، ثم قطعه «صابر» قائلًا:

- الله يرحمها يا «سيد».. أنا عارف ومقدر أنك عانيتَ كثيرًا.. وأُدرك كيف تكالبت عليك المصائب فوق رأسك بلا هوادة، ولكن.. حاول أن تنسى. لا تطارد الآلام يا «سيد»! أمك في دار الحق وقد استراحت. أما الآن نحن هنا في هذه الدنيا.. ولكي نستريح فيها نحتاج إلى أن نترك فرصةً للأيام لتُداوي الجراحَ يا عزيزي.

عاد «صابر» إلى بورسعيد وقد حمَل معه قرارَ أُسرة «سيد» بالإقامة في القاهرة، وحزن كلُّ سكان العمارة، خاصةً «حسين»، الذي كان يتوق إلى عودة حبيبته.

***

على الرغم من أن كلَّ الوجوه كانت تعكس ما يشعر به الجميع، إلا أن «فريد» ظلَّ جامد الملامح لا يُعبِّر

Visual Watermark

عن شيء محدد. ولا تُبدي عيناه أيَّ شفقةٍ -كالآخرين- عندما يقابل أباه في صالة البيت وهو قابعٌ فوق كرسيِّه المتحرك. وأمضى كل الأيام السابقة يقرأ أحلام جدته ثم يضع الكراس أسفل الوسادة حين يحين نومه. ولكن.. طار النوم من عينيه لأيام عِدة، وأخرج الكراس يتصفح أوراقه، وقرأ الأحلام، وقد تحقَّق منها اثنان قبل وفاتها. ثم سرح في كلمات الحُلم الثالث، وتذكَّر جدته وهي تقول له:

«رأيتُ أباك يقف وحيدًا، وقد تحوَّلت ساقاه كأنهما جِذعا شجرتين جذورهما مثبتةٌ في الأرض من تحته. وصرخ يناديك: يا «فريد»! ولكنك لم تسمعه. فأمطرت السماء مطرًا كالسيول، وظلت الشجرة تنمو وترتفع بـ «سيد» حتى كاد يلامس السحاب، غير أنه في لحظةٍ وقعَ من ارتفاعه! وقعَ وتفتَّتَ وصار كأوراق الشجر المتناثرة في الخريف!»

همس مُحدِّثًا نفسَه: «تحقَّق حُلمك الثالث يا نينه!» ثم قلب الصفحة يقرأ الحُلم الرابع والخامس، وتوقَّف عند الحُلم السادس، يقرؤه بصوت مرتفع:

«رأيتُ «فيفي» بوجهٍ نِصفُه حزين والآخَر مبتسم، يلتفُّ حولها ثعبان تتبدل ألوانُه بين لحظةٍ وأُخرى.. تسير في طريق طويل باحثةً عن نور القمر، وترتدي في يدِها ثلاثة أسوار صوتُ احتكاكها يُرافق طريقها.. ربما، ستتزوج أُختك من رَجلٍ طويل القامة، في سُمِّه الدواء، ستَحمل في قلبها من المشاعر كلَّ شيء ونقيضَه، وستُنجب من الفتيات ثلاثة، ستأمل في الولد، غير أن القدَر لا يُعانِد يا بُني..»

وسرح «فريد» في أحلام جدته. كلَّما أغلق كراسه، يفتحه ليقرأ مرةً أُخرى وأُخرى.. خاصةً حُلم والده وساقيه اللتين تحولتا إلى أوراق الخريف! أغلق كراسه مرةً أخيرةً وخبَّأه تحت وسادته لينام. وشعر قلبُه بأن الجدة قد علمت بأمر العدوان، لكنها لم تُفصِح. وأحسَّ أنها ذُبلت سريعًا حتى لا تشهد ما سيحدث لابنها! خلع نظَّارته الطبيَّةَ ثم أغمض عينيه بشدة مُتوسِّلًا للنوم أن يأتي، وتنهَّد بحُزنٍ عميق، هامسًا لجدته التي سكنَت مُخيلته: «ليتَ أحلامك لا تتحقَّق يا نينه!»

***

لم يتطلب الأمر من «فهمي» وأخيه الصغير وقتًا طويلًا لكي يندمجا في الحياة الجديدة. فكان «جمال» ذو الثلاثة أعوام يقفز بحماسة من غُرفة لأُخرى، يركض على الدَّرَج ليَقف في مدخل البيت ناظرًا إلى المارة بالشارع باحثًا عن مَن في مثل عُمره، ثم يعود بلا أي قيودٍ مثلما كان الوضع مع إخوته في بورسعيد، أما «فهمي» فسرعان ما كوَّن بدوره صداقات جديدة مع جيرانه بالشارع، وخاصةً «ممدوح»، الملقَّب بـ «ميمي»، والذي سكن في العمارة المقابلة لهم. وكانت أُسرة «ميمي» من العائلات المعروفة بالحي، أُسرةٌ حسنةُ السُّمعة، وكان والده السيد «عبد المقصود» يَملك الجزارة الكبيرة على ناصية الشارع. واشتُهرت السيدة «شمعة» والدة «ميمي» بمساعدتها للآخرين، فلا ترد -قَطُّ- مَن يَطرق بابَها طالبًا أيَّ مساعدة أو معونة، وساهمت في تجهيز خادمتها السابقة للزواج كأنها ابنتها. ولـ «ميمي» أخٌ يُدعَى «مجدي»، وكان مدعاةَ الفخر لكل مَن في الحي، كما كان في عامه الأخير بكلية الطب، وقد وعده والده بتجهيز عيادة خاصة له فورَ تخرُّجه. اشتُهر «مجدي» بين أقرانه بجده واجتهاده، وبخفة ظلِّه الملحوظة أيضًا، وكان يُمازِح كلَّ مَن يراه بالشارع! واتسم بشدة الاهتمام بنظافته الشخصية وبمظهره الخارجي، ولم يترك المجال لشَعرة واحدة أن تحطَّ فوق ذقنه، فبدا لامعًا، مهندمًا، وجذابًا، لدرجة أن بعض بنات الجيران كُنَّ ينتظرنَه بفارغ الصبر حتى يهبط من العمارة، لتُراقبه أعينُهن وهو يحمل البالطو الأبيض بطرَف إصبعه على كتفه، كأنه «آلان ديلون» حتى يصل إلى سيارته ويرحل بها، وخلفه قلوب العذارى تلاحقُه! ومع اهتمامه المفرط بمظهره، كان لا يُفوت يوم الجمعة ليذهب بعد الصلاة بجلباب ناصع البياض ليقف في جزارة أبيه دون اكتراث ببقايا شغت اللحم ودماء الذبائح التي تُلطِّخ ثوبه وذراعيه، كما كان يتابع البيعَ ويساعد العاملين، حتى يتسنَّى لوالده أن ينال بعضَ الراحة في البيت. وتعامَل كلُّ سكان الحي مع «مجدي» ابن «عبد المقصود» على أنه طبيب باب اللوق الأوحد، يستشيرونه في أي عِلة تصيبهم، وأي دواء يأخذونه. وإلى جانب كرم والدته، عُرف عن «شمعة» تودُّدها لأغلب السيدات في الحي، فهي تحب مجالس النساء وحكاياتهن، وتستمع بإنصاتٍ واهتمامٍ لكل المشكلاتِ شديدةِ التعقيد أو التفاهة. تشاركهن الضحك والبكاء بصدق، وتُقدم لهنَّ النصائح إذا ما احتاجوا إليها. لذا قررت بعد مرور أسابيع قليلة من انتقال أُسرة «سيد»، أن تقوم بزيارتهم للترحيب بهم. وأبلغت حينها «فهمي» الذي توطَّدت علاقتُه سريعًا بابنها الصغير، أن يستأذن والدته لتأتي لزيارتهم. وقد أَلِفت أُسرة « شمعة» وجودَ «فهمي» ضيفًا دائمًا في بيتهم للمذاكرة مع

Visual Watermark

«ميمي». ورحَّبت «عليَّة» بـ «شمعة» حين حضرت لزيارتهم، وأحضرت معها لفافةً من اللحوم والبفتيك لإهدائها لهم. وظلَّت طوال جلستها مع «عليَّة» تتحدَّث عن ابنها الكبير بفخر، وتباهت «عليَّة» بدورها بابنها الذي سيلتحق بالجامعة بعد أشهر قليلة، كما حكت لها عن أبيها ناظرِ المدرسة، وعن زوجِها البطل، وعن ذكريات بورسعيد بحلوها ومُرها. ثم تذكَّرت حُبها للسينما، فتطرَّق الحديث إلى الفن والفنانين، وقالت «شمعة»:

- لا، ده لو عالسينما والمسرح، «عبد المقصود» سيُفيدك أكثر مني. فهو مدمن للفن والفنانين، لا يَغيب صوت «الست» من الجزارة عنده، ولا يفوت أيَّ حفل لها. وحتى الأفلام، يدخل الفيلم في السينما وهم يا دوبك بيعلقوا الأفيش. بس بيني وبينك، أنا كثيرًا ما لا أستطيع مجاراته والذهاب معه مثلما اعتدنا من قبل، وأصبح الدكتور «مجدي» هو الذي يرافقه.

ضحكت «عليَّة» قائلةً:

- كبرنا بقى يا ست «شمعة»!

فقاطعتها بسرعة، لتقول بنبرة جادة:

- فشَر! يعني أنا كبرت وهو لأ!

فاضطربت «عليَّة» لسوء فهم جارتها، وقالت مُصححة:

- لا طبعًا يا ست «شمعة»، أنتِ الشباب كله. المقصود كبر مسؤولياتنا كستات بيوت، وتربية الأولاد أمر مرهِق..

نسيت «شمعة» الجملة التي اعترضت عليها منذ ثوانٍ لتقول:

- أي والله، ومين سمعك يا «عليَّة»! أنا الدكتور «مجدي» لم يتعبني أبدًا في تربيته، وإنما سيَشُقُّ عقلي من الواد المزغودَ «ميمي» وشقاوته! في الحقيقة.. الجيل اللي طالع غير اللي فات. ومع ذلك تخيلي عندما أرفع صوتي عليه في أي مرة، يحترق قلبي من الألم، ولا يأتيني النوم حتى يستيقظ وأحتضنه. لكني أشدُّ عليه، لأن أباه أكثر قسوةً مني، ولو سمع بمصائبه سيُعلقه مع الدبيحة في الجزارة! اسألي أي حد في باب اللوق، وسيحكي لك عن طرائف ابني!

فقالت «عليَّة»:

- أنا للأمانة، وعلى الرغم من أنني بدأتُ الاعتياد على البيت هنا، أشتاق كثيرًا لبورسعيد وجيراني هناك، لقد كانت العمارة بأكملها كأُسرة واحدة، حتى جارتي أبلة «عنايات»، الله يمسيها بالخير، لم تُغلق بابَها قَطُّ. ولكن.. منذ جئتُ هنا وأنا أشعر بأن الحياة قد اختلفت.. تخيلي يا ست «شمعة»؟ أنتِ أول مَن يزورني. وكل مَن يسكن معنا في العمارة نفسِها، في حاله. بالكاد نُلقي السلامات إن تقابلنا صدفة! أشعر كأن الناس اختلفت عن زمان.

فقالت «شمعة»:

- الحياة وانشغالاتها يا «عليَّة». والهموم تجعل الناس من حولنا أكثر انطواءً. وعلى قد ما الثورة جلبت لنا الخير، جعلت الناس منشغلة أكثر بالغد. لكن أنا لا أسمح لنفسي ولا لأي حد من حبايبي بالانطواء، أنا بيتي مفتوح علطول.. واللي يفكر يغيب بطبّ عليه دون استئذان!

ضحكت «عليَّة» من كلمات الجارة، ثم أتت «فيفي» لتحية «شمعة»، فانبهرت برِقة الفتاة وجَمالها فورَ أن رأتها، وفاجأها لونُ عيني «فيفي» الفيروزي! فمالت على جارتها تُحدثها بصوت منخفض:

- ياما شاء الله على الحُسن! قمر ١٤؟! ألا قولي لي يا «عليَّة»، هو انتو فيكم عِرق إنجليزي؟

قهقهت «عليَّة» بشدة، وقد فهمت سبب سؤال الجارة، ثم قالت:

- حقه كله إلا الإنجليزي يا ست «شمعة».. لا.. هي بس جدة الأولاد -الله يرحمها- كانت أرمينية الأصل..

تمنت «شمعة» في هذه اللحظة أن تُصبح ساحرةُ العيون من نصيب الدكتور «مجدي»! بل تخيَّلت أن لها أحفادًا بعيون ملونة وشعورٍ حريرية ذهبية! فعادت تتحدث أكثرَ عن ابنها، وأنه يا سَعدها وحظها مَن ستأخذه زوجًا لها! وهي تدعو اللهَ في قرارة نفسها أن تصير الفتاةُ عروسَ المستقبل! اكتفت «فيفي» بتحية

Visual Watermark

«شمعة» تحيةً مقتضبة، ثم دخلت غرفتها لتُغلق بابها وترمي على السرير ناظرةً إلى سقف الغرفة، وقد انفتحت بداخلها أبوابُ الاشتياق واللوعة. لقد أمضت كلَّ الأسابيع الماضية وهي تحاول إخفاء ذبولها ودموع عينيها لابتعادها عن حُبها الأول «حسين»، الذي لا يُفارق أحلامَ يقظتها. وكانت الوحيدة التي تُشفق عليها وتشعر بها يعتلج في قلبها هي «أم عثمان»، التي لم يكن لديها ما تتذكره من ماضيها، غير أن هذا البيت الذي أتت إليه حينما كانت طفلة، كان يُوقظُ بداخلها مشاعرَ مختلطة، لا تستطيع فهمَها!

***

اتَّسم بيتُ باب اللوق بالاتساع الشديد مقارنةً بشقتهم في بورسعيد. احتوى صالةً كبيرةً للغاية بشُرفة كبيرة تُطلُّ على الشارع، وغُرفةً للجلوس، وخمسَ غرف نوم، وثلاث دورات مياه. اختارت «عليَّة» غرفةَ جدَّيْها التي لها حَمَّام خاصٌّ لتصبح غرفتها هي وزوجها. وتساءلت كيف عاش جداها وابنتهما الوحيدة «كوثر» في بيتٍ بهذا الاتساع! فلم يُنجبا سوى أُمها التي تركتهما لترحل مع زوجها إلى بورسعيد بعد زواجها. وأمضيا العمر في هذا البيت المتسع حتى رحلا إلى بارئهما في هدوء.

احتارت «عليَّة» من ذبول ابنتها، وجمود ملامح ابنها الكبير، إلا أنها كانت لا تُحدثهما. تساءلت أيضًا -بصمتٍ- في كل ليلة قبل نومها، عمَّا آل إليه حال الأُسرة، وهي تنظر كابتتها إلى سقف الغرفة، لترى حياتها وأيام طفولتها كشَريطٍ يمر ببطء أمام عينيها. تحمل في قلبها عبئًا وخوفًا لا مثيل له من الغد. مثلها مثل «سيد» الذي ظلَّ لليالٍ طويلةٍ ينظر إلى السقف في سكون الليل، بترقُّب شديد، كأنه سينطبق عليه في أي لحظة! احتمل سقف هذا البيت من أعباء هذه الأُسرة وهمومها أكثرَ من اللازم! ولم تكن أحداث الماضي وحدها التي تؤرق «عليَّة»، فقد اختلفت مصاريف البيت عمَّا كانت عليه في بورسعيد، وكان معاش زوجها الذي تحصَّل عليه بعد حادثه، بالكاد يكفي متطلبات البيت الأساسية. كما تذكرت أخاها، فقد أرسل لها جوابًا بعد أسبوعين من استقرارهم بالقاهرة، يعتذر لها عن عجرفة زوجته عندما ذهبوا إليهم وقت العدوان، ويشكو إليها من سوء حاله وبُغضه للحياة، خاصةً مع سوء معاملة زوجته ووالدها له. وطلب منها أن تحاول إرضاء والدته التي انزعجت بشدة من معاملة زوجته أيضًا.

وقد باءت كلُّ محاولات «عادل» بالفشل طالبًا من والدته أن تأتي لتقيم معه، واشتعلت نيران الخلافات ببيته عندما أخبر زوجته برغبته تلك. ولكن كان قرار «كوثر» قاطعًا ونهائيًا في الإقامة مع ابنتها، بل وعدم زيارة ابنها مرةً أُخرى ما دامت على قيد الحياة! فقد تطرَّق إلى سمعها في ليلتهم الأولى بدمياط، كلماتُ «نوال» مع زوجها، وقد امتعضت لقدوم الأُسرة المفاجئ من بورسعيد واصفةً إياهم بالقضاء المستعجل! وأنه كان من الذوق أن يتصلوا أو أن يرسلوا تلغرافًا بإعلام الوصول!

مع مرور الوقت، اقتنع الجميعُ أن شقة باب اللوق هي الأنسب لهم ولـ «سيد»، خاصةً أنها بالطابق الأرضي، بينما مسكنهم ببورسعيد سيجعل خروج «سيد» وحمله من الطابق الثاني من المهام الصعبة.

***

راقبت «كوثر» في صمتٍ ازديادَ متطلبات البيت، وخاصةً أن ما تحصل عليه «عليَّة» ببطاقة التموين لم يَعد كافيًا لسدِّ الحاجة. فقالت لابنتها بعد تفكير طويل إنها قررت بيعَ بيت بورسعيد بعد أن تهدأ الأمور، وأنها ستمنح عائده لـ «عليَّة» وأُسرتها، غيرَ أن «عليَّة» رفضت قائلةً بثقةٍ وعزة نفْس إنها لا تحتاج شيئًا، وأن معاش زوجها يكفي أهل البيت ويَفيض.

وقررت «عليَّة» أن تنفض الغبارَ عن ماكينة الخياطة التي كانت تمتلكها جدتُها، لتقوم بتفصيل ملابس أبنائها، وخاصةً ابنتها التي التفَّ قوامها. وباتت تنتظر في ترقُّب مَن يأتي ليدُقَّ البابَ طالبًا يدَ «فيفي». تقبَّلت «عليَّة» الحياةَ التي فُرضت عليها، ولكن الأمر الوحيد الذي حاولت مرارًا وتكرارًا تقبُّله دون جدوى، هو ما حدث لزوجها، وما أصابه من يأسٍ لا يُفارقه.

فقد بدا «سيد» كمَن يبلغ من العمر مئة عامٍ أو ربما ألفًا! غزا الشَّيب شَعره دون استئذان أو تمهيد، وتحولت عيناه من العسليتيْن إلى البُني الداكن، وكأنهما تعكسان ما رآه من أهوال العدوان! بل كأنه استيقظ فجأةً كرَجلٍ عجوز بائس، لا يأمل في الغد ولا يَسعى إليه. وكانت تحاول أن تُمازحه من خلف آلامِها، أن تُخفِّف عنه، أن تراه يبتسم ولو مرةً عابرة!

فقالت له وهي جالسةٌ تُفصِّل على ماكينة الخياطة:

- مرَّ وقت طويل دون أن نذهب للسينما. ألا ترغب في مشاهدة فيلم جديد؟ أتعرف.. نزل فيلم جديد

Visual Watermark

اسمه «بورسعيد».. بالتأكيد يحكي عن البطولات التي قمتَ بها أنتَ وكلّ الأهالي.

أجابها «سيد» بلا كلمات! بنظرةٍ طويلةٍ لها ألفُ معنًى، ثم تنهَّد بحُرقة.. ولم تكن «عليَّة» تحتاج إلى نظرته تلك لتذكيرها بما حلَّ به، فهي تتألم قدْر ألمه كلَّ ليلة. وكثيرًا ما تستيقظ في منتصف نومها تتحسَّس ساقيْها كأنهما هما اللتان بُتِرتا! تُفكر كيف يشعر الإنسان عندما يفقد جزءًا من جسده! كيف كانت الحياة التي عاشتها الجدة «آمنة» بأعين لا ترى النور؟ وكيف هي الآن لابنها بعد أن فقدَ قدرته على المشي إلى الأبد! وأدركت أن زوجها لم يرَ الشارع لأكثر من سبعة أشهُر! فانتظرت عودة «فريد» من الخارج، والذي قدَّم أوراقَ التحاقه بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وبات يُمضي أغلب الأوقات خارج البيت مع بعض زملائه الذين شاركوه شغفه بالعلم. وعند عودته قالت له أمه إنها تريد أن يأتي معها لاصطحاب أبيه للتنزه قليلًا بدلًا من الجلوس في البيت، فردَّ «فريد» بتعجُّب:

- وأين سيذهب بابا بوضعه هذا؟

نهرته «عليَّة» قائلةً:

- أيُّ وضع؟ ألا يَحق لأبيك الخروجُ ورؤيةُ البَشر؟! لقد مرت أشهر طويلة وهو حبيس البيت لا يفعل شيئًا. لنأخذه للتنزه في أي مكان قريب.

ابتسم «فريد» بتهكُّم ليقول:

- نحن لسنا في بورسعيد يا أمي.. انظري من الشُّرفة.. الشوارع هنا مزدحمةٌ للغاية.. شوارع القاهرة تعجُّ بالبَشر يا أمي! الناس والسيارات ووسائل المواصلات والباعة بأصواتهم المرتفعة.. سيختنق أبي فور خروجه.. ولكن... كما تشائين.

اقتربت «عليَّة» من ابنها خطوتين، ونظرت إلى عينيه بلومٍ لتقول بصوت منخفض:

- أتعلم شيئًا؟ لقد عرضتُ على أبيك أمس أن نعود إلى بورسعيد، لأنني أشعر أنه يتألم في صمت، يتجرع الأحزان كلَّ دقيقة تمُرُّ من عُمره، ويشتاق إلى أيامه هناك. كل شيء لنا هناك.. أيامٌ وسنواتٌ من الذكريات تركناها خلفنا! أبوك هنا في الوقت الذي يهتف الرجال في شوارع بورسعيد باسمه، ولكنه لا يسمعهم! لقد أمضيتُ الليلَ بطوله أحاول إقناعه بالعودة حتى لا أشعر بذنب البقاء. أتعرف ماذا كان ردُّه؟ إننا يجب أن نظلَّ هنا جميعًا لأجلِك.. لأجلِك أنت فقط يا «فريد»! أبوك قرر ألا يرحل حتى تكون بالقُرب من جامعتك، ورأى أنه من الأفضل أن نبقى معك، وبجانبك. لقد ضحَّى والدك براحته لأجلك أنت، وفي المقابل تتذمَّر حين أطلب منك أن نأخذه في نزهة!

انهمرت دموع «عليَّة» فذُهل «فريد»! واقترب يُقبِّل رأسها ويعتذر لها عن ذنبٍ لا يعرف متى اقترفه! غير أن «فريد» لم يكن السبب الأقوى لبكاء والدته، فقد أصبحت منذ استقرارهم في القاهرة كالعنكبوت، كأن لها أياديَ كثيرةً تنسج خيوطَ هذا البيت، تبنيه وتبتلع همومه دون اعتراض. ولكنها لا تأكل ذكرها في نهاية الأمر كأنثى العنكبوت، وإنما تتآكل.. تتآكل هي ببطءٍ لأجل كلِّ أفراد أُسرتها.. في صمتٍ وبلا شكوى.. بوجهٍ يملؤه الرضا، وبتقبُّلٍ لا مثيل له!

في اليوم التالي، ساعدت «عليَّة» زوجها في ارتداء ملابسه، وكان كالطفل لا يعترض على شيء، ولم يسألها حتى إلى أين ستأخذه هي و«فريد»! استند على ابنه في هبوطه ثلاث درجات للشارع، وخلفهم «أم عثمان» تحمل لهم الكرسي المتحرك لتضعه على الرصيف، ثم ساعدته زوجتُه لكي يجلس مرةً أُخرى، ووضعت فوق فخذيه غِطاءه الصوفيَّ الذي لا يفارقه.

مشيا به في الشارع بلا هدف، وكان «سيد» ينظر حوله كأنه يرى العالَمَ للمرة الأولى. في قرارة نفسه لا يزال رافضًا بقاءهم في القاهرة، ولم يخطئ «فريد» في توقُّعه لِما سيشعر به والده، فقد اختنق «سيد» بالفعل ما إن واجه العالَمَ الخارجي! اختلفت ملامح باب اللوق عن شارع فؤاد في كل شيء، رائحة اليود البحري المميزة في نسمات بورسعيد تبدلت، وتكاثفت روائح أُخرى مختلطة، اختفت وجوه الأجانب الذين اعتادوا التسكع في شوارع بورسعيد بروائح عطورهم باهظة الثمن، وحلَّ مكانها رائحة عَرَق المارة الباحثين عن سُبل العيش، والبائعين الذين اختلطت روائح كدِّهم مع دخان الشيشة المتصاعد من القهوة المقابلة للبيت على الرصيف الآخَر. منذ قدومه إلى القاهرة، توقف «سيد» عن التدخين كأنه لم يدخن سيجارةً من قبل، وصار يمقت الأدخنة وروائحها، وكأنها تُذكره بالبيوت التي احترقت، بأعمدة النيران المتصاعدة جرَّاء

Visual Watermark

قصف القنابل، بروائح البارود، والسحابة السوداء التي غطّت سماءَ بورسعيد أيامَ العدوان! كما توقف عن قراءة الجرائد، ولكن وجوه المصريين من حوله كانت بمثابة صفحاتٍ أولى من الجرائد القومية! كلّ الوجوه تحكي الكثير من المعاناة والصبر والشجاعة.

ظلت «عليَّة» تدفع كرسيه المتحرك في صمت، حتى مرَّا بالقُرب من رَجل عجوز يَحمل صندوق الورنيش لتلميع الأحذية، فطلب منها «سيد» أن تتوقف لتلميع حذائه، فتسمرت دون أن تنطق بكلمة، ولم يفهم زوجُها للحظةٍ سِرَّ ملامح التوتر التي اعترتها، ولكنه سرعان ما أدرك حالَه، فخبط على مسندي الكرسي المتحرك بكفَّيه، ومرَّت لحظاتٌ توقَّف فيها الزمن حولهما! وقد لاحظ «سيد» ملامح الزوجة الحزينة، ابتلع ريقَه وقد وقفت الكلمات في حَلْقه، وتذكَّر قول الأطباء له أن يَحمد اللهَ أن البتر تمَّ للساقين فقط دون الفخذين، وقد تهكَّم «سيد» حينها وقال مُحدِّثًا نفسَه: «وما الفائدة دون الأقدام!» ولكنه حمدَ اللهَ على بقائه على قيد الحياة. كما لم يوافق على فكرة الحصول على سيقان اصطناعية، واصفًا إياها بالقُبح، وأن من الشرف له أن يتقبل جسده بنقصه دون أن يُكمله بقطعٍ بلاستيكيةٍ زائفةٍ تتصل به!

مرَّت لحظاتٌ طال فيها صمتُ «سيد»، ثم أشار دون أن ينطق بكلمة إلى بائع الجرائد، ففهمت «عليَّة»، وحمدت اللهَ أنه اختار شيئًا تستطيع تلبيته له، وركضت تُحضر له أربع جرائد مختلفة، ومجلةَ روز اليوسف، دون الاكتراث بالمصاريف. وابتسم «سيد» في رضًا كالطفل، ووضع الجرائد فوق فخذيه، ثم اختار الأهرام لقراءته، ورفع رأسه ينظر إلى زوجته وقد لاحظ احتباس الدموع في عينيها، ثم قال لها مداعِبًا:

- أهو كده التمشية ولَّا بلاش! أُراهنكِ أن الناسَ من حولي ستحسدني لأنني أقرأ كالباشا في مسيرتي.

ابتسمت «عليَّة» من قلبها لكلمات زوجها. ونظر «فريد» الذي كان يسبقهما ببضع خطوات خلفه ليرى ما يحدث، ابتسم لأنه افتقد رؤيةَ والده وهو يَدفن وجهه بين صفحات الجريدة مثلما كان يفعل في بورسعيد. وأخذ نفسًا عميقًا ليمشي عائدًا إليهما، ثم وقف بجانب والده يتابعه بتأمُّل.

استطاع «فريد» طوال كل تلك الأشهر التمرسَ على إظهار جموده ولا مبالاته بحِرفية شديدة، كأنه تمثالٌ يخلو من الروح! غير أن الكثير من المشاعر كانت تختبئ خلف جموده هذا. كثيرًا ما كان يُحمِّل نفسَه ذنب ما حدث لأبيه في كل لحظةٍ تمرُّ من عمره. يتذكر وصية جدته «آمنة» فيزداد ألمًا، لأنه كان لا بد له من البقاء معه في بورسعيد. وأصبح يُحمِّل نفسَه ذنبَ كلِّ شيء سيئ حدث لهذه العائلة بعد حادث أبيه، ذنبَ انتقالهم للقاهرة وتركهم لبورسعيد، حتى أُخته، التي كان يلاحظ لهفتها حينما تلمح جارها أو يأتي اسمه، ويدرك جيدًا بفطنتِه أن هذا الحزن الذي تعيشه هو لافتقادها له.

بعد أن مشوا لمسافة كبيرة، سرح في وجه أبيه للحظات، ثم نظر في الاتجاه الآخَر وقال: «لنذهب إلى كوبري قَصر النيل».

***

حاول «فريد» بكل ما أوتي من قوة أن يَصب كلَّ جهده في المذاكرة استعدادًا للالتحاق بالجامعة، وتعرَّف على شاب يُدعى «صلاح» الذي عرَّفه على آخَر يُدعى «رشدي». وحاول الشابان كثيرًا حثَّه على الخروج للتسكع معهما، أو جذبه إلى أحاديث جانبية تخص مغامرات «رشدي» العاطفية التي لا تنتهي، لكن بلا جدوى!

وعلى الرغم من أنهما اعتادا التفوق كـ «فريد»، إلا أنهما كانا أكثر انفتاحًا على الحياة من صديقهما «القفل» كما يناديانه! وكان «فريد» قد تعرف عليهما في الشهر نفسه الذي أتى فيه للاستقرار في القاهرة. كان «صلاح» يسكن بباب اللوق على بُعد بضع بنايات سكنية منه، أما «رشدي» فكان يقيم في رمسيس، ولا يبعد عنهما سوى نصف ساعة من المشي على الأقدام. وكان الثلاثة عادةً ما يجتمعون في بيت «صلاح» للاستذكار. وكان «فريد» كلما نظر إلى «صلاح» تذكَّر صديقه وجاره ببورسعيد «حسين»، فقد كان «صلاح» مهمومًا بشؤون البلاد مثله. لا تمرُّ مقابلةٌ بينهم دون أن يُخبرهم بأمر جديد عن حال مصر والأوضاع السياسية وقرارات عبد الناصر التي لا تتوقف، غير أنه اختلف عن «حسين» بعدم مشاركته الفعلية في الأحداث، كان بمثابة ناقلٍ فقط لِما يحدث، كأنه مرآة تعكس كلَّ شيء بدقة متناهية. أما «رشدي» فكانت أحاديثه تبدأ وتنتهي عند المرأة.. تفاصيلها.. وخبايا جسدها.. وطُرق الإيقاع بأية فتاة في شِباكه! كما أنه يُحب الغناء للغاية، ودائمًا ما يقول بثقة إن موهبة عبد الحليم حافظ لا تعني شيئًا بجانب موهبته! غير أن الحظ لم يُحالفه بعد! وفي الحقيقة أن صوت «رشدي» لم يكن على هذا القدْر الذي يدّعيه من الموهبة،

Visual Watermark

ولكن زميليه كانا يُجاريانه، فأصابهما بالصداع فهما جمهوره الوحيد! أمَّا أسرته، فلم يقتنع أيٌّ من أفرادها بموهبته المزعومة تلك، فكان ينتهز أي فرصة لاجتماعه بأصدقائه ليُغني، حتى يقولون له متوسلين: «كفاية يا كروان!»

كان عام ١٩٥٧ عامًا فارقًا في حياة الثلاثة، التحق كلٌّ من «فريد» و«رشدي» بكلية الحقوق، أما «صلاح» فالتحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية. وبدا «فريد» تائهًا بين الجميع في يومه الأول، أحكم قبضة يده على كتابين حملها معه، وهو ينظر إلى مجموعات الطلاب التي وقفت في أماكن متفرقة بداخل الحرم الجامعي، يبحث بعينيه عن زميله «رشدي» بلا أمل! فقد بدا الحرم الجامعي كأنه خلية نحلٍ تعجُّ بالبَشر! شعر بضيق لحظيٍّ وكزَّ على أسنانه في توتر. تذكَّر جده «حافظ» الذي كان يأمل دائمًا أن يراه طالبًا في كلية الحقوق، كونها من كليات القِمة ولا يتخرج فيها سوى نُخبة المجتمع من المثقفين والساسة ورجال القانون. ولكن «فريد» لم يشعر بأي تميُّز زرعه جده بوجدانه عن ذلك المكان. نظر حوله يتفحص الوجوه مُنجَّمًا قادةَ المستقبل ونخبته من الطلاب، وأحس أن البلاد قد اكتفت من القادة، وأن كل هؤلاء -وهو منهم- فائضٌ على المجتمع! أطرق أُذنيه يستمع إلى أحاديث الطلاب التي بدت جادةً للغاية، فهؤلاء يتحدثون عن المؤامرات الاستعمارية وذكاء عبد الناصر، وهؤلاء يتحدَّثون عن تأميم القناة والتصدي للعدوان، وآخَرون عن الوحدة العربية وما ستجلبه من التقدم. لقد تجنب طوال السنوات القليلة السابقة الانخراط في أي شيء سياسي، تجنَّب قراءة الجرائد ومناقشات أبيه، ليجد نفسه وسط كل هذا، لا مجال للفرار منذ الآن! لا يعرف كيف تحطمت كل رغباته في تحصيل العِلم منذ اللحظة الأولى له في الجامعة! تذكَّر قرار أُخته «فيفي» التي يَكبرها بعامين، بأنها قد اكتفت من الدراسة وقررت ألَّا تُكمل تعليمَها. ففكَّر: رُبما «فيفي» أذكى منه! لقد اختارت شيئًا أرادته بمطلق حريتها، ووقفت يومها تشرح لأبيها وأُمها أسبابها في دقيقةٍ ونِصف، دقيقةٌ ونِصف حلَّت الكثيرَ من الثقة بالنفس، والتخطيط للغد، وتقرير المصير، ولم يُعارضها أحد! أما هو، فقد أخذ يفكر في حاله وازداد توتره وهو يسأل نفسه: تُرى هل كان سببُ التحاقه رغبةَ جده الدفينة منذ أن كان طفلًا، أم رغبته هو؟ شعر في تلك اللحظة بانعدام هويته. كل هؤلاء يصنعون بطولات من الأفكار، من النقاشات، كل هؤلاء قرروا منذ يومهم الأول بالجامعة أن يتحدثوا بملء قلوبهم عن حال الوطن وطرد الإنجليز وبناء مصر الناصرية. أما هو.. فهو ليس سوى طالبٍ يتسكع بينهم بلا بطولة تُذكَر، سوى تحقيق رغبة جده الذي رحل بين ليلة وضحاها! وجد شجرةً وحيدةً فعبر الطريق ووقف يستظل بها، ثم أخرج من بين كتبه كراس جدته، وفتح يقرأ الحُلم السابع بصوت خافت:

«رأيتكَ وقد دخلت الجامعة، وبجانبك فتاةٌ فائقة الحُسن.. شَعرها قصير بُني.. وعيناها عسليَّتان شديدتا الجَمال.. نظرتَ في عينيها نظرةً طويلةً ثم سحبتك عيناها إلى داخلها.. لتسبح في أعماقها، وكأنك اثنان يا بني! رأيتُك تسبح في كل عين! غير أنك بدأتَ تلهث بشدة، وكأنك على وشَك الغرق، فأغمضَت عينيها عليك، ليُصبح جفناها كالشاطئ الذي ظَهر لك فجأةً ليُنقذك من الغرق!»

أغلق «فريد» الكراس وانتابته الحَيرة؛ فالأحلام الباقية تحمل كلَّ الغموض وكلَّ الوضوح في اللحظة ذاتها! تذكَّر وجه أمه في الصباح وهي تعانقه وتدعو له بالتوفيق في يومه الأول، ثم خرجت «فيفي» من غرفتها وهي تمازحه عن فتيات الجامعة. الفتيات.. لا يرى الكثير منهن.. فقد فاق الشبابُ عددهن، أو هذا ما توصَّل إليه في تلك اللحظة. تعجَّب من نفسه ومن عينيه اللتيْن تتلصصان من خلف نظَّارته الشفَّافة وتنظران إليهن في تفحُّص، يبحث بينهنَّ عن قصيرة الشَّعر فائقة الجَمال بعينيها الساحرتين! وفتح فمه مشدوهًا.. ثم قال بصوت مرتفع: «كلهنَّ قصيرات الشَّعر يا نينه!»

***

Visual Watermark

فلا أحزان باقية، ولا أفراح تدوم حتى النهاية!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الفصل السادس

لا تعرف «فيفي» كيف تبدلت مشاعرها بين ليلةٍ وضُحاها وقد نسيَت «حسين» كأنها لم تحبَّه يومًا! دقَّ قلبُها كأنه يدق للمرة الأولى عندما غمز لها شابٌّ بعينه! أحبته بشدة لم تتعجَّب لها، فكل شيء حولها يمر ببطء عدا العلاقات بين البَشر. تظل أُم كلثوم تُغني أغنيةً واحدةً بالمذياع لساعات، وتدور عَجلة التقدم بالبلاد ببطءٍ وخطوات محسوبة، ويمرُّ العام كأنه دهر، أما الحُب، فهو لا يعرف شيئًا اسمه وقت، يُقبل البطل في الأفلام حبيبته بعد أن يراها في المرة الأولى، ويسهر ليله كأنه يعرفها منذ قديم الأزل! وهكذا شعرت «فيفي» حينما رأت ذلك الشاب المجهول. كانت حينها في شُرفة البيت تنظر بلا هدف إلى المارة على جانبي الطريق. وتكرر مرور الشاب من جانب الشُّرفة مرات عدة، وكان لديه من الجرأة أن استغلَّ وجود الشُّرفة بالطابق الأرضي فألقى إليها وردة، التقفتها «فيفي» منه وركضت إلى غرفتها تُخبئها تحت وسادتها! وأصبحت منذ ذلك الحين تنتظره كلَّ يوم وتتلهف لرؤيته، وقد حُفرت ملامحه في أحلامها. كان قَمحي البَشرة، رفيع الجسد، طويل القامة، يسير بخطوات مغرورة مُشمِّرًا أكمامَ قميصه الذي كشف عن غزارة شَعر ذراعيه، يضع يديه في جيبَيْ بنطاله وهو يرفع جسده عن الأرض بين خطوةٍ وأُخرى يمشي في خُيلاء. حكت لـ «أم عثمان» عنه وقالت لها كيف أنه يُشبه ذلك الممثل الوسيم أحمد رمزي، ولم تكن «أم عثمان» تعرف مَن هو أحمد رمزي، ولكن كل ما قالته لها أن انتبهي حتى لا يراكِ أحدٌ من الجيران، أو يلاحظ أخوكِ أو أي من أفراد الأسرة مغازلات ذلك الشاب، خاصةً الجدة «كوثر»، والتي أصبحت تُعلِّق كثيرًا على بقاء حفيدتها طوال الوقت في الشُّرفة. لم تكترث «فيفي» لنصيحة المُربية، ولم تعبأ بمضايقات جدتها لها وتلميحاتها الدائمة بقول: «بنات آخِر زمن!» وأصبحت الشُّرفة بباب اللوق، كما كانت شُرفة بورسعيد، مكانَها المُفضَّل الذي تُمضي فيه أغلب ساعات يومها. حتى أتى ذلك اليوم، لتجده واقفًا على الرصيف المقابل وهو يُشير لها إن كانت تستطيع الخروج من البيت لرؤيته، ارتبكت، ومكثت تُفكر كيف ستخرج، وأي حُجة ستخترعها!

وخرجت من الشُّرفة مسرعةً لتقول لكل الجالسين بالصالة، إنها تحتاج إلى بضعة قروش لشراء بطاطا من البائع الذي يقف عند ناصية الشارع، امتعضت الجدة وهي تُتمتم باعتراض، وأخرجت «عليَّة» محفظة النقود بهدوء، ومعها خرجت كلمات الجدة «كوثر» لتقول:

- من امتى وأنتِ تُحبين البطاطا يا «فيفي»!

- ومَن لا يُحبها يا نينه؟

اتسعت حدقتا «كوثر» من رد الحفيدة السريع! ثم قالت:

- بلا دلع بنات! أرسلي أخاكِ «فهمي» ليشتري لكِ..

لم تكترث «فيفي» بما تقوله جدتها، ثم قالت وهي تُخاطب أمها:

- ريحتها يا ماما تجنن بشكل! وواصلة لحد هنا..

ردت «عليَّة»:

- لا لو كده اشتري لي ولجدتك أيضًا.

لوَّحت «كوثر» بيدها في انفعالٍ وقالت بغضب:

- لا.. لا تشتري لي بطاطا ولا غيره..

أعطت «عليَّة» النقود لابنتها، التي ركضت مُسرِعةً إلى غرفتها لتبدل ملابس البيت وترتدي فستانًا مخمليًّا قرمزيَّ اللون، فضَّلته أُمها لها منذ أسبوع، ومن فوقه شال صوفي، ثم ارتدت حذاء بالبرينا أسود بسيط. وخرجت مُتعجِّلةً وهي تتلفَّت حولها، قبل أن تسمع كلمةً أُخرى من جدتها. عبرت الشارع للرصيف المقابل، ومشَت بخطواتٍ متلاحِقةٍ كادت أن تُسقطها أكثرَ من مرة، في الاتجاه الذي كان يقف فيه الشاب. حتى وصلت إلى الناصية، ولكنها لم تجده! نظرت حولها بقلق وهي تبحث عن وجهه في وجوه المارة، ولكنه اختفى كأنه حُلم! تأفَّفت في ضِيق وهي تتساءل في قرارة نفسها: لعلَّه ملَّ الانتظار؟ وربما ظن

Visual Watermark

بعد خروجها من الشُرفة أنها ترفض مقابلته؟ سارت نحو بائع البطاطا بخيبة أملٍ وخطوات بطيئة:

- اديني اتنين بطاطا لو سمحت.

- خليهم تلاتة إذا سمحت..

ابتلعت ريقها وقد بدأ قلبها ينبض بأقصى سرعة لديه، وهي تنظر إلى الشاب الذي وقف خلفها هو يمد يده بالنقود إلى البائع، وأومأ برأسه قليلًا نحوها وهو يهمس لها:

- خليها عليَّ المرة دي يا آنسة..

بدا صوتُه مميزًا للغاية في أذنها. رفعت رأسها بتردُّد لتنظر إليه، وما إن التقت عيناها بعينيه، حتى دبَّت الحرارة في سائر أنحاء جسدها، وتسمرت للحظات في مكانها وقد نسيت العالَمَ من حولها. أفاقت من تلك اللحظة الهائمة على صوت البائع، الذي كان يمدُّ يدَه بالبطاطا لها منذ عدة ثوانٍ دون أن يلتفت إليه أحد، فقال بصوت مرتفعٍ بدا مزعِجًا لها:

«أنت ياااا حضرت! البطاطا يا موزموزيل! يا خواتًا.. نحن هنا!»

ارتبكت «فيفي» ثم ركضت بلا تفكير عائدةً إلى البيت دون أن تأخذ البطاطا.. وما إن دخلت من باب الشقة، حتى وجدت «عليَّة» و«سيد» وقد اعترتها نظراتُ الدهشة، وقال لها أبوها:

- ماذا بكِ؟!

ازداد وجهُها احمرارًا، وظهرت على جبينها قطراتٌ كالندى، على الرغم من برودة الجو! دسَّت يديها تحت شالِها لتقول:

- أااا.. الظاهر أن الفلوس وقعت مني وأنا أعبر الشارع..

ابتسم «سيد» وأشار لها أن تقترب.. اقتربت منه وانحنت لتجثو على ركبتيها أمامه دون أن تنظر إليه. ربَّت أبوها بحنوٍّ على كتفها، ثم رفع ذقنها بأنامله لتنظر إليه، وقال:

- ولا يهمك.. لكن خذي بالك في المرة القادمة.. والآن، ادخلي غرفتكِ قبل أن تخرج جدتكِ من الحمَّام وتعلم أمرك.. ساعتها هتطيِّن عيشتك وعيشتنا..

ابتسمت الفتاة، ثم أومأت برأسها وقامت من أمامه لتدخل غرفتها وتُغلق بابها. وهرعت نحو النافذة تنظر إلى الشارع، لتجد الشابَّ لا يزال واقفًا مكانه بجانب البائع وهو ينظر تجاه نوافذ البيت وشُرفته باحثًا عنها، وما إن لَمحها، حتى رفع يدَه لأعلى بالبطاطا المَنسية، فقفزت كضفدعٍ فوق السرير مبتعدةً عن النافذة! غير أن صوت البائع وصل إليها وهو يقول: «معسلة يا بطاطا!»

***

جلس «سيد» يشرب كوب الشاي، وقد بدا منهمكًا في قراءته للجريدة سارحًا في عنوان صفحتها الأولى عن إعلان الجمهورية العربية المتحدة في فبراير ١٩٥٨، أُعلنت نتائج الاستفتاء بفوز عبد الناصر رئيسًا منتخَبًا بنسبة ٩٩.٩٩٪ وتساءل «سيد» في قرارة نفسه: مَن هؤلاء يا تُرى الذين يُمثلون تلك النسبة الضئيلة للغاية لتكتمل المئة بالمئة؟! هو نفسه لم يترك بيته ليذهب للانتخاب! وذكَّره إعلان ريفو -أسفل البيان- بالآلام التي يشعر بها في روحه، بالتيه الذي أصاب عقله والشجن الدفين بداخله. قرأ كلمات الإعلان التي تُعلن بثقة عن إزالة الدواء للآلام بسرعة وأمان، ثم تنهَّد وهو يهمس قائلًا لروحه: «ولا شريط ريفو بأكمله سيُنجدني من آلامي!» وكانت مشاعره مضطربةً متناقضةً تجاه كل ما يقرؤه عن أحداث البلاد. في قرارة نفسه يُحب عبد الناصر ويشعر بوطنيته، غير أنه لم يكن مقتنعًا بقرار الجمهورية المتحدة. وتذكَّر «سيد» جارَه ونقاشاتهم المطوَّلة في هذا الأمر. فقد توقَّع «صابر» الاتحادَ بين مصر وسوريا عاجلًا أم آجلًا، بل كان من المنتظرين له، لأنه يرى أننا لن ننتصر على الغرب سوى بقيام قومية عربية تقف أمام الأعداء وتُوحد الجيوش من كل حدَبٍ وصوْب، وأن من ذكاء الشعوب الأخرى أن يتركوا للرئيس جمال عبد الناصر قيادةَ أمورهم، فعبد الناصر -وفقًا لما يراه «صابر» وأغلب الشعب المصري- هو زعيم الأمة. الأمة التي انتفضت ليس لأجل الظلم الاستعماري فقط، بل لأجل كلِّ الشعوب العربية، خاصةً لأن الأسباب الحقيقية التي تكمن خلف الثورة هي ما حدث في أرض فلسطين، ومشاعر الخزي التي تأججت في نفوس المصريين وهم يحاربون بأسلحة بلا قيمة.

غير أن «سيد» رأى أنه من الأفضل أن يَصُب عبد الناصر اهتمامَه على شؤون البلاد التي أنهكها

Visual Watermark

الاستعمار وسلب خيراتها لسنوات طوال، وقال لجاره «صابر» ذات يوم:

- بلادنا تحتاج إلى الاهتمام الخالص لكي تتحرك إلى الأمام. إن عبد الناصر وعلى الرغم من توليه السُّلطة، لا زالت الهتافات والأفكار الثورية هي المسيطرة على وجدانه. وأنا لا ألومه، فلولا الثائرين لما نجحنا في هزيمة المحتلين. ولكن.. أمَا آن للشعب أن يهدأ من فكرة الثورات، وملاحقة عبد الناصر في الميادين للهتافات، لينظر ما عليه فِعله الآن؟ أمَا آن للشعب أن يعمل بكدٍّ ليحصد نتاج ثورته؟ وأن يتساءل عن الغد بحُرية دون أن يُزجَّ به في السجون!

وكان سبب كلمات «سيد» تلك، هو بدء اتساع دائرة الاعتقالات لكل مَن تُسوِّل له نفسُه معارضةَ سياسات عبد الناصر لإدارة مصر، واعتماده على سياسة الحزب الواحد الوطني في البلاد بعد أن بدأ بحل الأحزاب المُعارِضة واحدًا تلوَ الآخَر. وتسببت هذه الكلمات آنذاك في مشادة جادة بين الجارين. وتعجب «سيد» حينها من جارِه قائلًا له:

- يا أخي أنا لا أعرف سِرَّ تعصُّبك الشديد لحُكم عبد الناصر، دون السماح لانتقاده في أي شيء! هل يخلق نظامُه الديكتاتوريةَ في نفوس مؤيديه؟ ما أنا أمامك هنا، أؤيده من كل قلبي، بل بكيتُ لحظة توليه! ولكنني أتعجب من تأليهنا للحُكام! لقد ولَّى عهد فرعون يا «صابر»! ألا يَحق لي الاعتراض إن شئتُ؟ ألا يَحق لي أن أُعبِّر عن رأيي؟ يكون في معلومك، لن تنجح أي أمة في هذا العالم بخلق الفكر الديكتاتوري المتعصب الذي يرفض الآراء الأخرى ويزجُّ بمعتنقيها في السجون!

وصدَق «سيد». فعلى الرغم من كل المشادات السابقة بين الجارين، ورفضه للقرار الصادر الآن بإعلان الوحدة العربية، إلا إنه يُحب رئيس البلاد من كل قلبه، ويمتنُّ له لأنه مُحرك الثورة الأصلي وقائد رايتها. ولم يكن هناك دليل لذلك التقدير أكبر من تسمية ابنه الأخير على اسمه. بل وحينما قررت «عليَّة» -بعد استقرارهم في القاهرة- أن تسافر لإحضار بعض الأغراض من بورسعيد، لم ينسَ «سيد» أن يطلب منها إحضار صورة عبد الناصر المعلَّقة في صالة البيت. يعتبر «سيد» نفسه ناصريًا حتى النخاع، غير أنه لا يرى عبد الناصر إلـٰهًا!

***

وقف «ميمي» أسفل الشُّرفة ينادي صديقَه «فهمي» بتعجُّل كي لا تفوتهم الرحلة المدرسية للقناطر الخيرية، خرجت «فيفي» إليه بعد أن سمعت نداءه لتُخبره بأن «فهمي» على وشك الانتهاء من ارتداء ملابسه. فتح «ميمي» حقيبته التي بدت ممتلئةً للغاية، ثم رفع يده ليُناول جارته واحدًا من سندوتشات الكبدة التي صنعتها لها أمه، وقال:

- خذي يا أبلة «فيفي» واحدًا لكِ.. وبلِّغي «فهمي» أنني أحضرتُ له سندوتشات معي.

أخذت «فيفي» السندوتش وقطَمت منه قطمةً فأغمضت عينيها من فرط لذة المذاق، فابتسم «ميمي» في زهوٍ وهو يقول:

- إيه رأيك؟ أشهى كبدة في باب اللوق! من جِزارة بابا!

ضحكت «فيفي». ونظر جارُها خلفه ثم اقترب أكثرَ من الشُّرفة وهو يقول بصوت يملؤه الحماس:

- انظري فوق يا أبلة.. أبيه «مجدي» بيصبح عليكِ..

نظرت «فيفي» إلى أعلى حيث أشار «ميمي»، لتجد «مجدي» واقفًا بالشُّرفة في الطابق الثاني بالعمارة المقابلة لهم، وهو يومئ برأسه بتحيةٍ على استحياء، أشار بيدٍ خجولةٍ إليها وهو يحمل كوبًا من الشاي بالحليب في يده الأخرى. اتسعت ابتسامةُ «فيفي»، ثم وضعت كفَّ يدها فوق عينيها الناظرة إلى أعلى لتجنب أشعة الشمس التي بدت معلَّقةً في الصباح الباكر فوق عمارة «مجدي»، ثم أخفضت رأسها وقد سمعت صوت إغلاق باب الشقة، فظهر أمامها -بعد ثوانٍ- أخوها «فهمي» وهو يقول لصديقه: «أنا جاهز». فتح «ميمي» حقيبته ليمنحه لفافةً من الجريدة بداخلها سندوتشات الكبدة، فشكره «فهمي» ثم أخذها ليَضعها في حقيبته، وقال له «ميمي»:

- انظر وراءك.. أبيه «مجدي» يُشير إليك..

التفت «فهمي» إلى شُرفة بيت «ميمي» وألقى التحيةَ على «مجدي» الذي مكث بدوره يراقب الثلاثة وهو يرتشف من كوبه. ثم نظر إلى أخته وهي منهمكة تقطم من السندوتش بشهية، ليقول بحِدة مفتعَلة:

Visual Watermark

- خلاص يا «فيفي»! ادخلي..

ضحكت «فيفي» من أخيها الذي يحاول أن يُظهر رجولته أمام زميله! فقد أتم «فهمي» عامه الرابع عشر وظهرت ملامح الرجولة المبكرة عليه، غير أن جاره بدا أصغر منه قليلًا لقِصر قامته الواضح مقارنةً بـ «فهمي»، وبدا أكثر مرَحًا من أخيها الذي تُعيِّره دائمًا بثقل دمه! تجاهلت «فيفي» كلمات الأخ، وجلست على الكرسي بالشُّرفة، ومكثت تراقبهما وهما يبتعدان، ثم أشارت بيدها بعد أن لحست أناملَها من بقايا طحينة الكبدة، وقالت بصوت مرتفع: «خذوا بالكم على نفسكم.. رحلة سعيدة!»

***

نحن لا نعلم شيئًا عن اللحظة القادمة، مهما وضعنا خططًا للمستقبل، ومهما رسمنا من آمال عريضة، لن نأمن غدرَ المجهول من الحياة، لن نأمن إذا ما تحوَّل الغدُ إلى حُلم جميل أو كابوس لا ينتهي! والأمر في غاية التعقيد، خاصةً حينما تُفاجئُنا الأقدار بالصفعات المؤلمة في أكثر اللحظات السعيدة، كسعادة الطلاب وهم يهبطون من الحافلة بعد وصولهم إلى القناطر، وقد انقسموا إلى مجموعات، منهم مَن أحضر الكُرة للَّعب، وآخَرون قرروا لعب المنديل واصطفوا في صفَّين يتوسطهما طالبٌ يُمسك المنديل بيده، ومَن يسحبه أولًا سيربح. وعلت الأصوات بالضحكات والمرح. بينما افترش «ميمي» الأرض مُقررًا تناولَ الطعام قبل الاشتراك في أي لعبة، وأخرج طعامه من حقيبته ليلتهمه وهو يشرب الكازوزة، وبجانبه «فهمي». ونادى أحدُ الطلاب متسائلًا: مَن يريد المشارَكة في لُعبة الحبل؟ فرفع «فهمي» يده، وقفز من جانب «ميمي» بحماسٍ ليُجيب: «أنا!» فأمسك به «ميمي» ولا يزال فمه ممتلئًا بالطعام، وهو يشدُّه إليه ضاحكًا ويقول: «لا، أنا أولًا!» أفلت «فهمي» من قبضة صديقه وأسرع راكضًا نحو زميلهم المُمسكِ بالحبل، تعثَّر «ميمي» في محاوَلةِ اللِّحاق به، وهو يصيح: «أنا أولًا.. أنا أولًا!» وصل لاهثًا وألقى بنفسه ليُمسك بصديقه والحبل، فسقط «فهمي» على الأرض ضاحكًا، وتعالَت ضحكاتهم جميعًا، فقال زميلهم وهو يأخذ الحبل ويركض به مبتعدًا عنهما: «تسابَقا نحوي، مَن منكما سيأخذ الحبل أولًا؟» أسرع الصديقان وسط تشجيعات الزملاء وهتافاتهم، ركَّز «ميمي» على هدفه، بينما «فهمي» لم يتمالَك نفسه من الضحك، فوقع على الأرض مُمسكًا ببطنه! وصل «ميمي» ورفع الحبلَ عاليًا كأنه فاز بالكأس!

وبدؤوا سِباق لُعبة الحبل داخل مياه القناطر. كانت اللعبة أن يُربط الحبل في وسط الطالب، ويرَوا مَن سيدخل إلى أعمق منطقة من النيل.. دخل الطالب الأول والثاني، وجاء دور «ميمي» الثالث، رُبط الحبل حولَ وسطه بإحكام، وبدأ الدخولَ في مياه النيل وسط صيحات تشجيع «فهمي» وصَغيره هو وباقي الطلاب، وقد أخذ «ميمي» عهدًا على نفسه أن يفوز على مَن سبقوه ومَن سيأتون بعده. ولكن النهاية أفجعت كلَّ الواقفين على الشاطئ، فقد انفلتَ الحبل من بين أيديهم إثر قوةٍ غامضةٍ غاضبة! في لمح البصر التفَّ الحبلُ حول جسد «ميمي»، ودخل في منتصف دوامةٍ بمياه النيل، فظلَّ جسدُه المُقيَّد يعلو ويهبط بلا أي مقدرةٍ لديه على إنقاذ نفسه! ووقفوا جميعًا مشدوهين ممَّا يحدث، ينظرون في عجزٍ وهلع! شاهدوا زميلهم يَغرق نُصب أعينهم بلا أي حِيلةٍ لديهم لإنقاذه، يركضون خطوةً للأمام وعشرات للخلف، يتخبَّطون ببعضهم في رعبٍ ويأسٍ من فرص النجاة! وحاول «فهمي» أن يُلقي بنفسه في مياه النيل وهو يصرخ بهستيريا، غيرَ أن مُشرفي الرحلة من المدرسين، وباقي الطلاب، قاموا بمنعه وسحبوه بعيدًا. حاول بكل ما أوتي من قوة أن يُفلت من بين أيديهم، ولكنه لم يستطع! وبدت مياه النيل كأنها تحولت في لحظةٍ فارقةٍ إلى وَحشٍ من الأساطير، والتهمت «ميمي» في أعماقها، ثم هدأت فجأةً! وظلَّ «فهمي» يصرخ بأعلى صوته مناديًا اسمَ صديقه، حتى غاب عن الوعي!

***

عاد «فهمي» بمقعد فارغ بجانبه في الحافلة، وقد ترك حقيبته واحتضن بدلًا منها حقيبةَ صديقه بعد أن لملم فيها بقايا طعامه وأوراق الجرائد التي كانت بداخلها السندوتشات، وطوال الطريق انهمرت من عينيه فيضاناتٌ من الدموع صنعَت آلاف الدوامات فوق حقيبة «ميمي»!

تأثَّر حيُّ باب اللوق برحيل «ميمي»، وأُغلقت جزارة «عبد المقصود» وكلُّ المَحال، ونُصب سرادقٌ كبيرٌ بعَرض الشارع لاستقبال العزاء. غابت الشمس من فوق عمارة «ميمي» كأنها لن تُشرق مرةً أخرى. غابت قبل موعدها بساعاتٍ بسحاب مفاجئ أخفى أشعتَها حتى رحيلها في المغرب. وارتفع صوت القرآن في مكبرات الصوت. وكان «فهمي» لا يزال منهارًا، منكسِرًا وقد أصابته الصدمةُ في مَقتل، ولكنه لملم شتات

Visual Watermark

نفسه للوقوف في عزاء صاحبه، والذي بدا كأنه يعرفه طوال سنوات عمره. كما أصر «سيد» على حضور العزاء، حينما قالت له زوجته أن يظلَّ في البيت لصعوبة حركته، ولكنه رفض بشدة، تأثر للغاية بموت الفتى في هذا العمر الصغير وبهذه الطريقة المُفزِعة! وبدأ قبل خروجه من البيت باحتضان أبنائه، داعيًا ربَّه أن يَحفظهم من كل سوء، فلا شيء قد يُنجي من خبايا القدَر المؤلمة سوى مناجاة الخالق! انشحت سيدات الحي بالسواد، وقد بدأت الوفود من الرجال تتجه إلى صِوان العزاء، والسيدات إلى بيت السيدة «شمعة» لمواساتها. وأوشكت الأُم المكلومةُ أن تفقِد بصرَها من كثرة البكاء على فقيدها. وذهبت نساء أُسرة «سيد» لتعزيتها، وعلى الرغم من أنها المرة الأولى التي يدخلون فيها هذا البيت، إلَّا أن «عليَّة» شعرت براحة غريبة كأنها تعرف أهلَه منذ سنوات طويلة، وأدركت سببَ مشاعر ابنها تجاه «ميمي»، فشيءٌ ما في هذه الأُسرة يُطمئن مَن يعرفهم، طاقةٌ غريبةٌ في وجوههم تَبعث الأمانَ فيمَن حولَهم! وفور أن وقعت عينا «شمعة» على جارتها، قفزت من جلستها وسط النساء لتحتضن «عليَّة» وتبكي بحُرقة وهي تقول: «كان روحه في فهمي.. كان يعتبره أخاه!» وانهمرت الدموع من عيني «فيفي» التي كانت تقف خلف أُمها تُتابع كلمات الأُم الثكلَى، كما تأثرت السيدة «كوثر» بهذا المشهد الموجِع لأمٍّ انفطر قلبُها وبدت عيناها كأنها تنزف الدموع دمًا!

في سُرداق العزاء، جلس «فريد» بجانب أبيه وهو يراقب أخاه الذي ظلَّ واقفًا عند المدخل بجانب «مجدي». وابتلت أكمام «فهمي» من كثرة مسح دموعه ومياه أنفه بها. حتى أخوه الصغير «جمال»، رفض البقاء مع «أم عثمان» بالبيت، وعلى الرغم من أنه لم يكن على دراية كافية بما يحدث، لكنه اختار بفطرته الوقوف بجانب أخيه «فهمي» بدلًا من الجلوس بجانب أخيه الكبير. وظلَّ «فريد» يراقب في وجه أخيه ملامحَ الرجولة المُبكرة التي اختلطت بالأسى. وتأمَّل معاني الحياة والموت. تذكَّر جدته، وكلماتها حينما ناداه البحر، تساءَل: تُرى هل مات الصبي حينما لبَّى نداءَ المجهول! وهمست روحُه قائلةً: «لمَ لا يموت المجهول، لنعيش نحن حياةً مؤبَّدة!» كما تذكَّر رحيل جده «حافظ»، ولحظات انطوائه على نفسه بعد كل فقْد، وكيف أغلق غرفته عليه دون أن يبوح بأيٍّ من مشاعره وحُزنه! وكزَّ على أسنانه يُحاول إيقاف صوت عقله المتسائل عن هروبه الدائم من مواجهة الآلام ونكرانها. ودعا ربه ألَّا يأتي اليوم الذي لا يجد فيه مفرًّا يهرب إليه. وسرحت نظراته في أخيه، ليُباغته حُلمُ جدته الخامس، فقال مُحدِّثًا نفسَه:

«فهمي هو بَطل حُلمك يا نينه! وقد لبَّى ميمي نداءَ المجهول بدلًا عنه!»

***

مرَّ عامٌ على وفاة «ميمي»، وقد عادت الحياة إلى مسيرتها، فلا أحزان باقية مؤبدة، ولا أفراح تدوم حتى النهاية. واختلفت الأجواء قليلًا بعد موته، وكأن رحيله قد أخذ معه شيئًا من بريق الحي. هكذا هو الحال دائمًا، يَقل بريقُ الشوارع والأزقة والبيوت شيئًا فشيئًا كلَّما رحل منها أحدُ أبنائها. وبرحيل الجميع تتحول الأحياء إلى لون رمادي غائم لا تُشرق فوقه شمسٌ، كأن الأرواح هي التي تهَبُ الحياةَ إلى الأماكن. وعلى الرغم من ذلك، كانت تلك الحادثة بمثابة بداية قوية لتوطيد العلاقات الأُسرية وازدياد الأُلفة بين عائلة «سيد» وعائلة «عبد المقصود». وأصبحت الزيارات بين البيتين دائمةً لا تنقطع. وعرفت الابتسامات طَريقها رويدًا رويدًا إلى ثغرِ «شمعة»، ذلك لأن اللهَ ربط على قلبها بطريقةٍ تعجَّب لها كلُّ مَن يعرفها؛ لقد ارتضت قضاءَ الله وقدَرَه، وشعرت أن روح ابنها حولها في كل مكان. وكانت كثيرًا ما تُحدثه لأنها تعرف أنه يسمعها ويشعر بها، فلا علاقة على وجه الأرض أقوى من علاقة الأُم بأبنائها، و«شمعة» كانت على يقين بأن هذه العلاقة لا يُفرقها موتٌ أو فراق. وحمدت الله أنها لم تَحضر لحظاته الأخيرة، بل رفضت أن تستمع حينما أراد مُشرفو المدرسة إيضاحَ الأمر، واكتفت بأن تتذكَّره في اليوم الأخير وهو يقف أمام باب المطبخ يستعجلها بحماس حتى لا يُفوت الرحلة. اختار القدَرُ رحيلَ ابنها، واختارت هي ألا تعرف شيئًا عن لحظة الرحيل. وكانت كلما قابلت «عليَّة» تحكي لها الكثيرَ من طرائف «ميمي» ومصائبه التي كانت تُخبئها عن أبيه، حكَت لها كيف كان يملأ الإناء الكبير بالماء ليُلقيه على المارة أسفل الشُّرفة! وكيف أنه ذات يوم أخذ قطعةً كبيرةً من اللحم من الثلاجة وخبَّأها بحقيبته المدرسية ليمنحها لأستاذه المفضَّل بالمدرسة! وتعلو الضحكات بين الجارتيْن على مواقفه، كأنه موجود، كأنه نائم بغرفته في سكون! كما توطدت علاقة «سيد» بـ «عبد المقصود»، وأُعجب «سيد» باتساع أُفق جاره الذي كان يَظهر في الصباح معلم جزارةٍ مُحضرم يتَّسخ جلبابه بدماء الذبائح، ولا يستطيع أحدٌ أن يُنافس قوةَ ساعده بضرب السكين في عظام اللحم مثلما يفعل، أما إذا حلَّ الليل، يَظهر «عبد المقصود» كالبهوات، خاصةً عند زيارته لبيت جاره،

Visual Watermark

ببدلته التي تدلّ فخامتها على ثَمنها الباهظ، وربطة عنقه المميزة، وتفوح منه رائحة العطر المُلفتة لكل الأنوف من حوله، ويُضفي على مَظهره رونقًا آخَر عندما يضع ساقًا فوق أُخرَى وهو يتحدث في أمور البلاد والسياسة والثقافة والفن. غير أنه لم يكن قارئًا للجرائد مثل «سيد»، فتعجَّب الأخير وتساءل عن مصادر جاره الخفية في معرفة كل تلك الأحداث، وقال له «عبد المقصود» ذات يوم:

«تعالَ اجلس معي ليوم واحدٍ في الجزارة، وستجعلك أحاديثُ الزبائن والمارة الذين يُحدثون أنفسهم كالمجاذيب، تَعرف دبَّةَ النَملة على أرض المحروسة في شتى مجالات الحياة، بل ستجد نفسك خبيرًا استراتيجيًّا في شؤون الدنيا والآخرة!»

دفع مَظهر «عبد المقصود» المتأنق جارَه أن يَعود إلى قديم عهده، فبدأ «سيد» الاهتمامَ بملبسه، واختار ارتداء أفضل البدْلات لديه حتى تليق بالزائرين، بل طلب من «عليَّة» أن يذهبا سويًّا لشراء قماش كُحلي اللون لتفصيل بدلةٍ جديدة. ونسي «سيد» بعد صداقته لجاره يأسَه واستغراقَه في ألمِ فقدِه لساقيْه المبتورتيْن، وكان -للحظاتٍ- عندما يرى جارَه واضعًا ساقًا فوق أُخرى، يُخيَّل له عقلُه بأنه هو أيضًا يجلس بالطريقة نفسِها، فيسند ظَهره بثقةٍ على كرسيِّه ويتحدث بملء فَمه.

اختار الأربعةُ شُرفةَ البيت مكانًا للقائهم الأسبوعي، ليتحدثوا في أمور الدنيا، وتتعالى أدخنةُ سجائرهم وضحكاتهم التي ترنُّ في الحي وسط سكون الليل. وفي ليلةِ الثلاثين من مايو عام ١٩٥٩ اجتمعت الأُسرتان، وظلَّ السَّيدان يتناقشان في مباراة كأس الأمم الأفريقية، التي تُوجت بفوز مصر على السودان. وطلب «سيد» من زوجته أن تُحضر له الجريدة من داخل الغرفة، فقالت مُعترضة:

- مش معقول يا «سيد»! جرائد الصبح وبالليل!

فأجابها قائلًا:

- استني بس يا «عليَّة»!

وفتح الجريدة ثم أشار لجاره على صورة المشير عبد الحكيم، نائب الرئيس، وهو يمنح صالح سليم كأس الأمم. وكان «عبد المقصود» قد أحضر معه زجاجات البيرة احتفالًا بفوز مصر، فضحك «سيد» قائلًا لجاره:

- الله يحظك.. طوال الثلاثة والأربعين عامًا من عمري لم أشرب منكر أبدًا!

قاطعته «عليَّة» وهي تخبط كتفه مُمازِحة:

- فكها يا «سيد»، حلاوة الاحتفال.. سنشرب جميعًا.

ارتفعت ضحكات الجميع بعد كلماتها، وعرض «عبد المقصود» على «سيد» سيجارةً ثم أشعلها له، ثم منح واحدةً لزوجته وأُخرى لـ «عليَّة». وكان «سيد» قد عاد إلى التدخين مرةً أُخرى بعد إقلاعه عنه لفترة طويلة، ونظر إلى «عليَّة» وهي تنفث دخان سيجارتها ليقول:

- أراكِ وقد فسدت أخلاقكِ يا «عليَّة»، في الأول السيجارة، والآن الكاس.. آه لو حماتي تستيقظ وتراكِ!

فعلق «عبد المقصود» ممازِحًا:

- قالها عبد الوهاب: الدنيا سيجارة وكاس..

ضحكت «عليَّة» من قلبها، ثم نظرت إلى جارتها قائلةً:

- بس حقه يا «شمعة» كله إلا ماما! إنني لا أستطيع شُرب سيجارة أمامها، على الرغم من أنها لا تتركها من يدها أبدًا.. غير أنها أصبحت صعبة جدًّا.. من ساعة استيقاظها تعترض على كلِّ شيء وكلِّ تصرفات الأولاد، خاصةً «فيفي».

صمت الجميعُ لثوانٍ، وغمزت «شمعة» لزوجها، فقال:

- على سيرة ست البنات «فردوس».. كنتُ أودُّ من فترة أن أُحدثك في أمر يَخصها يا «سيد».

بدت الجدية على وجه «سيد» وهو يترقب كلمات جاره التالية، متسائلًا:

- خير يا «عبد المقصود»؟

- خير إن شاء الله طبعًا.. لقد لَمح لي ابني الدكتور «مجدي» بإعجابه بـ «فردوس»، وهذا للعلم بالشيء

Visual Watermark

منذ قدومكم إلى الحي، لكن أنت عارف ما حدث لفقيدي، وكل تلك الأمور عطّلت مفاتحتنا لكم.. وها نحن أُسرة واحدة الآن، فما قولك؟

شبك «سيد» كفيه ونظر وهو يهز رأسه ببطء سارحًا في الشارع الذي بدا هادئًا أمامه، بينما اتسعت ابتسامةُ «عليَّة» وقد غمرتها الفرحة بكلمات جارهم، وكادت أن تنطق، ولكن «سيد» سبقَها بالحديث:

- خليني أتكلم مع «فردوس»، ويحدث خير إن شاء الله.

ردت «شمعة» بسعادة:

- سيحدث الخير حتمًا يا حبايبي..

ثم علَت زغرودتُها لترنَّ في سماء حي باب اللوق بأكمله!

***

لم تُمانع «فيفي» للوهلة الأولى عندما عرض عليها أبواها طلب يدها لـ «مجدي»، إلا إنها أيضًا لم تشعر بالسعادة الغامرة التي شعرت بها أمها. لاحظت طوال الأشهر السابقة نظرات «مجدي» الخاطفة لها إن رآها صدفةً أو إن وجدته واقفًا بالشُّرفة، إلا إنه لم يكن من طبعه مغامرة العشاق في الوصول إليها أو أن ينطق بأي كلمة لها حتى لو في جواب. وكان يغيظها أنها إن صادفته بالشارع، يمر بجانبها ويُحيِّيها برأسه دون أن تلتقي أعينهما، كالغرباء! ودت لو كان لديه جموحُ ذلك الشاب الذي مكث يتابعها لعدة أيام، ثم اختفى تاركًا وردته التي ألقاها إليها، أو أن تكون لديه نظرات مثل تلك التي كانت تشع من عيني «حسين» جارها القديم. ودت لو يختطفها في مدخل بيتهم ليُقبِّلها كما أبطال الأفلام! وكانت تفكر تُرى ماذا تقول للآخرين إذا أرادت رفض «مجدي»؟ احترامه زائدٌ عن الحد؟! بل ماذا تقول لنفسها إن أرادت رفضَه، وهو أفضل في كل شيء ممَّن سبقوه إلى قلبها! لم يضغط عليها أبواها، عدا جدتها «كوثر» التي قالت لها إن تلك الفرصة لن تسنح لها مرةً أُخرى في الحياة، وأنه من الأفضل لها الموافقة. كما حدثتها «أم عثمان» بلطف ومحبة عن مميزات هذا الشاب، تلك المميزات التي تحلم بها كلُّ بنات باب اللوق! وكانت كلمات «أم عثمان» لها تأثير السِّحر عليها، خاصةً أنها تعلم بالفعل أن «مجدي» هو فتى أحلام أكثر الفتيات بحيِّها، وشعرت بشيء من العلو والانتصار أن تُصبح هي زوجته دون الأُخريات!

***

قررت «عليَّة» الذهاب إلى بيتهم ببورسعيد لإحضار بعض الأغراض المنزلية، لأنها -كأغلب الأمهات- قامت بالتحضير على مدار سنوات ماضية لجهاز ابنتها. عرضت بتردد على «سيد» الذهاب معها غير أنه رفض. لقد صار «سيد» بعد حادثه مُصابًا بصدمةٍ لا تَبرح روحَه، يتوق في قرارة نفسه إلى زيارة بيته، ويتمنى لو يعود مرةً أُخرى لبورسعيد، غير أنه يرتجف كلما تذكَّر مرور الدبابة فوق ساقيْه! ويريد أن تظل الصورة الأخيرة له عند جيرانه وهو بكامل هيئته وبُنيانه، واقفًا على قدميْه. كما أنه لا يعرف لماذا تذكَّر فجأةً -مع عرْض «عليَّة»- صوتَ عِظامه وهي تتفتَّت، وطائرات العدو التي ملأت السماء آنذاك! فحاول قتل مرارة الذكريات بتخيُّل لحظة النصر التي لم يحضرها، وبانسحاب جنود الاحتلال.

أما «فيفي» فقد تأنقت استعدادًا للذهاب مع والدتها، وبرفقتهما أخوها «فريد». وتعجبت «كوثر» كعادتها من أناقة «فيفي» الزائدة، غير أن «عليَّة» قالت لها: «اتركيها يا ماما، إنها العروس».

وكان سر اهتمام «فيفي» المبالَغ فيه بمَظهرها، هو شعورها بأنها ربما سترى حُبها الأول «حسين»، وتخيَّلت لقاءها معه، صوَّر لها عقلُها أحداثًا من نسج خيالها، سيراها وقد ازداد جَمالها، وسيُجنُّ جنونُه ليركض متوسِّلًا لوالدتها بأنه هو مَن يريد الزواجَ منها! أو ربما سيشير إليها دون أن يلاحظ أحد، لتلحق به وتهرب معه على متن باخرة تنتظرهما بميناء بورسعيد!

اصطدمت «فيفي» بالواقع عندما وجدت «مجدي» في انتظارهم بسيارته، فهمست بتوتُّر وهي تسير إلى جانب والدتها:

- لِمَ لَمْ تُخبريني أن «مجدي» سيوصِلُنا!

غضبت «عليَّة»، وقالت معاتِبةً وهي تخبط ذراع ابنتها:

- الله! بدلًا من قول شكرًا!

تأففت «فيفي» وشعرت بالحَيْرة، جلست خلفه هي ووالدتها، وبجانبه جلس «فريد»، وقال:

Visual Watermark

- شكرًا يا «مجدي»! سنتعبك معنا!

فردَّ:

- أبدًا! إنه الواجب..

وفي الطريق، فتحت «فيفي» نافذتها لتترك العنان للهواء يُداعب شَعرها. ثم فتح «مجدي» الراديو بسيارته ليَخرج صوت عبد الحليم يُغني: «توبة إن كنت أحبك تاني». ابتسمت «فيفي» وسرحت مع كلمات الأغنية، ثم نظرت أمامها إلى وجه الخاطب وهو منهمكٌ في القيادة، تتأمل قسمات وجهه التي تظهر لها، همست لنفسها: «يا لحظي! إنه أجمل من أحمد رمزي! وأكثر جاذبيةً من حسين!» اضطرب «مجدي» للحظةِ كـأنه سمع صوتَ عقلها! كأنه أحسَّ نظراتها في مسام وجهه تُدغدغه، فقد أحبها «مجدي» منذ أن وقعت عيناه عليها في اللحظة الأولى، كان يراها في أحلامه كل ليلة، ولا تدري أنه ينقش اسمها في دفاتره وفي ثنايا قلبه، وأنه يحلم بليلة زفافها.

***

أراد القدَر أن يُلبي أمنية «فيفي»، ففور اقترابهم من البيت صاح «فريد»:

- قِف يا «مجدي» من فضلِك!

لبَّى الأخير طلب «فريد»، فهبط من السيارة مُسرعًا في خطواته نحو صديقه، وكان «حسين» يقف على ناصية شارعهم مع بعض زملائه. وعلى الرغم من التحاقه بكلية الهندسة في القاهرة، لم تأتِ أي فرصةٍ لهما للقاء. احتضنه «فريد» ووقف يُحدثه بضع دقائق أثارت فضول «فيفي»، وتوقعت أنه حتمًا سيُخبره بأمر خِطبتها، وسيشعر بالضيق لأجل ذلك! امتعضت «عليَّة» ثم قالت:

- ستُمضي اليوم هنا حتى يحلَّ الليل.. لو تسمح يا «مجدي» اقترب منه بالسيارة لتُخبره أنه ليس وقت الكلام الآن..

وما كاد «مجدي» يُحرك سيارته حتى وجد الشابين يسيران نحوه، وابتلعت «فيفي» ريقها بتوتر عندما رأت أخاها يقترب ومعه حبيبها الأول، ثم فتح باب السيارة يطلب من «حسين» الركوب! صعد ليجلس بجانب «فيفي» ومن جانبها والدتها، سلَّم عليهما، وقد احمرَّت وجنتا «فيفي» للغاية لجلوسها بهذا القرب من «حسين»! وقال «فريد» بحماس يُحدِّث خطيب أخته:

- «حسين» كان عائدًا إلى البيت، فطلبتُ منه أن يأتي معنا.. أُعرِّفك بـ «حسين» يا «مجدي»، جارنا وصديق العُمر..

رد الأخير بجدية وبكلمات مقتضبة:

- تشرفنا، فرصة سعيدة..

فردَّ «حسين» وهو ينظر إلى جارته:

- وأي فرصة سعيدة! أنا أسعد طبعًا! العمارة بلا طَعمٍ من دونكم..

قال «مجدي» بلهجة جادة:

- دعني أدعوك إلى فرحنا إذًا بمناسبة هذه الفرصة السعيدة..

وجم وجه «حسين» ولم يُعلِّق بكلمة، سكت الجميع أيضًا، توتر كلُّ مَن في السيارة، رمقت «عليَّة» ابنتها بنظرة طويلة، ثم التفتت لتنظر إلى الشارع الذي لم يختلف كثيرًا منذ رحيلها، والتفت «حسين» بدوره لينظر من نافذته، بينما ظلت «فيفي» في المنتصف تنظر أمامها إلى الطريق، أحسَّت بضيقٍ في التنفس وتسارُعٍ في النبض، وبكلمات تزاحمت لتقف في حلْقها لا تعرف كيف السبيل إلى نُطقها، أغمضت عينيها، لا تدري ما الذي تريده في هذه الحياة! لكن سرعان ما عادت أنفاسها إليها فورَ توقُّف السيارة أمام عمارتهم. هبط «حسين» أولًا وقد وقف ينتظر نزولها، لم تنظر إليه، نزلت من السيارة بخُطًى سريعة نحو مدخل البيت، ومن خلفها والدتُها، ومكث الشباب الثلاثة بالشارع يتحدثون.

***

صعدت «عليَّة» بخطوات بطيئة منهَكة، لا تدري ما حلَّ بها ولِمَ أصبحت دائمًا تشعر بالإرهاق من أقل مجهود! ورنَّت جرس جارتها، ثم دسَّت يدها في حقيبتها تبحث عن مفتاح البيت، فتحت «عنايات» الباب قبل أن تجِد «عليَّة» المفتاح، ثم صاحت بحماس: «يا حبايبي! حمد لله على السلامة!»

Visual Watermark

احتضنت «عليَّة» ومن بعدها «فيفي»، وطلبت منهما الدخول. صُدمت «عليَّة» من حال «عنايات» التي غزا رأسَها الشَّيبُ، وبدا الشحوب على وجهها كالاحتلال الغاشم، وبلا رحمة استوطنت وجهَها خطوط وتجاعيدُ لم تعهدها «عليَّة» من قبلُ في ملامح جارتها النضِرة. غير أن فنجان القهوة والمجلات كانت كعادتها على المنضدة، كل شيء بدا كما رأته في المرة الأخيرة قبل الرحيل، كل شيء عدا «عنايات». كانت ترتدي جلبابًا بسيطًا للبيت، تفوح منها رائحةٌ غريبة، كخُبز تُرك حتى تآكل من العفَن! أو كرائحة قطعةٍ حديديةٍ تآكلت من الصدأ! ولاحظت «فيفي» بدورها هذا التغيُّر، وظلت تُفكِّر فيما حلَّ بجارتهم حتى إنها نسيَت أمر الشابيْن. وباغتتها «عنايات» بكلمات تتغزَّل في جَمالها، وكيف أنها أصبحت شابةً والتفَّ عودُها.. فضحكت «عليَّة» بسعادة قائلةً إن هذا هو سبب مجيئهم لبورسعيد، لإحضار جهاز ابنتها، فقفزت «عنايات» من مقعدها لتحتضن الشابة وتُقبِّلها، ثم جلست بالقرب منها، وقالت لها:

- أمَّا لكِ عندي فساتين حكاية! لم أرتدِها.. سأُحضرها لكِ..

قالت «عليَّة»:

- بس الأهم، وقت الفرح تيجي يا أبلة «عنايات».

وعدتها «عنايات» بالحضور، وقامت فجأةً تركض نحو غرفتها وسط ذهول «عليَّة» وابنتها، اللتان تتبعتاها بأعينهما في فضول! ثم عادت بعد دقائق تحمل مجموعةً من القمصان الحريرية وفستانًا قصيرًا بلونٍ ورديٍّ.

- خذي.. خذي يا «عليَّة».. أنا لم أرتدِ أيًّا من هذه القمصان.. جرِّبي مقاسها.. ولو كده يمكن تضييقها عند الخياطة..

ابتسمت «فيفي» في حرَج، وشكرتها.. وودت «عليَّة» أن تسألها عن زوجها، ولكنها تجنبت الحديث في أي شيء، وشعرت بأن الإجابات على كل الأسئلة مفضوحة في حال «عنايات»، وقد أصبحت مهملة.. وحيدة.. تَمضي بها الأيام وهي مُستسلمة! وقررت أن تترك «عنايات» وهي تقول إن الوقت قصير ويجب أن تدخل البيت لتُحضر ما تريده قبل أن يحلَّ الليل.

***

كيف تتبدل أحوالنا هكذا بلا سابق إنذار؟ كيف تتبدل الأماكن التي سكناها وقد اتسعت لنا من قبل، وها قد أصبحت ضيقةً للغاية.. لا تَسع أنفاسَنا!

ظلت «عليَّة» تتساءل منذ اللحظة التي فتحت فيها باب البيت، لقد بدَت لها الغُرف شديدةَ الضِّيق! وعلى الرغم من الحَنين إلى بيتها، إلا أن شيئًا غريبًا قد أصابه، كأنه مرضٌ يُصيب البيوتَ المهجورة، تَشيب برحيل سكانها، تظل تحزن وتتجرَّع حوائطُها الوحدةَ حتى الموت! فإذا عاد إليها الراحلون، لن يجدوا سوى رُفاتِ ذكرياتهم في السنوات التي مضَت، ملقاةٍ في الأركان، فوق الأرائك، وبداخل الأدراج!

جلست «عليَّة» دموعَها بصعوبة، وطلبت من «فيفي» أن تنادي أخاها من الشُّرفة كي يصعد ليساعدهما في حمل الحقائب والصناديق. وودت «فيفي» لو لم تطلب منها أُمها الخروجَ إلى الشُّرفة أبدًا! لقد تبدل كل شيء منذ رحيلهم. انصاعت «فيفي» لأمر والدتها، وفتحت الشُّرفة ثم سارت بحذرٍ لتقترب من السور وتنظر إلى الشارع، وقد علَت ضحكات الشبان الثلاثة لدرجة أصابتها بالذهول، واتسعت عيناها وكأنها لا تُصدِّق! لا تُصدِّق.. ليس لأن «حسين» الذي بدا تعيسًا منذ لحظات، تصدح الآن ضحكاته، وإنما لم تُصدِّق صوتَ ضحكات «مجدي» المرتفعة، والتي لم تسمعها من قبلُ قَط. سرحت فيه، تُراقب حركاته وإيماءاته، كأنها المرة الأولى التي تراه فيها! وقد بدا لها أكثرَ جاذبيةً مما اعتقدت، وهو مصدر النكات، وسبب كل الضحكات! سمعت صياح والدتها من داخل البيت يُذكِّرها أن تُنادي أخاها، فأفاقت! وبصوتها الرقيق نادَت «فريد»، لينظر أخوها و«حسين» و«مجدي» إلى مصدر الصوت، ولكنها لم ترَ سوى عيني خطيبها، ابتسم لها، فابتسمت بسعادةٍ خَجلَى!

صعد الثلاثة ليساعدوا «عليَّة». وتبددت مشاعر «فيفي» المضطربة في ثوانٍ قليلة، وكأنها احتاجت إلى الدخول إلى الشُّرفة نفسِها التي مكثت فيها في الماضي لساعاتٍ تُراقب «حسين»، لترى الآن شيئًا آخَر!

***

Visual Watermark

ربما تحمل المآسي في طياتها الكثيرَ من الحكمة!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الفصل السابع

مرَّت أشهر قليلة استعدت فيها أُسرة «سيد» لفرح ابنتهم، وازداد انشراح «عليَّة» باطمئنان قلبها لأن بيت ابنتها سيكون أمامها مباشرة؛ فـ «عبد المقصود» هو مالِك العمارة التي تسكن فيها أُسرته، وترك شقتين بلا تأجير، واحدة لـ «مجدي» والأُخرى كانت لـ «ميمي». وكان المتوقَّع أن يتم الفرح في بيت «سيد» إلا أن والد العريس قال لهم إن الفرح سيتم في الشارع بطوله وعَرضه، وسيُعد له العُدة؛ سيَحضره كلُّ مَن في باب اللوق، ففرح الدكتور «مجدي» والآنسة «فردوس» ليس كأي فرح، ويجب أن تعُم الفرحة وتعلو أصوات الزغاريد في الحي كله.

٨ جنيهات كانت تكلفة فراشة الزفاف وقد تكفَّل بها السيد «عبد المقصود» كاملةً، وترك أمر جزارته للعاملين لديه ثم وقف يتابع بنفسه الفراشة ويأمر العُمَّال بوضع المقاعد في أماكنها المحددة. وجُهزت صناديق المياه الغازية، وكان قد اتفق مع الكبابجي على تسوية عشرة كيلو من اللحم المشوي ليُقدَّم في سندوتشات إلى الحضور.

وفي تلك اللحظات كانت «فيفي» في غرفتها مع «عنايات»، التي أتت لأجلها مع أول تليغراف يحمل دعوةً لحضور حفل الزفاف، ووقفت العروس في منتصف الغرفة تنظر إلى المرآة، بينما تضبط لها «عنايات» ببعض الإبر الفستانَ ليُبرز جَمالَ خصرها.

ودخلت عليهما «عليَّة» ومن خلفها الجدة «كوثر» وهما تُزغردان وتستعجلان العروس التي ظهر عليها التوتر جليًّا. تبعتهما «أم عثمان» ودمعت عيناها من فرط الفرحة. مضت نصف ساعة لتخرج «فيفي» منيرةً كالقمر ليلة اكتماله، تنسدل من منتصف رأسها طرحةُ زفاف قصيرة، وبغُرة خفيفة تُغطي حاجبيها، وضعت لها «عنايات» أحمر شفاه وبودرة خفيفة على وجنتيها، ثم خلعت من أُذنيها حلَقًا لؤلؤيًّا لتمنحه هديةَ الزفاف إلى «فيفي».

بفستان ناصع البياض خلَّاب من قماش الساتان الذي زُينت أكمامه وأكتافه بالدانتيل المزركش، وحذاء أبيض لامع لا يتعدَّى كَعبه الثلاثة سنتيمترات، وقفت «فيفي» كمَلاكٍ بديع الجَمال أمامَ أبيها، فاغرورقت عيناه بالدموع وتمنَّى لو يقفز عن كرسيه المتحرك ليَحتضن ابنته ويسير بها إلى عريسها! تمنى لو تعود ساقاه بمعجزةٍ إلهيةٍ لبضع ثوانٍ! جثت «فيفي» على ركبتيها تُقبِّل يدَ أبيها وسط الواقفين الذين انهمرت دموعهم تأثُّرًا بتلك اللحظة، وقامت من أمام أبيها لتحتضن «فريد»، ومن بعده «فهمي» الذي دسَّ رأسه في حضنها وابتل صدر فستانها من دموعه الغزيرة، ثم كفكف دمعه ليقول:

- «ميمي» كان هيتبسط لكم.. لو كان موجود..

فنهرته أُمه وقالت له من الأفضل ألا يتذكر الأشياء المحزنة لحظةَ فرح أُخته. غير أن «سيد» كان مثل ابنه؛ تذكَّر أُمَّه وتمنى من كل قلبه لو كانت على قيد الحياة لتَحضر زفاف حفيدتها! فاللحظات السعيدة لا تُنسينا أحبابَنا، بل تُذكِّرنا بهم أكثرَ من أي وقت، لأن السعادات الكُبرى تَظهر غيرَ مكتملة من دون الراحلين، كأنها -وعلى الرغم من أوجها- تحمل أماكن مُظلمة، شاغرة، لن يَشغلها سواهم. ولكن «سيد» لم يَبُح بما دار في خلده كما فعل ابنه، بل آثر الصمت. ورن جرس البيت، فركض «جمال» ليفتح، ورفع رأسه ينظر بإعجابٍ إلى عريس أخته. دخل «مجدي» خطوتين، ومن خلفه الأصواتُ المرتفعة لشباب الحي والحاضرين، انبهر بعروسه الفاتنة! ثم مد يده إليها ليُمسك بيدها.

عُقد قرانُهما قبل الزفاف بليلة واحدة على يد مأذون الحي، وجلست «فيفي» حينها في غرفتها تقضم أظافرها في توتر شديد. تمنت لو أنَّ لها صديقات يَقفن بجانبها في تلك الليلة! إلَّا أن «أم عثمان» لم تتركها للحظة. وأمضت الليل بطوله تُفكر كيف أنها ليس لها صديقات يَسعدن لها ويَرقصن من أجلها! ولكنها عندما نظرت -اليومَ- إلى عريسها فور دخوله ببدلته، نسيت كلَّ أفكارِ الليلة الماضية التي بدَت لها واهية؛ رأت فيه صديقها الأوحد، رفيقَ دربها وفارسَ الأحلام.

بدأت أصوات الزغاريد تعلو منذ لحظة خروج «فيفي» من مدخل البيت إلى أن وصلت إلى الكوشة هي وعريسها. وكانت مفاجأة «عبد المقصود» التي جعلت كلَّ الحاضرين يُصفقون ويُصفرون في حماس،

Visual Watermark

إحضاره للراقصة الشابة نجوى فؤاد. حتى إن الجيران من الناحيتين وقفوا بالشُّرفات يتابعون وصلةَ الرقص التي زفَّت بها الراقصة نجوى عروسيْ باب اللوق. وبدت الليلةُ كأنها من ليالي الأحلام لسكان الحي، حتى قرر «رشدي» التوسلَ إلى صديقه «فريد» أن يَدْعَه يُغنِّي ولو مقطعًا صغيرًا، كواجب مقدَّم منه لفرح أُخته! تأفف كلُّ الشباب من حوله قائلين: «ليس اليوم، مرة ثانية يا كروان!» إلا أنه أصرَّ بشدة، وازداد توسُّله، فلم يكن من «فريد» إلَّا أن استأذن الفرقةَ لكي يُغني صديقُه. ولم تمرَّ لحظةٌ من قوله: «يا ليل!» حتى انقطعت الكهرباءُ عن كل الفراشة والشارع بأكمله! وصاح الشباب بتهكُّم ليقولوا: «الله ينوِّر يا كروان!»

فزع الجالسون، وسادت الفوضى، وقفز البعضُ عن مقاعدهم مُرتابين ليتركوا الفراشة، ولم تَجِد «فيفي» وعريسها بُدًّا من اللحاق بهم، ولكن.. لحَظُّها العاثر، تعلَّق طرَف فستانها في الكوشة، فتمزَّق الفستان! صرخت هي الأخرى بهستيريا! فحملها «مجدي» بين يديه ورحل بها قبل أن تزداد المصائبُ في هذه الليلة العجيبة!

***

لا يدري «سيد» كيف اعتاد على حياته بلا أرجل، ومتى! كأنه لم يكن لديه اثنتين من قبل! استيقظ من نومه مبكرًا على غير عادته، وقد أصبح متمرسًا في الهبوط من مَرقده ليجلس على كرسيه بلا أي مساعدة. نسيَ مع مرور الأيام كيف كانت الحياة قبل بتر ساقيْه، وصار يفعل ما يُريده بنفسه، لا يطلب يدَ العون من أحد، وكثيرًا ما يرفض المساعدة إذا ما عرضَتها عليه زوجته. صادَق كرسيه كأنه وُلد معه، أصبح يُقدِّر كلَّ تفاصيله، ويمسح ذراعَي الكرسي المعدن ولا يُطيق أن يرى عليهما ذرةً من الأتربة، حتى إنه أسماه «عوض»! وعرف كلُّ مَن في البيت أن «عوض» بمثابة جزء منفصل من جسد «سيد»، لا يقِلُّ أهميةً عن يديه وبصره، وعن استطاعته التغوط. وكانت الليلة التي أطلق فيها «سيد» هذا الاسم على كرسيه ليلةً غريبةً لَمَن حوله، فقد شعر يومها بنعاس مفاجئ وقت الظهيرة، فنام فوق كرسيه، ولم يشأ أحدٌ إيقاظه وقد بدا غارقًا في نومه، ودفعت «عليَّة» كرسيه ببطءٍ وحذرٍ إلى غرفة النوم، وظلَّت ساهرةً بجانبه حتى غالبها النعاس. لم يستيقظ «سيد» إلا بعد منتصف الليل، ليَصيح قائلًا «يا عوض!» وكان كلُّ مَن في البيت نائمًا، فاستيقظت زوجته مفزوعةً من صوته المرتفع وهي تتساءل: مَن «عوض»! ولم تُجِبْها. تحسَّس مسندي كرسيه في ظلمة الغرفة، ثم ضحك في سعادة بعد أن أدرك أنه لا يزال جالسًا عليه، ثم قال بارتياح: «ياه.. أنت هنا!» ربَّت على كرسيه يُطمئن نفسَه، ثم عاد لينام في سكون. ظنَّت «عليَّة» حينها أن زوجها قد مسَّه ضربٌ من الجنون! ورحل النوم عن عينيها في تلك الليلة لتظلَّ ساهرةً تفكر في قلق. وحينما حلَّ الصباح، جلست بعينين التهبتا من كثرة التدقيق بملامح زوجها طوال الليل. وحكَت لأُمها و«أم عثمان» ما حدث مع زوجها في حسرة وحَيرة من أمره. تعجَّب الجميعُ، خاصةً عندما وجدوا «سيد» مستيقظًا في سعادة أنارت وجهَه بشكل ملحوظ! دخل الحمَّام دون أن ينادي زوجته كي تساعده كما اعتاد، وهرعت «عليَّة» ومن خلفها «كوثر» و«أم عثمان» ليقفُنَ جميعًا خلف باب الحمَّام في ترقُّبٍ وارتياب! قرَّبت «عليَّة» أُذنها من الباب تستمع إلى صوت المياه، قضى «سيد» حاجته ثم اغتسل وتوضأ، وفتح الباب فجأةً، فرجعت النساء الثلاثة خطوةً إلى الخلف ذاهلات! نظر إليهنَّ بابتسامةٍ واسعةٍ، ثم حرَّك بيده عجلات كرسيه دون أن ينطق بكلمة، ومن خلفه نساء البيت، حتى أوقف كرسيَّه أمام شباك الصالة المواربِ يُراقب من خلفِه الشارعَ والمارة. يأخذ أنفاسًا طويلةً من الهواء إلى صدره فتمنحه إحساسًا غير مسبوق بالراحة، وكأنها الأنفاس الأولى بعد الاختناق، وكأنها نسيم بورسعيد التي يفتقدها قلبه ويشتاق إليها وجدانه!

لم تَحكِ حينها «سيد» السرَّ الخفيَّ وراء كل هذا الانتشاء، فقد رأى والدته في منامه حينما غفت عيناه في الليلة السابقة. رأى نفسه كأنه في عُمر العاشرة، وأنَّه كالكرسي، لها أربعة أرجل في أطرافها عجلات، ومسندي الكرسي كأنها يداها! وأشارت إليه تناديه، فركض ليرتمي في حِضنها، ثم جلس على فخذيها وأسند رأسه فوق صدرها، ليُغمض عينيه في هدوء. قبَّلت جبينه، وقالت له بصوتِ أُمٍّ حنونٍ خافتٍ مُطمئن:

«لا تحزن يا بني على ما فقدتَ. فالفقد يرحل تمامًا كالآلام المبرحة التي نظن أنها أبدية، كالذكريات الأليمة التي تُمزق الأوصال، وكتلك الغُصة التي تشعر بها الآن. لا تُمجِّد الأحزانَ يا صغيري! كلُّ الجروح سوف تلتئم، كل اللحظات القاسية ستبدو تافهةً بلا معنى مع مرور الأيام. ربما سيحدث الأكثرُ قسوةً، وربما ستتجرع المرارةَ مراتٍ أُخرى كثيرة، ولكنك ستجِد في كلِّ شيء عوضًا، عوض عمَّا حلَّ بك بالأمس،

Visual Watermark

وكل ما سيحل في الغد».

وتبخَّرت الأمُّ في حُلمه بعد تلك الكلمات، ليجد نفسَه فوق كرسيه المتحرك، وهو يُردد آخِر كلماتها قائلًا: «عوض!»

وكانت تلك المرة الأولى التي يحلم «سيد» بوالدته منذ رحيلها، فأجزم بأن حُلمه رؤيا حقيقيةً وأن روح أُمه «آمنة» أتت له خصيصى لتنتزعه من يأسه، وتُبدِّل أحزانه، وتُبشره بالعوض. وأدرك أن المآسي عادةً ما تحمل في طياتها الكثيرَ من الحكمة!

ولم يمرَّ وقت طويل حتى اعتاد كلُّ مَن في البيت اسمَ كرسي «سيد» المتحرك، حتى كأنه أصبح فردًا من أفراد الأُسرة!

***

مضت عدة أشهر على زواج «فيفي». وفي أحد الأيام، قررت «عليَّة» أن تدعو ابنتَها وزوجَها لتناول الغداء معهم، ووقفت تطهو أطيب الأصناف من الطعام هي و«أم عثمان»، التي أصابها الإعياء في الشهور الأخيرة وبدا عليها كِبَر السن. وعلى الرغم من إلحاح «عليَّة» عليها بالجلوس والراحة، إلا أنها أصرَّت على مساعدتها، خاصةً أن «فيفي» ست البنات ووردة العائلة، فكيف لا تستعد لعزومتها وتطبخ لها من صُنع يدها ما تُحب!

كانت الفرحة عارمةً في الفترة الأخيرة بعد عِلم الأُسرة بنبأ حَمل «فيفي»، وقالت «أم عثمان» وهي تُحضر المَحشي:

- أظن أن «فيفي» ستُنجب فتاة، ملامح وجهها تُوحي بذلك.

عارضتها «عليَّة»:

- أبدًا! أقطع دراعي إن ما كانت «فيفي» حامل بولد.. ألا ترَينَ أنفَها الذي أصبح بحجم الجَزرة؟!

ضحكت «أم عثمان» على كلمات سيدتها، وبينما كانتا تُخمنان جِنس المولود القادم، رن جرس الباب وفتح «جمال»، ثم نظر بدهشة إلى السيدة التي وقفت أمامه وهي تحمل حقيبةً سوداء، وبيدها دفتر متوسط الحجم وقلم. ابتسمت له بهدوء قائلةً: «ممكن لو سمحت تنادي لي ماما أو بابا، يا حبيبي؟»

مكث «جمال» ينظر إليها لثوانٍ دون أن يَصدر منه أيُّ ردٍّ، ثم خطَف الدفتر الذي تحمله السيدة في لمح البصر، ودخل يركض به بين الغُرف، وهو يُقطِّع أوراقه التي تطايرت بعشوائية، ومن خلفه صيحات الزائرة! وبدأت تقفز في موقعها وتتجوَّل ببصرها باحثةً عن مَن يُسيطر على هذا المُجرم الصغير، كما نادته!

ولم يستمع الأب الذي كان يغطُّ في نومه لكل هذا الصراخ، فخرجت الجدة «كوثر» من غرفتها تستند على عصاها وهي تلوِّح لـ «جمال» متوعدةً إياه بالعِقاب، وهي تناديه بـ: مقصوف الرقبة! ثم صاحت في ابنتها «عليَّة» للسيطرة عليه، هرعت الأخيرة ومن خلفها «أم عثمان» من المطبخ، ليجِدا السيدة المسكينة وقد جثت على ركبتيها بالصالة تلملم الأوراق المقطوعة، وبدا صوتها كالبكاء بسبب ما فعله هذا الجِنِّيُّ الصغير! وقالت بنبرة معاتِبة: «مش تربوا أولادكم يا مدام!»

اعتذرت لها «عليَّة» بشدة، وخلعت الشبشب لتضرب به ابنها ضربتين، ثم أحضرت ما تبقى من الدفتر، وأدركت بأن تلك السيدة هي مندوبةُ الإحصاء لتعداد الأُسرة، وقد حضرت لأخذ البيانات ضمن مشروع التعداد العام لسكان الجمهورية لعام ١٩٦٠، وظهرت في حالة من الانهيار العصبي، فأحضرت لها «أم عثمان» كوبًا من الماء المذاب به سُكَّر! ولكنها رفضت شُربه، وقالت في أسَى بيِّن:

«لقد دمَّر لي ابنُكم مجهودَ شهر كامل يا مدام! هذا الطفل وحده بعشرة أطفال! يا الله! كيف سأُواجه مديري الآن!»

وقامت لتخرج من باب البيت الذي ظلَّ مفتوحًا، وهي تحدِّث نفسها بغضبٍ شديد، دون أن تأخذ أي بيانات من الأُسرة. حتى إنها اصطدمت بقوة ببطن «فيفي»، وبزوجها، اللذَيْن وصلا في لحظة خروجها، وتأوَّهت «فيفي» متألمةً وهي تضع يدها فوق بطنها، فانزعجت «كوثر» بشدة لأجل حفيدتها، وصاحت في وجه المندوبة: «قطم رقبتك على صدرك صحيح! كنتِ هتسقطي لنا البنية!»

تأففت مندوبة التعداد في ضيقٍ جمٍّ، وخرجت من بيت أُسرة «سيد»، وأقسمت في سريرتها أنها لن تضع بياناتهم حتى بعد إصلاح ما دُمر من الدفتر!

Visual Watermark

أعلن التعداد السكاني بعدها بعدة أشهر، رقمٌ تخطّى ستةَ وعشرين مليون نَسمة.. عدا أسرة «سيد»!

***

لا يدري «فريد» كيف مرت الأعوام الثلاثة في الجامعة هكذا كأن الأيام تُهرول به لكن دون مَشقة. ووضع نُصب عينيه أن يَظل من المتفوقين، حتى ذاع صِيت نباهته في أرجاء الحرم الجامعي. ولكن شغفه لم يرتوِ مقدار قطرة ماءٍ لتائهٍ في الصحراء! ودخل عامه الرابع بتفوُّق لا مثيل له، وقد حمل معه كثيرًا من الملل بجانب الفيض الكثيف من المعرفة، دون استكانةٍ للنفس أو إيجاد إجاباتٍ وافيةٍ لأسئلة عقله التي تتكاثر عليه ولا تهدأ. وتلاشت مع الأيام رغبته الجامحة في البحث عن الحبيبة بين زميلاته دون جدوى، فنسي أحلام جدته والفتاةَ الغامضة ذات الشَّعر القصير! وضاع الكراس بين الأوراق والكتب المتكدسة فوق مكتبه، فضلَّ الطريق إلى إيجاده دون رغبة في البحث.

وفي إحدى الليالي، دعاه «صلاح» إلى اجتماعٍ في أحد بيوت الأصدقاء الذين يناقشون الأمور السياسية في البلاد. ليُعبروا عن آرائهم بصوت مرتفع متجردٍ من الحذر من المخبرين الذين انتشروا في الشوارع بجانب عربات الباعة وفوق مقاعد القهوة!

جلس «فريد» منزويًا بين جمع الشبان وقد تعالى صوت أحدهم: «إن جلَّ ما نجح فيه عبد الناصر هو كتم الأفواه المعارِضة! فلولا هؤلاء المعارضين، لما نجح في أن يصل إلى ما وصل إليه، والآن يطارد كلَّ مَن يختلف معه كالذئب الجائع، ليَزج بهم في سجون معتمةٍ لا ترى النور! تخيلوا معي كيف حوله هذا الجشع البغيض في السلطة، إلى ذئبٍ يفترس كلَّ مَن أمامه بلا هوادة!»

ابتسم «فريد» ابتسامةً ساخرةً وهو يراقب وجوه كلِّ الذين وقفوا يستمعون. لَمح الشابُّ المتحدِّث هذه الابتسامةَ وملامحَ التهكُّم، فسار بضع خطوات ليقترب من «فريد» قائلًا:

- أراك معترضًا ولا يُعجبك الكلام!

اضطرب «فريد» لبضع ثوانٍ، ثم اعتدل في جلسته، وقال في تردد:

- ليس اعتراضًا، ولكنني أُحاول أن أفهم ما تريده.. ما المغزى من كل هذا؟ لقد أردتم رحيلَ المَلك، فرحل المَلك. أردتم الثورة، فقامت، وجاء الضباط الأحرار. والآن عبد الناصر يُدير شؤون البلد، فما المطلوب اليوم؟ أن يرحل هو ويُسلمها إلى الإخوان مثلًا لكي يسترح قلبُك؟!

نظر صاحب الخطبة إلى عيني «فريد» بتحدٍّ، وقد بدا أسمر الملامح طويلًا، ورفيعًا للغاية! غير أن وجهه يحمل الكثير من الجدية، وقطَّب حاجبيه، ثم سحب كرسيًّا آخَر ليجلس، وقال هازِئًا:

- أردتم.. أردتم.. أردتم! اليه خواجة؟!

ثم نظر خلفه إلى «صلاح» وهو يقول:

- ألم يكن من الأفضل أن تُعرفنا بمجايبك يا صلاح!

تلعثم «صلاح» الذي باغته كلمات صديقه، ووتَّرته نظراتُ الجميع التي وُجهت إليه، ثم قال:

- هذا «فريد».. صديقي وجاري.. يا جماعة لا تؤاخذوه على ما يقول. «فريد» بورسعيدي، ووالده كان من المناضلين الأحرار في أثناء العدوان.

ضحك الشاب الأسمر بسخرية، فظهرت أسنانه صفراء اللون مصطبغةً من دخان السجائر، ومدَّ يده إلى «فريد» ليُحييه، قائلًا باستهزاء:

- صحيح.. يخلق من ضَهر العالِم..

تمالك «فريد» أعصابه، أخرج منديل من جيبه وخلع نظَّارته ليمسحها، وكأنَّما أراد أن يرى المُتحدِث بوضوحٍ أكثرَ لا تَشوبه شائبةٌ، ثُم إرتداها ونظرَ بثقةِ نظرةٍ حازمةٍ وقد استجمع قوته ليردَّ ساخرًا:

- هكذا الجرذان، تظن أن العالَم خارج الجحور ما هو إلا القمامات التي يسرقون منها بقايا الطعام!

فوثب الشابُّ عن كرسيه ليصرخ:

- جرذان! وبتشتمني بالفُصحى يا ابن الأوساخ!

اشتعلت النيران فور أن سمع «فريد» السُّباب الذي لحِق بأهله، واستشاطت الدماء في جسده، وبرزت العروق بتمرُّد في جبينه! وقام بلا وعي منه ليُوجِّه ضربةً إلى وجه الشاب.

Visual Watermark

تدخَّل «صلاح» ليَفصِل بين الشابين في لحظة فارقة، فأخذ ضربةً قويةً في عينه فتورَّمت! مرَّت بضع دقائق من الانفعال الجامح، وبدأت محاولات الجميع في التهدئة بين الشابين تنجح في نهاية الأمر، خاصةً عندما أدركوا ما حلَّ بعينِ «صلاح»، وضحكوا جميعًا، فوضع كفَّه على عينه المتورِّمة قائلًا:

- ما ينوب المخلص.. يا أولاد الكلاب!

فتعالَت الضحكات أكثر! وبعدما هدؤوا، اعتذر الشابُّ «لفريد» عن سُبابه، وعرَّفه بنفسه قائلًا:

- أنا «حسين»، طالب في كلية الهندسة.. كان من المفترض أن أتخرج منذ عامين.. ولكن.. أنت عارف الدكاترة عندما يضعون واحدًا من الطلبة في دماغهم!

فقال «فريد»:

- تخيَّل.. إن أقرب أصدقاء الطفولة لي ببورسعيد يُدعى «حسين» أيضًا، وهو مناضلٌ من صغره منهمكٌ بالسياسة وحال البلد وشؤونه، مثلك تمامًا!

وضحك وهو يردف:

- وتخيَّل! هو مثلك تمامًا تخرَّج في الهندسة، غير أنه لا يحب جماعة الإخوان.. يكرههم كُرهَ العمى! خاصةً أنه يدرك تمام الإدراك أنهم يسعون إلى حُكم البلاد، ليس لأجل مصلحة الوطن، وإنما لمصالحهم التي لا يعلمها إلا الله!

انزعجت ملامح «حسين» وعلَّق:

- ولِمَ فهمتَ أنني أقصد بالمعارضين الإخوان؟ أتعجب! كلُّ مَن في مصر يُعلقون كلَّ شيء على شماعة الإخوان!

رد «فريد» سريعًا، وهو يربت على فخذ الشاب:

- أيًّا كان مَن تقصد، لا تأخذ كلَّ الأمور على أعصابك هكذا! ألستَ هنا لأنك تشكو من قادة بلادك لأنهم لا يتركون مجالًا للآراء الأُخرى؟ ها أنت هنا هتلر بيتك! تغتاظ من أي كلمة لا تُلائم أفكارك!

فنظر له «حسين» وهو يُفكر فيما سمعه للتو، وابتلع ضِيقَه من وصفه بـ هتلر، ثم قال:

- دعنا من السياسة الآن. حبيبتي تقول لي «سمسم»، سأسمح لك أن تناديني بهذا الدلع، حتى تُفرِّق بيني وبين صديق طفولتك.

فابتسم «فريد» ليقول ضاحكًا:

- وهو كذلك.. تشرَّفنا يا باشمهندس سمسم!

مرَّت الساعات التي لم يُدركها الشابان وهما يتحدثان عن أمور البلاد. وشعر «فريد» فجأةً أنه يستمع للمرة الأولى عن مصر! كل عِلمه وثقافته انحصرت بداخل وجدانه ولم تسنح له الفرصة من قبلُ أن يرى الوجه الآخَر للأمور، وكان لـ «سمسم» سِحرٌ خاصٌّ في سرد أحوال البلد وما يحلم به شبابُها؛ شرح له كيف أن القوى الشَّعبية هي عماد الوطن، وأن الأحزاب الأُخرى هي مصدر القوة لا الضعف، وأن الجبناء فقط هم مَن يكتمون الأصوات التي تُعارضهم. أحس «فريد» في لحظةٍ مهمَّةٍ في حياته بأن له دورًا لم يُدركه من قَبلُ، فقد بدا واسعَ الأُفق مثقَّفًا مُطلِعًا، وكان حين يناقش «سمسم» تخرج منه الكلمات مُقنِعة بجُمل قوية رصينة، لا تمنح مَن أمامه أيَّ مجال لتصيُّد الأخطاء. تفرعت أحاديثهما ليحكي لصاحبه الجديد عن بورسعيد، وطفولته، كأنه استغل فرصةً ليستفيض في ذكرياته ويُحلِّق معها بعيدًا فوق سماء مدينته. وأبدَى «سمسم» بدوره إعجابًا شديدًا بأفكار «فريد» التي كانت مثل اسمه، فريدةً، وإن كانت تختلف عن كل ما يَعتنقه كلَّ الاختلاف، وكأنهما الشرق والغرب، لن يلتقيا أبدًا.

***

أمضت «أم عثمان» ليالي طويلةً تُحاول أن تنفض عن عقلها الصوتَ المُلح الذي يُطالبها بالرحيل، لقد مضى بها العمر، وتآمرت عليها الأيامُ بفِطنة القدَر، آمرةً لها بأن تتقبَّل المصير المحتوم. ألَّا تنظر يومًا إلى الخلف، وألَّا تبحث عن الماضي، تاركةً لها صورةً وحيدةً لبيوت النوبة القديمة. لكنها استيقظت في صباح هذا اليوم لتُعلم أهلَ البيت بالقرار المُتَّخَذ!

وبأعينٍ امتلأت بالدموع أخبرتهم بأنها قررت الرحيل، قررت العودةَ إلى أرض النوبة، بلا رغبةٍ في

Visual Watermark

البحث عن أهل الماضي، ولا أملًا في لقائهم بالمستقبل، ستكتفي بنَقش صورٍ ملونةٍ لهم على جُدران البيت من الخارج، لتنام قريرةَ العين تَحرسُها تلك الرسومات! وستبقى هناك حتى يَحين موعدُها، فقد شعرت باقتراب الأجل، وأرادت أن تُهيئ نفسَها لاستقبال النهاية، وقد اختارت أن يكون مثواها الأخير بين أحضان أرضها، لتنبت فوق ضريحها نخلةٌ تشقُّ عنانَ السماء، ويتساقط تمرُها ليُحلي أفواه الأجيال القادمة من بعدها!

جلس أهل البيت دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، استمعوا بإنصاتٍ تامٍّ، برفضٍ للواقع، وبلا أية مَقدرةٍ على معارَضته! واحتلَّ الحزنُ قلبَ «فيفي» الذي اعتُصر فور علمها بالأمر، وقالت لها متوسلةً:

- طيب ابقي حتى تَحين ولادتي! لم يبقَ سوى شهرين.. ألا تُريدين أن تَحملي مولودي بين يديكِ يا «أم عثمان»؟

فردَّت وقد غلَّفها الأسى:

- لو عليَّ لبقيت دون رحيل يا بنيتي.. غير أنني إن بقيت، ربما لن ألحق بلحظة ولادتك! إنني أشم رائحةَ الموت، أشعر به يطوف حولي مانحًا لي فرصةً أخيرةً، منتظرًا عودتي. وإن عارضتُ قدَري، ستحلُّ بيَ اللعناتُ وسيُدفن جسدي غاضبًا مني، رافضًا تراب الأرض هنا، وسيأبى التآكل! أيُرضيكِ ألَّا أرتاح في الحياة والموت أيضًا!

انهمرت «فيفي» في البكاء، ثم احتضنتها وهي تقول:

- بعد الشرّ يا «أم عثمان»!

مسحت دموعَها وهي تُردف:

- حسنًا.. سأتركك ترحلين، ولكن بشرط.. أن تعديني بأن تأتي لزيارتنا.. عِديني يا «أم عثمان»!

تأوَّهت «أم عثمان» بحُرقةٍ وأسًى، وهي تمسح بيدها على شَعر «فيفي» التي بقيت في حضنها، وقالت:

- ليتنا نضمن تحقيق أي وعد! ولكن الوعود للحمقى فقط يا بنيتي! فلا أحد يعلم الغيب، ولا أُريدكِ أن تنتظري، أو أن يُصيب قلبَكِ ألمُ الترقُّب للحظةِ العودة. لا أُريد أن أُخيب ظنَّكِ في أي يوم يا «فردوس». لن أعدَكِ بشيء سوى أنكِ ستظلين ابنتي التي لم أُنجبها، وستسكنين قلبي حتى يتوقَّف نبضه، سأتذكركِ يا ست البنات في كل لحظة، في لحظات بكائك في صِغرك، وعنادك الدائم، وصوت دبدبةِ قدميكِ على الأرض حين تَغضبين، تَصفيري لشَعركِ الجميل، وهلعي عليكِ حينما كنتِ تَمرضين أنتِ أو أيُّ واحد من إخوانك، سيحمل كلُّ جلبابٍ لديَّ بقايا دموعكِ حينما كنتِ تبكين على صدري، وسيبقى صدى ضحكاتك بين ثنايا روحي، وسوف أرى لون عينيك في أوراق النخيل، وطيبةَ قلبك ومَحبتكِ لكل مَن حولك في مياه النيل. إن رحلتُ عنكِ، لن ترحلي عني يا ابنتي، ستبقى كلُّ لحظاتي معكِ منذ أن حملتُكِ بين يديَّ يومَ مولدكِ وحتى يوم زفافك إلى فارسِ قلبك، لن أنساكِ ما حييت، وسآخذ كلَّ ذكرياتنا معي إلى قَبري!

***

أما آن لك أن تجد نفسك!

أما آن لك أن تجد نفسك!

استيقظ «فريد» فزِعًا بأنفاس متلاحقة كأنه يلهث، أمسك رأسه بين كفيه يُحاول أن يلاحق الصوتَ المتكرر في عقله. رأى جدته في الحُلم غاضبةً، بوجه مكفهر لائم. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يراها فيها، فقد زارته في أحلامه عدة مرات، ولكنها كانت دائمًا تجلس بعيدًا في زاوية من عقله تنظر إليه بعينٍ رُدَّ إليها بصرُها، صامتةً بفمٍ فقدَ الكلمات! ارتعدت أوصالُ «فريد» من صوت جدته الذي بدا آتيًا من فوق سبع سماوات! ومكث لَلحظات يُفكر في كلماتها، ولا يريد الاعتراف بالتيه الذي أصاب روحه! وثَب عن سريره يبحث عن الكراس، ألقى كلَّ الأوراق والكتب أرضًا، وفتح كلَّ الأدراج، وفتَّش بين ملابسه دون جدوى! فجثا على ركبتيه فوق أوراقه المتناثرة في عجز. أكُلُّ الذي قالته له جدته وكلُّ الذي لم تقُله اختفى؟! نظر نظرةً أخيرةً ليجد الكراس تحت ركبتيه، ظَهر في تلك اللحظة!

أخذه سريعًا وفتح ليقرأ أحلام الجدة بنهم، باحثًا عن نفسه بين الكلمات. وقلَّب الصفحات وهو يقرأ الأحلام. احتار «فريد»، وظل تائهًا في كلمات جدته. لقد تحققت ستة أحلام، لقد بدأ كلُّ شيء برحيل جده

Visual Watermark

«حافظ»، أنجب «جمال»، وبُترت ساقا أبيه، ليهجروا بورسعيد، مات «ميمي»، وتزوجت «فيفي»..

فجأةً تذكَّر «فريد» تجهُّم وجه أُخته حينما قال لها:

- أُراهنكِ، ستُنجبين فتاة..

ردَّت سريعًا آنذاك بلا تفكير:

- تفّ من بُقك! بل.. ولد!

وهزَّ رأسه وهو يتصفَّح الأحلام، ثم همس يُحدث نفسَه: «لَّا نشوف يا فيفي كلامك اللي هيمشي ولا كلام نينه!»

ثم فتح يقرأ الحُلم الرابع مرةً أُخرى، وقد اعتبره «فريد» دلالةً على هجرتهم من بورسعيد:

«رأيتُ بيتنا هذا يا بُني كالكهف المهجور.. حالِكِ الظلام.. ويئنُّ جوفُه بصوتٍ يعلو وينخفض كالعويل.. حطَّت العناكب بيوتَها في أركانه. ورأيتُكَ واقفًا تنظر إلى الكهف من بعيد.. بوجهٍ مكفهر.. وحالٍ تعيس. وهبَّت الرياح مُرسَلةً لتُحطم بيوت العنكبوت، ثم اختفت، وظهر النهار فجأةً ليُضيء ما اختبأ بداخل الكهف. ثم رأيتُكَ تمشي بخطواتٍ بطيئةٍ آتيًا من بعيد.. اقتربتَ يا بُني.. وجلستَ على أعتابه.. وحيدًا تنظر إلى أعلى.. تتأمَّل السماء».

تجاهَل الحُلمَ السابع، وقلب الصفحة ليقرأ الثامن:

«رأيت «عليَّة» يا بُني، في قِمة الحزن.. تحمل فوق رأسها جبلًا شاهق الارتفاع.. أحنى ظَهرها.. وكانت تسير في طريقٍ طويلٍ لم أرَ نهايةً له.. تحتضن بين كفَّيها قطعةً صغيرةً من اللحم النيئ.. ثم مزَّقت من جلبابها قطعةً من القماش.. لفَّتها حول قطعة اللحم، ومدَّت يدها فوق رأسها تحاول أن تأخذ صخرةً من الجبل.. غرزت أصابعها بقوةٍ فنزفت دمًا، وكان الجبلُ على وشك الانهيار، فأصدر صوتًا كالبركان، وتحطمت الصخور فوق رأسها، لتتساقط عليها ومِن حولها، وهي تتألم بلا صوت.. ثم هدأ كل شيء بعد لحظات.. ونظرت إلى الرمال التي تكوَّمت تحت قدميها.. ثم انحنت لتدفن قطعةَ القماش».

شهق «فريد» وهو يقول لنفسه بصوت مرتفع: «جَنين أُمي! نعم، هو! بل سبعة أحلام يا نينه! كما قلتِ يا نينه، تتحقق الأحلام بلا ترتيب..»

وعاد بالصفحة ليقرأ حُلمها السابع.. سرح في كلماته تائهًا فيها.. غارقًا تمامًا مثلما رأته..

***

أنجبت «فيفي» فتاة. ولم تسعد بها في اللحظات الأولى كسعادة «مجدي»، ثم ما لبثت أن تأججت بداخلها مشاعرُ الأمومة فور أن قامت بإرضاع المولودة. وكانت «فيفي» قد انتقلت للبقاء عند والدتها بعد أن اشتدت عليها آلام المخاض. ظلَّت تتأمل ملامح ابنتها في شغف، وهي تمسح بأناملها على شَعرها وتلمس أنفها الذي بدا كحَبة فستق صغيرة. ولم تستطع «شمعة» أن تُخبئ حنقَها، فقد أمضت كلَّ الشهور السابقة على أمل أن تُنجب زوجةُ ابنها ولدًا، وكانت تنتظر بفارغ الصبر «ميمي» الجديد، بل إنها اشترَت الملابس له كأنها على يقين من جِنسه! ولاحظت «عليَّة» بفطنتها ضِيقَ الجارة، والتمست لها العذر. ثم قالت لابنتها التي مدَّدت جسدها فوق السرير لتُرضع صَغيرتَها:

- حمدًا لله على سلامتكِ يا نور عيني، وعقبال ما تخاويها بـ«ممدوح» عن قريب.

تهلَّلت أسارير «شمعة» بشكل ملحوظ وتحوَّل امتعاضها إلى بشاشة حقيقية، ووثبت عن كرسيها وهي تقول:

- يا ستي خلينا في المفعوصة التي وصلت لتوها.. هاتي هاتي يا «فردوس».. أريد حملها.. حبيبة قلب تيته..

وأخذت «شمعة» الرضيعةَ من أحضان أُمها، ونظرت تتفحص وجهها بحُب بالغ، ثم قالت:

- بس طلعت وحشة لأبيها، مش حلوة لأُمها..

ضحكوا.. وقالت «فيفي»:

- لا يا ماما «شمعة»! هو فيه في جَمال «مجدي» برضك!

ردت «شمعة»:

Visual Watermark

- أيوه والله.. «مجدي» ابني جميل الخلق والخُلق يا «فيفي»..

ثم نظرت للصغيرة تُحدِّثها:

- يا بت طب افتحي عيونك، حتى أطمئن أنكِ أخذتِ جَمال عيون أمك..

طَرق «سيد» باب الغرفة مستأذنًا للدخول، ثم حرَّك عجلات كرسيه حتى وصل بالقرب من ابنته، فناولته «شمعة» المولودة وهي تقول:

- امسك حفيدتك يا «سيد» وسمي الله..

حملها «سيد» ونظر إليها فأشرق وجهه برؤيتها، وقرَّب كفَّها الصغيرةَ من فمه ليُقبِّلها، وظلَّ سارحًا في ملامحها الصغيرة بابتسامةٍ عريضة، يتأملها وهي نائمة.

قالت «فيفي» لأبيها:

- لقد اتفقنا أنا و«مجدي» أن نترك لك أمر تسميتها يا بابا..

نظر إلى حفيدته نظرةً طويلةً تملؤها كلُّ معاني الحُب والحنان الجارف، ثم قال:

- «غالية».. سأسميها «غالية».. الحفيدة الأولى الغالية.

دق «فريد» الباب يُطبِّل عليه بمرَح! ثم أدخل رأسه وهو خارج الغرفة ونظر لـ «فيفي» ضاحكًا يقول: «عشان تسمعي كلام أخوكِ لمَّا أقول لك: بنت!»

***

تخرَّج «فريد» في عام ١٩٦١، وعُيِّن بهيئة التدريس بالجامعة لتفوقه غير المسبوق. وظلَّ الأمل في لقاء ذاتِ الشَّعر القصير حيًّا بداخله، غير أنه بعد عدة أشهر قليلة شَعر بالضيق من مهنة التدريس. فقد ألبسه تفوقه هذا عباءةً من الجدية التي لا تغيب، وانطوى على نفسه ما بين تدريسه واستكمال دراسته بالماجستير في القانون الجنائي. فقلَّت مع الوقت مقابلاته مع أصدقائه، وغابت ضحكاته على طرائفهم.

وبعد مرور عدة أشهر، فاجأته جدته بظرف بداخله مبلغ باهظ من المال، كان مُدَّخَرًا، وقالت له:

- هذا من جدك يا «فريد»، أوصاني أن أمنحك إياه بعد تخرُّجك لتشتري سيارتك الأولى. أنت الآن أستاذ قد الدنيا، ولا ينقصك سوى السيارة والعروس، علينا السيارة وعليك العروس يا «فريد».

قبَّل «فريد» يدها، وهو يكاد أن يطير من الفرحة! ودمعت عيناه غيرَ مصدِّق ما فعله جدُّه لأجله، وتذكَّر ذلك اليوم حين سأله جده:

- عندما تُصبح رجلًا وتلتحق بوظيفتك، ماذا ستفعل بأول مَهية لك؟

أجابه حينها «فريد» بلا تفكير أنه سيشتري سيارة! فضحك «حافظ» قائلًا:

- ياه! سيارة مرة واحدة؟ بأول مرتَّب! ده أكيد أنت ناوي تشتغل وزير على كده! وما له يا حفيدي؟ ولكن تذكر أن تفعل شيئًا لإدخال السعادة على قلوب مَن حولَك يا «فريد».

تغاضى «فريد» عن حُلم طفولته بامتلاك سيارة فورد! واشترى بدلًا عنها سيارة فيات بمبلغ خَمسمئة جنيه. وساعده زوج أخته «مجدي» في تعلُّم القيادة في أقل من أسبوع، فكان يأخذه إلى صحراء مدينة نصر، ويترك له حريةَ القيادة، حتى يتجنب حدوث أي حوادث. وفور حصوله على رُخصته، قرر أن يأخذ أباه للتنزه بالسيارة، رفض «سيد» في بادئ الأمر، إلا أنه وافق بعد إلحاح الجميع، وركب بجانب ابنه الذي حمله كالطفل ليساعده على دخول السيارة، وتكدَّس على المقعد الخلفي باقي أفراد الأسرة: «عليَّة» و«كوثر» و«فهمي» و«جمال».

جال بهم «فريد» حتى كورنيش الزمالك، وتوقف عند محل الجيلاتي واشترى لهم جميعًا، ثم عادوا إلى البيت في سعادة ورضا. وظلت كلمات جده التي تذكَّرها تدق كالناقوس في عقله، فقرر بعد عامه الأول من التدريس بالجامعة أن يُدخل البهجة على قلوب أُسرته، وفاجأهم في صيف ١٩٦٢ بشراء تلفزيون ضخم، حمله اثنان من العمَّال. التفَّ أهل البيت حول الضيف الجديد وقد غمرتهم السعادة، واقتص من دَخله ٨ جنيهات كقسط شَهري، ولم يشعر بأي غضاضة في أن يدفع ما يُقارب نِصف راتبه لأجل إسعاد أُسرته.

ولا تدري «عليَّة» كيف انتشر الخبرُ كالنار في الهشيم عند بعض جيرانها، ووجدت في اليوم التالي فوجًا

Visual Watermark

من الأبناء يستأذنون في دخول البيت لمشاهدة البث التلفزيوني!

حلَّت أعقابُ السجائر وأدخنتُها كضيوف دائمة الحضور بين أصابع «فريد»، خاصةً في أثناء قيادة سيارته كونه لا يجرؤ على التدخين أمام والديه. وربما ستصيبهم الدهشة فلم يَسبق له التدخين طوال سنوات مراهَقته، ولم تُغرِه قَطُّ أدخنةُ سجائر زملائه حين كان يقابلهم. ولكن شيئًا في مهنة التدريس دفعه إلى الرغبة في نفث دخانه الخاص بدلًا من الاكتفاء بدخان الآخَرين!

***

حلَّ الشتاء، وجاءت مكالمةٌ للأُسرة من جارتهم «فايزة» تُعلمهم بموعد زفاف ابنها «حسين»، وتدعوهم للحضور لبورسعيد لمشاركتهم الأفراح. اعتذرت «عليَّة» لجارتها لأن أمها كانت في حالة من الإعياء الشديد، ولن تستطيع أن تتركها. كما أن عجز «سيد» جعله مع الأيام مُستكينًا في بيته يأبى الخروج منه. فقرر «فريد» السفر وحيدًا لتهنئة صديق طفولته، وأحس طوال رحلته إلى بورسعيد بمشاعر لم تراوده من قبل، نضجت بداخله اللهفةُ وتمنَّى لو تعود كلُّ الأُسرة إلى البيت القديم، وأن يرجعَ طفلًا يطوف بدراجته شوارع بورسعيد.

كان الفرح قد بدأ قبل وصوله، وعندما دخل، وثب «حسين» من الكوشة ليحتضن صديقه الذي حضر لأجله. ثم جلس «فريد» على أحد الكراسي وهو يتابع العروسين وينظر إلى وجه صديقه البشوش، ليرى ماضيه وكلَّ ذكريات الأمس الذي نسج بتفاصيله الحاضر، أيامَ الصبا، والبراءة، ومسابقات الدراجات بينهما. وتذكَّر حُبَّ «حسين» الجارف لابنة جيرانهم اليهودية فابتسم، وعقله يقول: «كلُّنا ننسى!» وبينما هو جالسٌ غارقًا في أفكاره أحسَّ بيدٍ تُمسك كتفه بقوةٍ من الخلف، وصاحبها يقول:

- أنت ورايا ورايا يا أستاذ «فريد»!

نظر إلى صاحب اليد ليجده «سمسم»، فقام من جلسته يُحيِّيه مندهِشًا:

- أهلًا أهلًا يا «سمسم».. ما هذه الصدفة! أتعرف «حسين»؟

- أعرف «حسين»؟ طبعًا أعرفه ونصف.. آآاه.. انتظر.. أهذا هو «حسين» الذي حدثتني عنه من قَبل؟ شوف صغر الدنيا! «حسين صابر» كان معي في الجامعة، بل أزيدك من الشِّعر بيتًا، زوجتُه العروس، هي ابنةُ خالتي..

وسحب كرسيًّا ليجلس بجانب «فريد»، الذي سأله إن كان سيعود إلى القاهرة في نهاية اليوم، فأجابه بنعم، فعرض عليه «فريد» إيصاله معه بالسيارة. وبعد انتهاء الليلة وتوديع العروسين، تحرك الشابان عائدَيْن إلى القاهرة. وقبل عودتهما مرَّ «فريد» بسيارته في شارع بيته.. ثم أوقف السيارة أسفل إحدى العمائر، وأشار لـ «سمسم» في ظلام الليل ليقول:

- هذا بيتي.. هذا هو المكان الذي أنتمي إليه.. مدخل العمارة تلك يحوي أجمل الأيام وأنقاها، والكثيرَ من الأحلام!

نظر «سمسم» وهو يفكر في كلمات رفيقه، تنهَّد «فريد» ثم أدار مُحرك سيارته ليرحل. ورافق رحيلهما الأحاديث التي كانت لا تزال مختلفةَ القَناعات بينهما، ولكن بنضج أكثر وتفهُّم واحترام. وكان «سمسم» يُنصت باهتمام عندما يُعبِّر «فريد» عن آرائه، وقد أعجبه حُسن صياغته للكلمات وقُدرته الفذة على التعبير عن رأيه، قاطعه فجأةً ليسأله:

- أتعرف يا «فريد»؟ على الرغم من عدم اتفاقي مع أغلب آرائك، أشعر كأنك كِتابٌ ناطِق، كتابٌ شديدُ الدِّقة والحِكمة.. ألم تُفكر يومًا في الكتابة؟

بُهت «فريد» من السؤال المُفاجِئ، وسرح في طريقه يُفكر، وأمعن النظر في ماضيه، لقد قرأ الكثير، في كل العلوم وكل المجالات على اختلافها، ولم يشعر في أي يوم برغبة في الكتابة، لم يكتب أي شيء بعيدًا عن استذكاره، سوى أحلام جدته!

أردف «سمسم»:

- ما رأيك أن نتقابل غدًا في مَقر «صباح الخير»؟ لي صديق صَحفي هناك، أحب أعرفكم على بعض..

لم يُعلِّق «فريد» بالرفض أو الإيجاب، سكت طوال المتبقي من طريق العودة! وبعد إيصال «سمسم» إلى محل سكنه بالعباسية، عاد «فريد» وأمسك كراس جدته، وقلَّب الصفحات الإحدى عشرة بسرعة، حتى

Visual Watermark

وصل إلى صفحة فارغة، ونظر إليها ربما لساعةٍ أو أكثر! كأنه خائفٌ من أن يكتب أي كلمة تُعبِّر عن كل هذا الذي يجول في خاطره! ثم استجمع شجاعتَه وقرر أن يكتب.. خَطَّ القلمُ في السطر الأول بخطٍّ مترددٍ:

«لا أدري من أين أبدأ!»

وكانت هذه الكلماتُ هي شرارةُ انطلاقٍ لساعة كاملة من الكتابة!

باح لأوراقه بأسراره التي لم يتجرأ على مصارحة نفسه بها في يوم من الأيام! ظلَّ يكتب ويكتب حتى غاب وعيُه في سُباتٍ عميقٍ والقلم في يده! وعندما فاجأه ضوءُ النهار، قفز إلى داخل ملابسه، وارتدى حذاءه سريعًا، وقد قرر الذهاب إلى موعده!

***

تبدل الحال مع «فيفي» بمرور الأيام، وزاد انشغال زوجها عنها، لتحِلَّ مكانه حماتُها كصاحبة بيتٍ بلا استئذان! حملت «فيفي» للمرة الثانية، فعادت أحلام «شمعة» مع هذا الحمل بابنها «ميمي»، وأصبحت تنادي «فيفي» بـ «أم ممدوح» كلما رأتها! حتى كادت «فيفي» أن تكره اسمَ «ممدوح»! وازداد توترها مع اقتراب لحظة الولادة، وذهبت إلى أمها تقول بقلقٍ حزين:

- تخيَّلي يا ماما لو طلع ما برجمي فتاة، ستهدم حماتي البيتَ فوق رأسي!

كانت جدتها «كوثر» جالسةً تُسبِّح بسبحتها في هدوء، فرحلت سَكينتُها مع كلمات الحفيدة، وخرجت الكلماتُ سيلًا هادرًا من فمها:

- هي سايبة؟! بل نحن من نهدم الحي بمَن فيه فوق رأس مَن يدوس لكِ على طرَف يا «فردوس»!

وحاولت «عليَّة» تهدئتَها:

- اهدي يا أمي! ولمَ كلُّ هذا.. الست نفسها في ولد..

فانفعلت «كوثر» غاضبةً:

- أمَّا عجيبة دي! نفسها في ولد فلتُنجب هي، بدلًا من أن تضع همَّها في ابنتنا! ثم إن الخالق هو الخلاق، وهو مَن يُقرر بنتًا أم ولدًا. هذا هو الناقص! ستتدخل في أمر الله!

وظلت الأم والجدة تتبادلان أطراف الحديث، وبينهما «فيفي» التي تقضم أظافرها كطفلة مرتعبة! واستطاعت أن تُسيطر على عينيها حتى لا تسيل منهما الدموعُ أمام «كوثر» و«عليَّة». وقد أصبحت في الفترة الأخيرة كثيرةَ الحزن، متوجسةً وممتلئةً بالمخاوف، وأصابها الأرق الشديد فرحل النوم من عينيها، لتُمضي الأيام في ترقُّبٍ مُرهِقٍ للحظة الولادة ومعرفة جِنس المولود بفارغ الصبر!

***

ربما لم يُفصح «سيد» عن انتماءاته الكُروية من قبل، ولكن مع كثرة اللقاءات بينه وبين «عبد المقصود» أضحى اهتمامه بكُرة القدم واضحًا. وكانت الاجتماعات الأُسرية قد اقتصرت مع مرور الوقت عليها، بعدما بدأت «شمعة» بالاعتذار عدة مرات عن القدوم مع زوجها، فاقتصرت سهرات الشُّرفة على الرجلين. وتعجبت «عليَّة» من أمر زوجها واهتمامِه المفاجِئ بالكُرة، خاصةً حين أدركت أنه زملكاوي متعصِّب، بعد مرور قرابة أربعة وعشرين عامًا على زواجهما! وتجلَّى تعصبه هذا حينما اجتمعت الأُسرة على الغداء في ظهيرة يوم من أيام يونيو عام ١٩٦٣، وقد ظهر حينها غاضبًا، ووجهه ممتعض وينظر إلى الطعام بلا شهية! وكزَّت «كوثر» ابنتَها بكوعها تلومها قائلةً:

- فمُك يمتلئ بالطعام، وزوجك لم يذقه!

ارتبكت «عليَّة»، ثم سألته باستغراب:

- ما لك يا «سيد»؟ لمَ لا تأكل؟

لم ينظر إليها، وأجاب بكلمات مقتضبة:

- لا شيء.. نفسي مصدودة..

قامت «عليَّة» من كرسيها بحماس، لتأخذ صحنه:

- مصدودة ليه بس؟ لقد طبخت لك مخصوص طاجن البامية، دعني أغرف لك ملعقتين من السَّلطة..

Visual Watermark

لم تكد تُكمل كلامها حتى فاجأها بخبط كفّه على طاولة الطعام، لترتفع كلّ الصحون مذعورةً! وابتعد بكرسيه المتحرك وهو يقول:

- قلتُ لا أريد..

ارتعشت يد «عليَّة» وكادت أن تُفلت صحنَ زوجها، ثم جلست واضعةً يدها على خَدِّها تأبى الطعام، وبجانبها أُمها تأكل بشراهةٍ كأن شيئًا لم يحدث! وقام «جمال» من أمام طعامه ليقترب من أمه ويهمس في أُذنها:

- لو منحتِني عشرةَ قروش سأقول لك سرَّ غضب بابا..

انفعلت «عليَّة»:

- عشرة عفاريت يأكلوك! قُل وخلّصني..

فوقف الولد ذو التسعة أعوام في مكان ضيِّق بين الأم والجدة ليقول لها:

- الزمالك خسر الكأس اليوم..

فوقف الطعام في حلق «كوثر» ونظرت إلى حفيدها تقول:

- زمالك إيه ونيلة إيه التي تجعله يغضب على لقمة ربنا!

وتأففت «عليَّة» قائلةً في سِرها: «كان ما لنا ومال الكُرة يا سيد!»

***

«راجع بتسأل.. انت مين انت.. انت مين؟»

جلست «فيفي» في شُرفة البيت بالطابق الثالث تنظر إلى شُرفة الطابق الأرضي بالعمارة المقابلة لها، وبجانبها الراديو يخرج منه صوت نجاة وهي تُغني «راجع بتسأل». وكانت شُرفة بيت أهلها خاليةً ليس بها أحد، حتى الكراسي التي اعتادت البقاء بها، لم تَعد موجودة. غرقت في أفكارها الشجيَّة، افتقدت نفسها وسنوات مراهَقتها، وحزنَتْ على حالها.

انشغل «مجدي» عنها في الأشهر السابقة كثيرًا، وصار يُمضي ساعات طويلة بالمستشفى، بل أحيانًا ما يقرر المبيت بها. وكدَّر صفوها إنجابُها للابنة الثانية بعد ثلاثة أعوام من إنجابها لابنتها الأولى. وباتت حماتُها منذ ذلك الحين غليظةً معها، خاصةً عندما قررت «فيفي» أن تسمي مولودتها الجديدة «عليَّة». وسمعت حماتها وهي تُحدث ابنها قائلة: «وليه ما تسماش شمعة إن شاء الله؟!» فضاقت ذرعًا بما سمعته، وتعجَّبت كيف تُعطي الحماةُ لنفسها هذا القدْرَ من التدخل في شؤونها! كما أدهشها تحوُّل المرأة التي عُرف عنها لينُ القلب وحُسنُ المعاملة، إلى إنسانة أُخرى حادةِ الطباع يخرج من عينيها الشرر كلما نظَرت إليها. وقد صارت تتحدث بتجهُّم، وتُعلِّق ساخرةً على كلِّ شيء! وتَنهرها كثيرًا دون مراعاةٍ لمشاعرها! اشتكت «فيفي» ذات يوم لزوجها من تغيُّر حال والدته معها، فقال لها إنه من الأفضل أن تتجاهل كلَّ هذا، فوالدته طيِّبة وعادةً لا تقصد ما تقول! غير أن معاملة «شمعة» بدأت تسوء أكثر فأكثر! وكانت تصعد إلى شقتهم بلا أي موعد مسبَق، وتأمر زوجة ابنها بعمل كوب شاي لها، لترتشف منه رشفةً واحدةً بوجه مشمئز، ثم تزمُّ شفتيها وهي تقول: «حتى كوب الشاي لا تستطيعين صُنعه! يا ميلة بختك يا ابني!» ثم تتركها وترحل! وبعدما احتملت «فيفي» الكثير، قررت أن تُفصح لوالدتها عمَّا تلاقيه من سوء معاملة «شمعة»، فحزنت «عليَّة» لأجل ابنتها، غير أنها طلبت منها التحلي بالصبر والتغاضي وكتمان غضبها، ولكن قلب «كوثر» احترق لأجل الحفيدة، وأقسمت ألَّا تترك هذا الأمر ليمرَّ مرور الكرام، وحدَّثت «شمعة» بلهجة حادة تُعاتِبها على سوء معاملتها لابنتهم، فاحتدَّ الحوار وانقطعت العلاقات! وافتعلت «شمعة» الأكاذيب وهي تشكو لزوجها من الجيرة الغبرة والمَقلب في الزيجة! وقالت على لسان «كوثر» الكثيرَ من الكلمات التي لم تُنطق. فتأثر «عبد المقصود» بشكاية زوجته، وهجَر «سيد» بعد أن اعتاد السؤال عليه!

بقيت «فيفي» في بيتها تتجنَّب الاحتكاك بحماتها، حتى إن خرجت من البيت وسمعت صوتها بالطابق السفلي، تدخل سريعًا بنبضاتٍ متلاحقة لكيلا تصادفها، وأصابتها الحسرة ممَّا يجري، أتعسها تحوُّل الأحباب إلى غُرباء، واختلافُ النفوس وتقلُّبُ الأمزجة! وتساءلت إن كان الناس حقًا يتغيَّرون بفعل الزمن، أم أنهم في قرارة أنفسهم كانوا يَحملون الكثيرَ من القُبح الدفين، قُبح ينتظر الفرصةَ ليطفو على السطح، فتَظهر حقيقةُ القلوب المريضة في نهاية المطاف! أمضت تلك الليلة وحيدةً تُفكر.. لا يرافقها سوى

Visual Watermark

كلمات نجاة:

«الليالي اللي قطفنا من نجومها حلاوتها..

والنهار اللي اتقابلنا فيه ونام الخوف ساعتها..

فاكر الشمعة اللي طفاها الهوا؟ فاكر الوردة اللي بُسناها سوا؟

الليالي كلها دابت على نار البعاد..

والنهار تاه في ليالي الشوق، وليل الشوق سواد..

راجع بتسأل.. ده أنا اللي بسأل..

مين انت قُل لي مين! وجاي لمين هنا!»

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

عناقٌ أخيرٌ يحمل كلَّ الأيام والسنوات التي مضت!

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الأخير

«الضربة كانت من معلم.. خلّت الاستعمار يسلّم»

علا صوت أغنية عبد الحليم في أرجاء المحروسة. ويقول الجالسون على المقاهي خلفه بصوت مرتفع كالكورال: «هو مين؟ لا ده بعده، هو اللي اتلقى وعده»

ثم تتعالى ضحكات الرجال والشباب، وقد بثّت أغنية عبد الحليم حافظ «حكاية شَعب»، روحَ الوطنية والسعادة في نفوسهم. وظهرت أحوال البلاد أكثرَ استقرارًا عمَّا كانت عليه في الأعوام الماضية، بدأت النهضة تعمُّ سائر المجالات، خاصةً الاقتصادية، وبدأ بناء المصانع بالسواعد المصرية، وتحولت الشكوى من الإفلاس إلى الأمل في الغد الزاخر بالعوائد الطائلة على أبناء الشعب. وذيعت الأنباء عن انتهاء المرحلة الأولى من بناء السد العالي، وقد وضع الأهالي كلَّ الآمال على ما سيجلبه هذا المشروع العظيم من الخيرات.

تساءل «سيد» وهو يقرأ جريدته:

- تُرى أين «أم عثمان» الآن؟ لقد بدأ تهجير بعض أهالي النوبة لأجل تكملة بناء السد..

ردَّت «عليَّة» وهي تحتسي قهوتها:

- والله كل يوم على بالي.. اللهُ أعلم بحالها الآن.. عايشة ولا ميتة.. كل لحظة تمرُّ عليَّ في اليوم تُذكرني بها!

وبينما يتحدَّثان، وصل إلى مسامعهما صوت صراخ «فهمي» وجدته، فقامت «عليَّة» مسرعةً لترى ما يحدث، وقالت تسأل ابنها:

- لماذا تُضايق جدتك؟!

رد «فهمي» باستياء:

- غير معقول يا ماما! نينه تُصر على البقاء بغرفتي! بل واسمعي الجديد، تُصر على أنها غرفتها! يا ماما شوفي لي حلًّا إذا سمحتِ؛ أنا أنتظر اثنين من زملائي للمذاكرة معي وسيأتون في أية لحظة!

تنهدت «عليَّة» في قِلة حِيلة، ثم اقتربت من أُمها تربت على كتفها وتُحاول إقناعها بالذهاب إلى الغرفة الأُخرى، نظرت «كوثر» إليها باستياءٍ ورفض عنيد، ثم قالت:

- ومَن أنتِ لكي تطلبي مني الخروجَ من غرفتي؟

ثم أشارت بعكازها ويدها ترتعش، لتكمل:

- خُذي هذا الحيوان واخرجوا من هنا! أنا لا أعرفكم! استنوا عليَّ.. «حافظ» يرجع ويعرِّفكم مقامكم!

ربتت الابنة على كتفِ أُمها تُهدئ من روعها، ثم أمرت «فهمي» بالخروج من الغرفة. عادت تجلس لتُكمل قهوتها الباردة، وهي تفكر في الغُمة التي حلَّت بلا سابق إنذار! أخفَض «سيد» جريدته، ثم نظر إليها من خلف نظَّارة القراءة، وقال لها في هدوء:

- تقبَّلي الوضع يا «عليَّة»، الحزن لن يُجدي شيئًا سوى تراكم الهموم!

ردَّت بأسًى وشرود:

- إن قلبي يعتصر كلما رأيتُها في هذه الحالة.. لا أعرف كيف استيقظت فجأةً وقد نسيت كلَّ شيء! تخيَّل؟ أنا ابنتها وأحيانًا لا تعرفني، بل كثيرًا ما تخاف مني! والجبان «عادل»! كم من مرة طلبتُ منه القدوم لكي يراها علَّها تتذكره أو يُرد إليها عقلها، ولكنه لا يأتي..

هزَّ «سيد» رأسه في اعتراض، ثم فتح جريدته مرةً أُخرى، وهو يقول:

- كأنك تريدين إحياء الموتى يا «عليَّة»! إن أصاب الخرفُ العقلَ فلن يرحل أبدًا.. فلا تَضعي آمالًا واهية، وتقبَّلي الأمر حتى لا يُصيبك الخرفُ مثل أُمك! ولا تفعلي شيئًا سوى الدعاء لها أن تَملأ السَّكينة قلبَها. ثم «عادل» مين اللي يرد لها عقلها؟! هو وحده يحمل من الهموم جبالًا بعد سوء معيشته، وربما يشتُّ عقله من المسؤوليات التي فُرِضَت عليه على كِبر! التمسي لأخيك الأعذار يا «عليَّة» بدلًا من لَومه.

Visual Watermark

أومأت برأسها في استسلام، فهي تعلم أنه لا يبالغ فيما قاله عن سوء أحوال «عادل»، وقد اشتدت الخلافاتُ بينه وبين أسرة زوجته حتى بلغت ذروتها، وكذلك توتَّرت العلاقات بين العائلتين خاصةً بعدما جاءهم اتصالٌ عاجِلٌ من «محسن» يَسبُّ فيه أخاها ويُهدد بأذيَّته لأنه ضرب «نوال»! ويومها بكت «كوثر» على حال ابنها، وأصابها دوارٌ شديد، وأمضت الليل تدعو له أن ينصلح حاله. غير أن الأسابيع مرَّت لتستيقظ يومًا وقد أصبح عقلُها مثل ورقة بيضاء، خاليًا من كلِّ ذِكرى!

***

تحولت حياة «فريد» من الملل والروتين القاتل إلى قمة الإثارة. فلم يُخطئ «سمسم» عندما توقَّع له النجاح الباهر إن شارك في كتابة المقالات وخطَّ أفكارَه في كلمات ليقرأها الشَّعب. كانت زيارته الأولى لمجلة «صباح الخير» وتعرُّفه على الصحفي «جلال فوزي» بمثابة الباب الذي فُتح له على مصراعيه على عالَمٍ آخَر. وأصبح لـ «فريد» صفحته الخاصة لنشر مقالاته المختلفة في شؤون الحياة والبلاد، يكتب عن أفكاره المتفردة ووجهات نظره المختلفة. وحمل المقال الأول له عنوان: «طريقي الذي رأيتُه في عيْن عبد الناصر».

سرد فيه رؤيتَه الأولى للرئيس ببورسعيد، بعين طفل حائر لا يعلم شيئًا عن الغد، والأحداث التي تلت تلك الزيارة، ما حدث لأبيه، وما جرى في مصر. وصوَّر الآمال التي دبَّت في قلوب الشَّعب، بكلمات بسيطة تَسرق الألباب، ويتحيَّر من براعتها المفكرون، كأن كل كلمة كانت بمثابة نبتة تُغرس في العقول وتَرويها الأحداث.

ونال مقاله هذا إطراءَ الجميع. وتوالت من بعده المقالات التي أعلت من شأنه بين المفكرين والكُتاب. فكتب في كل المجالات، ولم تقتصر كتاباته على السياسة فقط. وذاع صِيته، فصادَق الأدباء واعتادت أقدامه أن تأخذه إلى مجالسهم. وبدأت تأتيه دعواتهم إلى سهرات الفن والفنانين. وأصبح مرشدًا للذين ادَّعوا التيه من معارفه الجديدة، خاصةً من النساء. فقد أضفى الجانب الأدبي على «فريد» رونقًا مختلفًا، وجعله جذابًا في عيون الكثيرات من الجنس اللطيف. وكان حين يحضر أي سهرة، تلتفت عيونهنَّ لتطارده في انبهار، فتتبارى الأقدام مسرعةً إليه للتحدث في أي شيء! يصطحبن معهنَّ أيَّ حُجةٍ -ولو تافهة- لبدء حديثٍ مع الرجل اللامع!

وفي إحدى الحفلات اقتربت منه فتاةٌ فائقة الجَمال، ترتدي فستانًا أسود عاري الأكتاف، وعليه الفرو باهظ الثمن، وقالت له:

- بونسوار يا أستاذ «فريد»..

وكان «فريد» يقف بظهره، فالتفت، ومدَّ يده يُحيِّيها بابتسامة رصينة، فأردفت:

- سمعتُ عنك الكثير مؤخَّرًا، وأنك حلَّال العُقد بأفكارك الفذة..

ضحك قائلًا:

- حسب نوع العقدة..

ضحكت الفتاة وقالت بدلال:

- على العموم.. مشكلتي مؤخَّرًا أني لا أعرف النوم.. يُصيبني الصداع.. أُمضي الليل كلَّه سهرانة.. ووحيدة.. أشعر بالملل الشديد، ولا أجد مَن يُخرجني منه.. تفتكر إيه علاج الملل يا أستاذ «فريد»؟

ابتسم بِصف ابتسامة، ونظر بعيدًا عن الفتاة، ثم وضع يديه في جيبه وهو يقول:

- الصداع خُدي له أسبرين. وللنوم يُمكنني أن أُرشح لكِ بعضَ الكتب والروايات لقراءتها، أمَّا الملل.. فليس له علاج..

امتعضت الفتاةُ قائلةً:

- إيه هو ده! أنت كاتب ومفكِّر ولَّا دكتور؟!

ضحك «فريد» ليقول:

- كلُّ ما أعرفه أنني لستُ ساحرًا!!

مدت الفتاةُ يدها بوجه تبدَّلت ملامحه، وقالت: «تشرَّفنا!» ثم رحلت من أمامه، والتفت «فريد» ليُكمل

Visual Watermark

أحاديثه مع الآخرين. لم يكن غريبًا عليه ردُّه المقتضب هذا، فقد اعتاد مثله مع الكثير من الفتيات اللاتي حاولن كثيرًا كسب ودِّه. صار متمرسًا مع مرور الأيام في فهم أنواعهن، ولم تستطع أيُّ واحدة إغواءه بجمالها أو رائحة عِطرها. وعلى النقيض، كانت أحاديثه في جلسات الرجال ثريةً مختلفةً تحمل الكثير من التفرد.

وقد أضحى شديد الاعتداد بنفسه، يعلو صوتُه بثقةٍ وسط الجالسين فيُنصت الجميع، وبدأ يَشيع عنه في هذا الوسط أنه «كارهٌ للنساء»! لكنه لم يكترث، هو يعرف نفسَه ويعرف أنهم لا يعلمون شيئًا عمَّا في قلبه!

***

في ليلة الخميس، الموافق السادس من فبراير عام ١٩٦٤، جلس الرجال والشباب على القهوة يتسامرون وهم يلعبون أوراق الكوتشينة والطاولة، وارتفعت ضحكات رنانة من «صلاح» ومَن معه من الشباب عندما تذكروا ما حدث منذ خمس سنوات، وتأثير صوت الكروان «رشدي» على فرح أُخت «فريد». وانزعج «رشدي» بشدة من سخرية صديقه، فأغلق الطاولة بغضبٍ رافضًا إكمال اللعب معه، ثم التفت ليُشير إلى صبي قهوة «الليالي وسط البلد»، ليحضر له كوبًا من الشاي، فرد عليه: «هَوا تكون عندك يا أستاذ رشدي».

وكانت تلك الليلة من الليالي المميزة، فقد هبَّت نسماتُ الهواء الباردة كأنها تحمل في طياتها الأمل الذي يمحو آلام القلوب ويداويها. وازداد ازدحام القهوة بالرجال والشباب المتسامرين، في انتظار الاستماع إلى حفل أم كلثوم الذي سيُذاع مُباشرة في الراديو.

أحضر «عبده» كوب الشاي بعد لحظات، ثم نظر إلى أصدقاء «رشدي» قائلًا:

- أي خدمة أُخرى يا أساتذة؟ سأغيب بعض الوقت، وأي طلبات.. عندكم الواد «زينهم».

فابتسم له الجالسون، وقال «صلاح» ممازحًا:

- على فين العزمة يا «عبده»؟

مسح صبي القهوة بكفيه على شَعره الذي ملَّسه منذ قليل، وشدَّ ياقةَ قميصه المتواضع بفخر، ليقول:

- عندي ميعاد مع الحبايب، «سكَّر» القلب اللي داب فيه! تمشية في السريع على كوبري قَصر النيل..

فعلا صوت الشباب هاتفين له: «الله يسهلك يا عبده!»

رفع يده يُحييهم كالنجم فوق المسرح! ثم ركض ليلحق بحبيبته «سكَّر» التي وقفت تنتظره بفارغ صبر. وتظاهر «صلاح» أمام الآخرين أنه مثلهم لا يعرف قِصة صبي القهوة، غير أنه في حقيقة الأمر كان قد تسامر معه في إحدى الليالي وعرف منه أمر حبيبته، وكانت تعمل كخادمة لدى أحد البهوات في حي جاردن سيتي، وتأثر حينها «صلاح» بحكاية الصبي وفرط عشقه لها. وأخذته تلك المشاعر إلى حُبه المنسي، ابنة خاله التي فضَّلت عليه شابًّا آخَر ضاربةً بحُبه والخِطابات التي ظلَّا يتبادلانها على مرور السنوات عُرض الحائط! وتذكَّر قُبلتهما الأولى والأخيرة، والتي ظن أنها بمثابة ميثاق عِشقٍ لن ينقطع، ولكن هيهات.. ليتَ كل القُبلات مواثيق تأمن للعاشقين النجاة من الغرق في بحور أوهامهم! وليت كل النهايات تحمل السعادة المؤبدة!

بدأ صوتُ المذيع جلال معوض يَصدح من الراديو مُعلنًا عن أُغنية «أنت عُمري» لكوكب الشرق، ناقلًا البثَّ من حديقة الأزبكية، فسكت الجميع في حضرة صوت الست، ولملمت أوراق الكوتشينة المبعثرة، وأُغلقت الطاولات. ولمح «رشدي» صديقه «فريد» يهبط من سيارته ويسير نحوهم، فصاح وهو يشير إليه قائلًا لمَن معه: «يا ابن الذين! انظروا مَن أتى إلينا!»

فرح الجميع بالصديق السائر نحوهم ووجهه ينطق اشتياقًا للقائهم، بينما تجهَّم وجه «صلاح» برؤية صاحبه، وفضَّل تحيته بيده دون أن يبرح كرسيه لاحتضانه مثلما فعل الآخرون. أخرج «فريد» من جيبه علبة سجائر بلمونت ليسحب منها سيجارة، فعلق «صلاح» ساخرًا:

- انظروا! المفكر الفذ «فريد حمودة» يدخن السجائر! الله يرحم إشاحتك بيدك وتأففك من دخان سجائري! طب اعزم يا رجل!

اضطرب «فريد»، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مرتبكة، وقدَّم علبة سجائره إلى صاحبه، ولكنه صدَّها براحة كفِّه!

Visual Watermark

قال «رشدي» مُحدثًا «فريد»:

- والله زمان يا عم «فريد»! كبرت علينا.. نسيت ليالي الخميس.. وأصبح من الصعب الوصول إليك.

فأضاف «صلاح» بنبرة هازئة:

- تلاقيه مشغول بلقاء الفنانين والفنانات، والركض خلف راقصات البلد. قالوها زمان: الوسط الأدبي بيعلم قِلة الأدب!

انزعج «فريد» من كلمات صديقه المباغِتة، والتي حملت الكثير من المعاني الخفية والسخيفة! فردَّ بلهجة قوية مُعاتِبة:

- ما لك! منذ لحظة وصولي وحالك غريب! أهذه هي الطريق التي تُقابل بها صديقك؟ وهذه هي الصورة التي تُكونها عني بعد كل هذه السنوات من العِشرة يا «صلاح»؟! بدلًا من الثناء على المقالات التي أكتبها، والقضايا التي أُناقشها معبرةً عنك وعني وعن كل الجالسين حولَنا؟!

اعتدل «صلاح» في جلسته، وأسند معصميه على الطاولة، ثم نظر بتحدٍّ إلى عيني «فريد» ليقول:

- انت اللي مالك ومالنا يا أخي! وإيه حدفك علينا الساعة دي؟ ما عندك جروبِّ، مكانك المفضَّل مع شِلة المثقفين ونجوم المجتمع الحائبين مثلك! أتُصدق أنت نفسَك وأنت داخل فاتح ذراعيك لمعانقتنا؟ أتصدق أنني أؤمن بأي كلمة تكتبها من الأساس؟ أي مقالات تلك؟ وأي كلمات التي تصيغها؟ يا «فريد» أنت لم تُدرك أن لديك موهبتك الفذة تلك سوى بالتفات «حسين» إليها.. «حسين»؟ ألا تذكره؟ «سمسم» الذي أخذتُ منك ضربةً قويةً بدلًا عنه يوم عرَّفتكما ببعض. والغريبة أنه بعدما دلَّكَ على الطريق، رحتَ وقلتَ عِدُّوا لي، ولا كأن لك أصحاب.. ألَّا صحيح قُل لي يا «فريد».. متى آخِر مرة سألتَ عن صاحبِ الفضل عليك يا سيادة المُفكِّر العبقري؟ بالتأكيد أعباؤك الكثيرة شغلتك عن معرفة زجِّه في السجن.. منذ عدة أشهر!

ارتبك «فريد»، وتحشرج صوتُه يأبى الخروج من حلْقه، وارتسمت علامات التساؤل والدهشة على وجهه، لكن «صلاح» أشاح بوجهه عنه، فلم يترك له فرصةً للاستفسار. قام من جلسته ليرحل سائرًا على الأقدام بخطوات غاضبة، وركض خلفه «رشدي» محاولًا إقناعه بالعودة، غير أنه رفض. ومشى في طريقه وقد ضاق صدره، يتبعه صوت أم كلثوم ملاحقًا له من بعيد.

***

زادت نشاطات الإخوان السرية طوال العام السابق، واعتُقل العديد من الشباب المنضمين إلى الجماعة، وأُلقي القبض على سيد قطب. تأكد «فريد» من انضمام «سمسم» إلى الإخوان، وهو الأمر الذي أنكره الأخير بشدة كلما وُوجِه به. حاول «فريد» أن يكتب مقالًا عن الشباب الذين انجرفوا وراء الجماعة، وحكى عن صديقه، بعد أن منحه اسمًا حركيًّا، قائلًا بأنه لا يستحق أن يُلقى به في السجن، بل يستحق أن يُستمَع إلى رأيه، أن يتحمل المعارِضون لأفكاره اللكمات الأولى من كلماته، والتي سيهدأ بعدها النقاش، ستخمد ناره وسيصبح الجميع مستعدًّا للاستماع لوجهات النظر الأخرى، بدلًا من جَلدِ المُخالِف لنا في الرأي لأنه يُعبِّر -مثلنا- عن رأيه!

غيرَ أن رئيس التحرير رفض نشرَ المقال رفضًا قاطعًا، وطلب مقابلة «فريد» في أسرع وقتٍ ليُحذِّره من التحدُّث في هذا الأمر في السرِّ أو العلن! وأخبره أنه من الجنون أن يُدافع عمَّن يَحرقون البلد ويسعون إلى تخريبها! كما أن الوطن بدأ يذوق الاستقرار بعد سنوات طويلة من المعاناة، ولا يحتمل الوضعُ الآن انقلابات من جماعةٍ تسعى إلى التخريب والدمار. كان «فريد» على اقتناع تامٍّ بهذا الرأي في قرارة نفسه، غير أنه شعر بواجبه الأخلاقي أن يُعبِّر عن صديقه وعن آماله، قائلًا بأن قَمع الآراء الأخرى سيَخلق من سنوات الكتمان وُحوشًا تفترس مَن أمامها في الغد! أحس في قرارة نفسه بأن «سمسم» وغيره من الذين انتقدت الحماسةُ بداخلهم لم يكونوا سوى ضحية، ضحية لجماعةٍ سِريةٍ تختبئ في الجحور هائمةً وتبثُّ في فرائسها مفهومًا مشوَّهًا للوطنية، تُغلفه كلمات من القرآن، كقطعة حلوى فاسدة يُغطِّيها قصدير لامع بألوان تُغازِل العقل ويَسيل لها اللعاب، غير أنها مُسمَّمة، وسيلقى ذائقُها حتفه فور ابتلاعه لها.

عرف «فريد» بعد عدة أشهر أنه تم الإفراج عن «سمسم»، حاول زيارته والتواصل معه، غير أنه رفض رؤيته. فقرر مراسلته عدة مرات متسائلًا عن سبب الرفض، وعن أحواله. حتى جاءه ردٌّ واحدٌ صادم، ردٌّ

Visual Watermark

يستهزئ به وبكل أفكاره، ويُحقِّر من كل مقالاته قائلًا بأنه لا شيء سوى واحدة من عرائس الماريونيت في يدِ قادة البلاد الفاسدين! اكفهرَّ وجه «فريد»، وضاق صدره بكلمات الصديق، وعندما عاد إلى البيت، دخل غرفته وأخرج كراس جدته، وكتب ليبوح لها بمشاعره، وأقسم أمام أوراقه أنه لم يكتب في مقالاته سوى ما شعر به طوال الأعوام السابقة، وبدأ كلماته قائلًا: «لا أحد سواكِ يعرف ما بقلبي يا نينه. أعرف أنكِ تصدقينني..» وكتب كثيرًا يشكو إلى أوراقه، خاصةً بعد تأثُّره بما حدث بينه وبين «صلاح»، وأقسم في أوراقه أنه لم يتملَّق يومًا أحدًا أو يُملي عليه أيُّ إنسان أيًّا من كلماته!

ومرت بضعة أيام ليصل إليه أمر القبض على «سمسم» مرةً أُخرى، فأيقن «فريد» أن صديقه قد تناول الآلاف من قِطع الحلوى!

***

كحال «فريد»، كان «فهمي» من المتفوقين للغاية في دراسته ونجح نجاحًا منقطع النظير في شهادة الثانوية ليصبح من أوائل الجمهورية. والتحق بكلية الطب، وقد استمر تفوقه بالجامعة تفوُّقًا ملحوظًا. ولكنه اختلف تمام الاختلاف عن أخيه الكبير، فرفض أن يصير معيدًا بالجامعة مثله، أو أن يقتدي به في أي شيء، بل اتخذ من «مجدي» نموذجًا يحتذي به، فتمنى أن يصير طبيبًا مثله، وكان سر تفوقه هو طموحه الجارف للسفر وإكمال الماجستير والدكتوراه في إنجلترا. وتحقق أمله بقبوله في المِنح المقدمة للدراسة بالخارج.

اسود وجه «عليَّة» صباح يوم سَفر «فهمي»، كان الأقرب إلى قلبها من كل أبنائها، وكان دائم الاهتمام بها، لا يخرج من البيت دون أن يُقبِّل يدها ويد أبيه. وإذا مرضت لا ينام ليله إلا بعد أن يطمئن عليها.

نهر «سيد» زوجته لبكائها الذي لم ينقطع طوال الليل، واستيقظت تودع ابنها بعينين متورمتين وبقلب أمٍّ يعتصره الحزن. وشقَّ على «فهمي» حالُ أمه، وطلب منها الدعاء له، ثم أخبرها أنه سيرسل لها خطابًا فور وصوله، وسيحاول الاتصال بها عندما تستقر أموره. وجثا على ركبتيه أمام أبيه واحتضن فخذيه واضعًا رأسه فوقها، وأغمض عينيه محاولًا أن يمنع الطريق أمام دموعه التي تود أن تنهمر كالسيل! ربت الأب على رأس ابنه، فنظر إليه نظرات تحمل الشوق من قبل الرحيل، احتضن الأبُ وجه ابنه بكفَّيه ليقول له: «والله وعِشت وشُفتك راجل قد الدنيا يا «فهمي»! عايزك ترفع راسنا، وتعود لنا أكبر جرَّاح».

وركض «جمال»، وقد أتم الحادية عشرة من عمره وبدا أطول إخوانه، ليعانق أخاه المسافر، وقد أحسَّ بأنه سيفتقده افتقادًا موحِشًا، خاصةً أنه الأقرب إليه دون «فريد» و«فيفي». وشعر بثقل الفراغ الذي سيحل فور ترك أخيه البيت.

ثم جاءتهم خبطات عكاز الجدة من الطُّرقة، وقد ظنوا أنها في سُبات عميق، ونظروا جميعًا في انتظار وصولها البطيء إلى الصالة، توجَّه نحوها «فهمي» وعانقها برفق، ثم قال:

- والله وهتوحشني خناقتنا يا نينه!

فدفعته الجدة بيدها ليبتعد، وهي تقول:

- كفاياك أحضان وقُبلات! امشي يا واد يا «فهمي» لتلحق بطيارتك ياكش تقع بيك!

برقت عينا «فهمي» في سعادة ليقول موجِّهًا كلماته إلى الجميع: «نينه افتكرتني يا جماعة أخيرًا!»

وتعجب كلُّ أهل البيت من أمر الجدة التي رُدَّت إليها ذاكرتُها لثوانٍ قليلة، وكأن الذاكرة بحقِّ امرأةٌ لعوب!

وقف «فريد» متابعًا كلَّ شيء في صمت، وبداخله رأيٌ آخَر، فلم يندهش مثلهم من تذكُّر جدته المفاجئ لأخيه، وشعر بأن الذكريات الدفينة المتأصلة عندما يرحل أحدُ أبطالها، تُفيق مُعلنةً حالةً من الطوارئ في خلايا العقل، تُحاول أن تَذكر النازحين بعيدًا عنها مرةً أخيرةً ليسكنوا ذاكرةً عقول أُخرى بها أماكن شاغرة في انتظارهم!

وقال «فريد» لأخيه:

- من الأفضل أن نتحرك الآن «يا فهمي» حتى لا نتأخر عن موعد طائرتك.

فقاطعه «جمال» ليقول:

- خذوني معكم يا أبيه «فريد».

Visual Watermark

لكن «فريد» فضَّل الذهاب وحده لتوصيل أخيه، وأومأ «فهمي» برأسه استجابةً له دون إلحاح. وعند خروجهما من البيت لمحا «فيفي» تحمل «عليَّة» الصغيرة بين ذراعها، وتمسك بيدها الأخرى «غالية»، وهي تُلقي نظرات إلى السيارات في الشارع لتَعبره بخطواتٍ سريعةٍ إليهما، وقالت بأنفاسٍ متلاحقة:

- الحمد لله! لحقتُ بك يا «فهمي».. أراد «مجدي» أن يُسلِّم عليك غير أنه جاءته حالة طارئة في المستشفى.

قبَّل «فهمي» البنتيْن، ودغدغهما مداعبًا لهما واحتضنهما، ثم عانق أخته ليرحل. وقفت «فيفي» تتابع أخويها وهما يبتعدان بالسيارة، وتلوِّح إليهما بيدها هي وابنتاها، وأخرج «فهمي» رأسه ينظر إليهنَّ ليبادلهنَّ السلام، وهو يقول بصوت مرتفع: «خدوا بالكم من نفسكم».

واحتفظ «فهمي» بالعناق الأخير لأخيه الكبير، عناقٌ طويلٌ حمل معه كلَّ الأيام والسنوات التي مضَت. وشعر في استقامة جسد أخيه الكبير وقوة ساعديه في احتضانه، بالسند الحقيقي. وأنه طالما اشتدَّ به عضده. أخذ نفسًا عميقًا آمنًا وأحس بالاطمئنان مما سيجلبه له المستقبل، ما دام «فريد» سيبقى في هذا المستقبل.

***

«لم لا تكلمينني؟»

فتح «فريد» عينيه ناظرًا إلى سقف غرفته، يُفكر في حُلمه، وسؤاله الذي وجهه إلى جدته. صامتة كعادتها، تجلس في زاوية من عقله، تنظر إليه نظرةً ثاقبةً، تراقبه، تتبعه. ولكنها لا تُصدر صوتًا، كأنها مُنحت النظر ليُسلب منها النطق! اعتدل «فريد» من نومته بجسد أرهقته التساؤلات، وبمشاعر تأبى الإفصاح عن الضيق من حُلمه المتكرر. وأنه لمن الجنون أن يتكرر حُلمٌ واحدٌ لسنوات وسنوات! صبَّ من الإبريق الموضوع بجانب رأسه القليلَ من الماء في الكوب، شرب، ثم قام وفتح الباب قليلًا ليتأكد من نوم أهل البيت، وأغلق باب غرفته بإحكام، ثم أخرج من جيب جاكيته علبة السجائر والكبريت، وفتح شُرفة الغرفة ينفث من خلالها دخانه. ثم التفت وسحب مقعد المكتب، وفتح الدرج الأول ليخرج الكراس، ووضعه أمامه، ثم أسند كوعه على المكتب ومكث يدخن سيجارته، ثم فتح الكراس يقلب صفحاته، وقرأ الحُلم التاسع بصوت واضح:

«رأيتك يا بني تحمل قلمًا ضخمًا.. تكتب في صحيفة بطول الشارع وعرضه.. وكلما كتبتَ كلمةً، تحولتَ إلى طفلٍ يَحبو فوق الورقة الضخمة.. ثم يكبر الطفل فجأةً ويتحول لرجل لبِّيب واقفًا ينظر إليك.. وظللتَ تكتب وتكتب.. حتى احتشد البَشر من حولك.. كأنك أنت مَن تخطُّ مصائرهم بيدك».

ابتسم «فريد» في هدوء ابتسامةً طويلةً، ثم قلب الصفحة ينظر إلى الحُلم العاشر نظرةً سريعةً، ومن بعده، الحُلم الأخير.. وتسمرت نظراته فوق الكلمات، كأنها تأبى قراءته! واستجمع كلَّ ما لديه من قوةٍ ليقرأه بشفاهٍ مرتعشة:

«رأيتُ أُمك يا «فريد» نائمةً على فِراشٍ من الشوك، وجيوشٌ من العقارب السوداء تَسبح في دمائها.. وكانت مقيدةً.. تربطها السلاسل من يديها وقدميها. تئنُّ بين لحظةٍ وأُخرى.. ثم تصرخ بصوتٍ يشقُّ السماء وتتزلزل له الأرض.. ورأيتك تقف وحيدًا تنظر إليها تحاول البكاء.. غير أن عينيك متحجرتان.. وقد احتبست الدموع فيهما.. وانتفخت العروق ثائرةً بالدماء.. وظلَّت تصرخ وتصرخ حتى خرجت الصرخةُ الأخيرةُ وانشقت الأرض تبتلعها.. ثم بدأت تأكل من بعدها البَشرَ بلا هوادة.. تُفاجئُهم بالتهامها لهم.. تأكل لحمهم ثم تقذفهم على السطح عظامًا وجماجمَ متناثرة. فأصدرت السماء صوتًا كزئير الأسد.. وهرع الناس خائفين من هول الأمر.. ولا يجدون مكانًا للاحتماء من ويلات القدَر التي حلَّت بهم».

ضاق صدر «فريد». أغلق كراسه وأحسَّ بتلاحق أنفاسه، ترك سيجارته التي نسيَها وتحوَّلت إلى رمادٍ هشٍّ مستقيم، تفتَّت في لحظة. قام عن كرسيه ثم وضع يده فوق صدره يحاول أن يأخذ أنفاسه بصعوبة! عاد بعدها مسرعًا إلى الكراس، ثم أمسك قلمَه بيدٍ مرتعشة، وحاول شطبَ بعض الكلمات بتردُّد، ثم لم يتمالك نفسَه ليَشطب على الحُلم بأكمله بخوفٍ وتوتر. أفنى حبرَ قلمه فوق الورقة، واستراح لمَّا اختفت معالمُ الكلمات، ولكن الورقة صارت مشوَّهة! قلَّب الصفحات ينظر إلى الأحلام السابقة، وتذكر كيف تمنى كثيرًا بعد حادث أبيه لو يَحرق الكراس! أو أن تتبخَّر الكلمات منه! تمنى لو يُغيِّر كلَّ الأحلام السابقة، فلا ذكرى بالأمس ولا ترقُّبَ لما ستأتي به الأيام!

Visual Watermark

***

لو أن للجَماد مقدرةً على النطق لأفصح عن الكثير؛ فقد شهد بيت «مجدي» لحظات عديدة من انكسارات «فيفي» مع مرور السنوات. راقب الفرشُ الفاخر، والأرائكُ، وستائر النوافذ قدْرًا كبيرًا من الغضب المكتوم. أحسَّت القدور في مطبخها وأواني تحضير الطعام بارتعاش يديها واضطرابها. وتعالت أنفاس الوسائد آملةً في النجاة من الغرق، فقد انهالت الدموع من عيني «فيفي» بغزارة في الشهور الأخيرة! شهور طويلة أمضتها تعاني البؤس والأسى والضيق من سوء المعاملة، حتى إن ابنتيها الصغيرتين تابعتا تحوُّل الأم الشابة من وردة متفتحة إلى ورقةٍ صفراء ذابلة، وراقبتا انطفاء عينيها مع مرور الأيام، فتحولت العيون الفيروزية إلى لون قاتم تتأجج فيه الكآبات المتراكمة. كل ما في البيت راقب هذا من كثب إلا زوجها!

خفَت مع الأيام بريقُ اللحظات الأولى، وانزوت المشاعر الجميلة ليحلَّ محلَّها التجاهل المتعمد، وأصبح لا يَقربها لشهور، ولا يُحدثها سوى بعجرفة، واقتصرت الكلمات بينهما على أسئلته عندما يبحث عن قميص تائه أو لتلميع حذاء! وعندما طلبت منه أن يحضر خادمةً لمساعدتها، رفض مستنكرًا وقال لها وما الفائدة منها وأنتِ موجودة! كأنها لا تعني له شيئًا سوى خادمة! وكان عندما يُحدثها يبدو كأنه ينظر من خلالها على ما خلفها، فتشعر أنها شفافة لا تحمل قلبًا ولا روحًا تنزف أمام عينيه! وما زاد الأمر سوءًا تجاهله لبناته، فلم يكن يسأل عنهن عند العودة من ساعات العمل الطويلة، ويتجاهل وقوفهن أمامه يتسوَّلن محبَّته واهتمامه! بل كان كثيرًا ما يأتي من العمل ليتناول الغداء عند والدته بالطابق السفلي، في الوقت الذي تجلس فيه «فيفي» إلى مائدة الطعام تنتظره وتنهر بناتها عند التذمر لشعورهن بالجوع! وتظل تنتظر حتى يبرد الطعام، فيأتي دون أن يلقي السلام، ويتوجه إلى الغرفة ليخلع عنه ملابسه، وحين تخبره أنها وبناته في انتظاره للغداء، يُخبرها باقتضاب أنه قد تناول غداءه بالفعل عندما مرَّ بوالدته، فتُطعم بناتها طعامًا باردًا بعد أن هجره دفء العائلة، وتأبى هي الطعام.

تجنبت «فيفي» الإفصاح عمَّا يحدث معها لأهلها، خاصةً بعد اشتعال المشكلات بين الأُسرتين في المرة الوحيدة التي باحت فيها بسوء معاملة «شمعة» لها، فاشتعلت نيران الوحدة في قلبها حتى احترق. وجاءت له ذات يوم تطلب محادثته بعد أن نام الصغار، فقال لها أن تنتظر حتى يُنهيَ مكالمةً هاتفية، جلست على مقعد أمامه تراقب ضحكاته العالية وحيويته وهو يتحدث في هاتف البيت مع أحد أصدقائه. مرت الدقائق طويلةً كالدهر وهي تنتظر انتهاء تلك المكالمة التي لا تحمل مثقال ذرة من الأهمية، وعندما أنهى مكالمته قام من أمامها، فهرعت خلفه تُحدِّث ظَهره الذي لا ترى شيئًا غيره عندما يرقد بجانبها في آخر اليوم! اشتكت له من الإهمال وكيف أنها تشعر بالاختناق، بل إنها تشعر كأن الأجل قد اقترب من كثرة الحسرة على حالها! التفت «مجدي» ينظر إليها نظرةً طويلة، وسرت رعشةُ اشتياق خفيةٌ في جسدها لاقترابه منها، وظنَّت أنه سيربت على كتفها حينما لامسه بكف يده، فابتسمت له، ولكن الإجابة جاءتها بكلمات جافة مؤذية:

«ربما تستحقين أن يسريَ السرطان في جسدكِ كالمرضى عندي، لتعلمي قيمة الحياة! كُفِّي عن شكواكِ التافهة، واشغلي نفسكِ ببناتكِ أفضل!»

كزَّت على أسنانها حتى كادت أن تتفتَّت، وجرحت أظافرُها راحةَ كفِّها من قوة انقباضه! لم تُجبه، تركته ودخلت لتقِف وحيدةً في الشُّرفة، تنظر إلى بيت أهلها وتتجرع المرارةَ والأسى، ولم تكن معاملة «مجدي» تلك وليدةَ اللحظة، لقد تابعت فتوره بعد إنجابها ابنتها الثانية، ولاحظت تأثير والدته القوي في عزوفه عنها وهجره لها، وكانت أحيانًا ما تسمع أحاديثهم بشُرفة بيت والديه وتتعالى ضحكاتهم بينما هي تقف فوقهم وحيدةً تراقب المارة، ويصدم ضجيج السيارات نظرات استغاثتها المرسلَة من أعلى! هجرت شفتيها الابتسامات بلا عودة. تذكرت «أم عثمان» وتمنت لو تأتي إليها لترمي بين أحضانها، وأن تشكو لها من غدر الأيام وزيف الفرسان وتبخر الحب الجارف! وألقت نظرةً طويلةً على الشارع، وشعرت كأن الأسفلت يناديها. رأت نفسها كأنها ألقت بجسدها من الطابق الثالث، وسالت دماؤها حتى وصلت إلى باب بيت أهلها تَطرقه، لتُخبرهم بما حلَّ بها، وبكل انهياراتها، غير أن صراخ ابنتها الصغيرة جاءها من الغرفة، فركضت إلى ابنتها التي استيقظت فزِعةً، وقد رأت كابوسًا لا تعلمه «فيفي»، فاحتضنتها بقوة، وأقسمت في قرارة نفسها أن تبقى لأجل بناتها وأن تُعلمهن حين يكبرن ألا يصبحن مثلها. أن يكسرن القيود، وأن

Visual Watermark

يحققن كلّ الأحلام التي أرادت هي يومًا تحقيقها.

***

لو أن للأيام لَونًا، لاتَّشح الخامسُ من يونيو من عام ١٩٦٧ بالسواد مدى الدهر. ولو أن للأعوام مقدرةً على اختيار المصير، لاختبأ ذلك العامُ بعيدًا عن تاريخ مصر، ولفضَّل أن ينتهي به الأمر في صحيفة ممزقة من نسخة واحدة! ولكن الدماء هي التي اصطبغت به، دماء الجنود الشرفاء التي اختلطت برمال سيناء على حين غِرَّة. وبطائرات عدوٍّ ماكرٍ تُلقي القذائف بلا هوادة لتَجني المئات من الأرواح الطاهرة، بحربٍ مُباغتة لم يمسَّها الشرف، شنَّها الإسرائيليون في تبجُّحٍ سافرٍ صار معهودًا عنهم بإراقة الدماء لسلب ما لم يملكوه يومًا!

لو أن لهذا التاريخ مقدرةً على اتخاذ القرار، لقرر الانتهاء قبل بدايته خيرًا له من أن يحمل هذا القدْر من انكسار نفوس ملايين المصريين، من الخيبة العُظمى، والنكسة التي لن تُنسى، من أيام البُكاء، ونواح الأهالي الذي لن ينتهي على أبنائهم من الشهداء.

انهمرت الدموع حارةً حارقةً على خدَّي «سيد»، تمنَّى الموت قبل أن يشهد يومًا كهذا. تمنى ألَّا يشهدَ ما حلَّ بجنود الوطن وأراضيه. وظلَّ يخبط يديه بقوة فوق مسندي كرسيه حتى كادت تتهشَّم عظامه! وحاولت «عليَّة» تهدئته دون جدوى.

لقد أصابته النكسةُ في مَقتل، تمامًا كما أصابت قلوبَ كل المصريين. واحترقت الآمالُ على ما لاقاه الجنود بأرض سيناء من مَذلةٍ وخوفٍ وموتٍ بلا معنى. وانهار «فريد» وعقلُه يأبى التصديق، وصاح يصرخ كالمجنون:

«ويقولون إنها مؤامرة! أية مؤامرة تلك؟! بل نحن مَن تآمرنا على أنفسنا بالكذب وتصديق الكذَبة! لقد فشلنا وفشل عبد الناصر، وفشل كلُّ مَن خطَّت يدُه أيَّ خبرٍ كاذبٍ يُطمئن قلوبنا! إنني أتمنى لو أكسر كلَّ الأقلام، وأحرق كلَّ الصحف التي نشرت الأكاذيب عن تقدُّمنا وتفوُّقنا على العدو! إنني أود أن أحرق نفسي لتصديقي يومًا هذه الكلمات!»

أُعلنَ الحِدادُ في طول البلاد وعَرضِها، وعلت الحسرةُ الثقيلة وجوهَ الناس جميعًا، لا ضحكات، ولا صيحات. وتبخَّرت الأغاني التي اعتادت أن تصدَح من المقاهي مُختلطةً بنقاشات الشباب المتحمسين الآملين في غدٍ أفضل. حتى أبواق السيارات ونداءات الباعة وضوضاءُ الشوارع ابتلعها صمتٌ كئيب! يسير الناس في الطُّرقات واجمين، غادرتهم الأمنياتُ والكلمات! وملأت سحائب اليأس سماءَ الوطن، صار الجوُّ ضبابيًّا والأفقُ البعيدُ مُعتِمًا لا يُبصِر فيه أحدٌ مُستقبَلًا ما!

ويومَ الاعتراف بالنكسة، صفع «فريد» بابَ غرفته ساخِطًا، يروح ويجيء فيها لا يدري ما يفعل! مكثَ حبيسها لأيام نما فيها ذقنُه طويلًا، وبدا كالمُشرَّدين غير أنه لم يسعَ إلى طعامٍ أو شَراب! احتله العجز، وظلَّ يُشعل سيجارةً تلوَ الأُخرى، يختلط دخانُها بدخانِ روحه المُحترقةِ غضبًا لا يهدأ! غيرَ عابئٍ بدخانها الكثيفِ الذي يتسرَّبُ إلى خارج الغرفة، فالكلُّ يحترقُ ولن يُدرِكَ أحدٌ مصدره!

ينظرُ من النافذة فتُطالعه وجوهُ الناس تغشاها الكآبةُ القاتمة، ينقبض صدره! يُلقي بنفسه على سريره، ينظر إلى السقف يرجوه أن يَسقط فوقَه! يتمنى أن يندثر، أن يُمحى لتهدأ روحه! وخرجت الدموع غزيرةً تفرُّ منه، وارتفع صوته بالبكاء، وأغمض عينيه باحثًا عن «آمنة»، باحثًا عن مأوًى له. وأدرك أنه مهما حاول أن يُغيِّر في الرؤى، أن يَمحوَها، ستتحقق!

ستتكس الأرواح، وستسري العقارب السوداء بين دماء الجنود الشرفاء، ستبتلع الأرضُ مَن فوقَها، وسيسكن الانكسار كلَّ مصري!

***

Visual Watermark

المذكرة الأخيرة بكراس «آمنة»

صيف ١٩٧٥

التاسع من يوليو..

اليوم عيد ميلادي يا نينه. واليوم أيضًا أدركتُ أنه لم يتبقَّ لي في كراسك سوى سبع صفحات فارغة. لقد حاولتُ ألَّا أكتب كثيرًا، وفضَّلتُ أن أخط بكراسك من حين لآخر مشاعري الدفينة التي لم أستطع البوح بها، خوفًا من نفاد الأوراق! ولا أدري من أين أبدأ هذه المرة، أخاف أن تنتهي الصفحات دون أن أحكي لكِ كل شيء.

وأُريد أن أُعاتبكِ! منذ وفاة أبي لم تَظهري لي مرةً أُخرى في أحلامي، كأنكِ اكتفيتِ بصُحبة روحه! ياه يا نينه لو تعلمين كم أشتاقُ لكِ وأشتاق لأبي ولجدّي «حافظ»! وكيف أحترق شوقًا لـ «جمال»!

لا أستطيع إدراك كيف ابتلعكم الموتُ هكذا في لحظة جوع! ولكنني حمدتُ الله يوم علمي بوفاة أخي أن أبي قد سبقه إليكِ ولم يحضر هذه اللحظة، واستقبلناها أنا وأمي و«فيفي». انكسرنا نحن الثلاثة، ولملمنا فتات انكسارنا لنَمضي به فيما تبقَّى لنا من العُمر، فظهرت هناك شقوقٌ عميقةٌ فينا تجعل الحزن يتسلَّل إلينا ويملؤنا بيُسرٍ وقتما شاء! وانكسر «فهمي» وحده في غربته! لقد اختار البقاء في إنجلترا وتزوج فتاةً إنجليزيةً. تخيَّلي يا نينه.. لقد أنجب ولدًا أعتقد أنه يُشبهني كثيرًا، أرسل إلينا «فهمي» صورًا له.

وعلى سِيرة الأحفاد، لن تُصدقي! لقد أنجبت «فيفي» ثلاث فتيات تمامًا كما رأيتِ في منامكِ، غير أنها في حَملها الثالث لم تتمنَّ أن يكون ولدًا، وكانت تدعو الله ليل نهار أن يَرزقها بفتاة! لكن بيني وبينكِ، دائمًا ما ألمح في عينيها نظرةً تعيسةً، أشعر بالعجز أمامها! لقد اختفت أختي بشخصيتها المرِحة المشاكِسة وحلَّت مكانها إنسانةٌ أُخرى يُغلِّفها الحزن، وتختبئ المآسي في قلبها!

أُريد أيضًا قبل أن أحكي لكِ المزيد، أن أعتذر إليكِ، أنا آسفٌ يا نينه لأنني أردتُ في أحد الأيام أن أُغيِّرَ أحلامك، أن أمحوها، وأن أُبدل في كلماتها، فشوَّهتُ كراسي عبثًا! وأعتذر لكِ أيضًا عن إلقائي الكراس بغضبٍ يوم النكسة، فلو تعلمين ما شعرتُ به حينها لالتمستِ لي العذر ألف مرة، وأنا على ثقةٍ من طيب قلبك وسماحته، وأنكِ ربما بالفعل تعرفين ما أشعر به يا نينه!

أنا أعلم أن كلماتي تصِل إليكِ الآن، لذا أردتُ منكِ أن تُبلغي سلامي واشتياقي لـ «جمال»، وأبلغيه أن مشاركته في حرب ٧٣ واستشهاده بها، لم يَذهب سُدى، قولي له إن مصر قد انتصرت.. وأن العقارب السوداء قد ماتت، وأبى تراب سيناءَ الغالية أن تُدفن فيه، فأحرقتها الشمس حتى صارت رَمادًا.. ورحلت معهم الانكساراتُ بلا رجعة!

رحل أخي الحبيب فداءً لهذا الوطن، كساقَيْ والدي، وروح جدي «حمودة».. أبلغيهم مَحبتي، وفخري بهم يا نينه.

غير أنني اليوم أريد أن أحكي لكِ أمرًا هامًا، أتُصدقين؟ لقد تحقق حُلمك العاشر، عن أبلة «عنايات».

فقد قررتُ العودة اليوم إلى بورسعيد تاركًا أُمي وجدتي «كوثر» التي تخطت التسعين ولم تَعُد تفقَه من الحياة شيئًا! أوقفت سيارتي أمام العمارة، وهبطت منها أنظر إلى شُرفة البيت. وحين دلفت المدخل، بدا كل شيء ساكنًا تمامًا. وظننتُ أن كلَّ مَن هاجروا وقتَ النكسة لن يعودوا مرةً أُخرى. صعدت بضع درجات من السلم، ولكنني هبطت مرةً أُخرى أتحسس اسمي واسم «حسين» المنقوش على الحائط بكفِّ يدي. وسرى بداخلي الحنينُ لأيام الطفولة والسنوات الآمنة، تنهدت روحي! وأكملت السلم إلى بيتنا. وقد شعرت كأن العمارة أصبحت مهجورة. دسست يدي في جيبي أبحث عن المفتاح، فباغتتني أصواتٌ متعاليةٌ لضحكات أطفال في بيت أبلة «عنايات» أثارت فضولي! لذا، قررت طرق بابها أولًا، وتخيَّلي يا نينه.. فتحت لي امرأةٌ اسمها «عنايات» أيضًا! وانتابني الشك للحظة أنهم سُكان جُدد، فسألتُ عن أبلة «عنايات»، فنادت تقول: «ماما، هناك زائر يسأل عنكِ»، فأتت من خلفها وهي ترتدي جلبابًا بسيطًا وفوق رأسها وشاح أبيض خفيف، وسارت نحوي تستند على عكازها بخطوات بطيئة وقد ضاقت عيناها ونَقشت التجاعيد لوحةً فوق وجهها، قد أصبحت عجوزًا طاعنةً في العمر! دققت النظر بوجهي لدقائق

Visual Watermark

دون أن تعرفني، وحين ذكّرتُها بنفسي، احتضنتني وبكَت، وهمهمت: «يااه! يا ابن الغاليين!» ثم قالت لي إن الفتاةَ التي فتحت الباب هي ابنةُ زوجها عمو «أمين» رحمه الله! وعرَّفتني على الأحفاد الذين التفوا حولها يقفزون بمرح! لقد عُمِّرَ بيتُ عاقر عمارتنا بالأبناء والأحفاد، تمامًا كما رأيتِ في حُلمكِ العاشر يا نينه! فقد رحلت أمهم أيضًا بعد أبيهم، وأصبحت أبلة «عنايات» هي الأم والأب والجد والجدة لأبناء زوجها!

تركتهم بعد ذلك، لأدخل بيتنا. ولكنني وقفت لحظاتٍ طويلة على عتبة الباب أنظر إلى الأثاث الذي غطته الأقمشة لحمايته من براثن الزمن، فبدا كالأشباح تنظر إليَّ في ارتعاد! وتسلَّلت من خلف النوافذ المغلقة خطوطٌ رفيعة من الضوء، واستقرت فوق الكنبة التي اعتدتِ الجلوس عليها يا نينه. دخلتُ خطوتين ثم أغلقت باب البيت، ووقفت في منتصف الصالة أسترجع السنوات، شعرت للحظة بتوقف الكرة الأرضية وانعدام الجاذبية، سكن الكون من حولي، وحلَّقت روحي إلى عالمٍ آخر.. خُيِّل إليَّ أنني اجلس بجانبك وفي يدي الكُراس! سمعتُ صدًى لأصواتنا، رأيتُ خيالاتٍ من أمي وأبي، ورأيتُ نفسي راكضًا خلف «فيفي» في الصالة ثم وقفنا ننظر إلى العفريت المهول في نهاية الممر فابتسم لنا ثم تبخَّر وتبخَّرت معه «فيفي». ومرت أمي سريعًا من جانبي وهي تحمل «فهمي»، ثم تسلَّلت إلى أنفي رائحةُ طبيخ «أم عثمان» وصوتُها الدافئ يناديا لنستعد للغداء، وأخرجت رأسها من المطبخ تنظر إليَّ مبتسمةً وهي تشير إلى أخي الصغير.. فأخفضت النظر لأرى «جَمال» صغيرًا يحبو نحوي، واعتدل ليجلس ناظرًا إليَّ بأعينٍ فرِحةٍ وفمٍ مبتسمٍ أظهرَ سِنَّيه الصغيرين، وظلَّ فاتحًا ذراعيه لكي أحمله! تنهَّدتُ بحُرقة متذكِّرًا أن هذا الصغير قد كبر وحارب.. واستُشهد! ودمعت عيناي، غير أن يد أبي ربتت على كتفي تواسيني، فالتفتُّ أنظر إليه وهو يعود ليجلس على كرسيه المفضَّل بجانب الراديو، وأمسك جريدته يقرؤها. فأخذتني الذكرى إلى يوم رحيله وسطرِ النهاية في صحيفة عُمره، وكيف مات فوق كرسيه، عوض، مُستكينًا مُتقبِّلًا أقدارَه جميعَها في هدوء!

ذكَّرني هذا البيتُ بكل شيء، فأدركتُ أنه يَسكنُني طوال تلك السنوات بكل ما حمله من ذكرياتنا وأسرارنا. أدركتُ أنه كان في انتظاري بكل ما احتوته قلوبنا، بالأيام التي لا تُنسى، وبسكينتكِ يا جدتي! بكل هذا الحُب، بنسائم بورسعيد التي لم تختلف على مرِّ الأحداث واختلافِ تصاريف الزمن!

أخذتُ نفسًا بسعة صدري ثم سِرتُ في ممر البيت حتى دخلتُ غرفة النوم التي جمعتنا لسنوات. فتحت الشُّرفة ونظرت إلى السماء أتأملها، ثم عدت لأجلس فوق السرير وفتحتُ حقيبتي الجلدية، أخرجتُ منها كتابي الذي صدرَ منذ أشهرٍ قليلة، تأملتُ عنوانه، قرأتُه مرارًا وتكرارًا، ولن تصدقي ما كُتب على غلافه، فقد أسميتُه: «ما لم تُخبرني به آمنة!»

تمامًا كما قلتِ لي من قبلُ، إنني سأعيش وأُخلِّد ذِكراكِ! غير أنني أعرف أنكِ لم تُخبريني بالكثير.. سرحتُ للحظات في كتابي، وعقلي يتساءل عن كلِّ ما لم تُخبريني به، ثم رفعتُ الوسادة لأضعه تحتها، ومن فوقها وضعتُ رأسيَ المُثقَل بالذكريات!

تذكَّرتُ حُلمك عن الفتاة ذات الشَّعر القصير، حبيبتي الوحيدة التي لم تظهر بعدُ، وعينيْها اللتين ستُصبحان الغرقَ وطوقَ النجاة!

خلعت نظَّارتي ووضعتها بجانبي، ثم أغمضتُ عينيَّ وهمستُ قبل أن أُسلِمَ نفسي لنومةٍ هانئةٍ أفتقدها منذ سنوات: «تُرى متى سيتحقق هذا الحُلم يا نينه؟!»

تمّت

١١/١١/٢٠٢٣

رِهام راضي

Visual Watermark